nesemat.com

نسمات

دراسات حول مشروع **الخدمة**

مفهوم «المجاهدة»
في منهج الخدمة
سليمان الدقور

مشروع الخدمة من عين الواقع
محمد خروبات

أفكار كولن داخل السياق الأكثر
رحابة للحركة الإنسانية
جيل كارول

دار النيل
DAR AL NILE

نسمات
3

نسمات
دراسات حول مشروع الخدمة
إصدارة علمية بحثية متخصصة
تصدر عن دار النيل للنشر
www.nesemat.com

Copyright©2015 Dar al-Nile
جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد وإشراف
صابر المشرفي

تحرير وتصحيح
هيئة النشر لدار النيل

اللجنة الاستشارية العلمية
د. محمد إقبال عروي
د. محمد جكيب
د. سعيد بويزري
د. محمد باباعمي
د. هدى درويش
د. سليمان الدقور
د. باسم عيتاني
د. جمال السفرتي
د. فؤاد البنا
د. عبد الله الدعجاني

تصميم فني
أحمد شحاتة

غلاف
ياووز يالمز

البريد الإلكتروني
nesemat@yahoo.com

التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر، مصر
Tel. : 002 02 26134402-5
Mobile: 002 01023201002
E-mail: info@daralnile.com
www.daralnile.com

الترقيم الدولي
978-977-801-089-3

رقم الإيداع
2017/15983

رقم النشر
1108

القاهرة - مصر

محتويات

مقالات

التغيير الناجح لمحات من المنجز في رؤية الأستاذ كولن / محمد جكيب ٢

مرتكزات تربية الإنسان الجديد عند الأستاذ فتح الله كولن / عماد الشريفين ... ١٤

الجمع بين الحُسنيَين الأستاذ كولن مربِّيًا ومُفكرًا مسلمًا / توماس ميشال ٣٠

مفهوم «المجاهدة» في منهج الخدمة / سليمان الدقور ٣٧

«خُوجَه أفندي» قوة المثال في النموذج المجتمعي / سمير بودينار ٥٢

حوارات

الخدمة بين الرؤية والطاقة والحركة / محمد جكيب - سمير بودينار ٦٠

مقالات

مقومات وشروط البناء الحضاري في فكر فتح الله كولن / نادية لو طفي ٧٧

الإسلام والعالم قراءة في ظلال النور الخالد / إبراهيم البيومي غانم ٨٤

عرض كتاب

أفكار كولن داخل السياق الأكثر رحابة للحركة الإنسانية / جيل كارول..... ٩٦

رحلات وثائقية

مشروع الخدمة من عين الواقع المبادئ والمجالات / محمد خروبات ١١٣

facebook.com/nesematstudies
twitter.com/nesemat_com

وقفة تأمل

عالمنا اليوم في حاجة مُلحّة إلى وقْفة للتأمل، بل في حاجة إلى وقفات تأمُّلية وتفكُّرية كثيرة، وإلى تدبر عميق في حال إنساننا ومآله، وإلى تشريح نفَّاذ عبر مِسبار التعقُّل والحكمة، لتشخيص حقيقة الداء العضال الذي أصاب روح الإنسان فينا في مقتل، فالفوضى والتنازع والفرقة والصراع تكاد تكون هي العملة السائدة في كل مكان.

عالمنا اليوم في حاجة لأن ينصت لصوت العقل والحكمة، ولصوت قادر على النظر إلى ما حولنا من مقام يتيح رؤية كل شيء، واستيعاب كل ما يجري برؤية أخرى ومنطق مختلف، لأنه استطاع رصد مقدمات الأزمة وحذَّر منها ومن الانخراط فيها، بل وكان قادرًا على توقع طبيعة النتائج التي ستسفر عنها ودعا إلى تغليب صوت العقل والحكمة وعدم الانجرار إلى دوامة الفوضى لأن دخولها أيسر بكثير من الخروج منها.

إنَّ حالَ مَنْ في قرار دوامة الفوضى لا يتيح لمن انخرط في الفتنة أن يصف لنفسه العلاج ويتصور الحلول، لكن هناك من اختار بوعي الابتعاد عن رياح الفوضى، وأعدَّ العدة الفكرية والمنهجية والروحية لمرحلة ما بعد الإعصار، كمعالج يقف أمام بناء تلتهمه النيران؛ يمدُّ الخارجين منه بجرعات هواء نقية، تعيد له توازنه وتمسح عن عينيه غشاوة دخان الفوضى.

من وسط هذا الركام تهبُّ نسمة "نسمات" منبرًا للتأمل الفكري والمنهجي والأكاديمي في فكر الخدمة والأستاذ كولن، منبرًا موجَّهًا لمن يريد تجديد رحلة التجديد والإصلاح والإقبال على الحياة بروح مفعمة بالأمل والثقة في الذات وفي رصيدها الديني والتاريخي والحضاري والثقافي. فكل من أشاد بفكر فتح الله كولن وبما قدمته الخدمة من منجز يبرز الوجه المشرق للإسلام من علماء ومفكرين ومثقفين؛ لم تكن أقلامهم وأقوالهم مأجورة، بل كانت تعبيرًا عن ذلك الهاتف الداخلي المتطلع إلى رؤية الانبعاث الحضاري وقد صار فعلاً وليس مجرد قول.

لقد رأى هؤلاء كلهم أن تنزيل الأفكار وتطلعات الإصلاح أمر ممكن وليس مستحيلاً، وأدركوا مع ذلك كله أن هناك همة رجل نذر حياته كلها لرؤية روح الدين وقد تحولت إلى منجز، فاكتشفوه مرة من خلال ما أَنْجَزَ في مجالات كثيرة، واكتشفوه أخرى من خلال مؤلفاته الكثيرة، التي لم تترك مجالاً إنسانيًا إلا ورصدته بوعي وذهنية متقدمة جدًّا كأنها آتية من المستقبل، واكتشفوه مرة ثالثة عندما اجتمع من اجتمع على تشويه صورته، فما غيَّر مواقفه وظلَّ صامدًا يردُّ هجمات الخصوم بالحكمة والتعقل، ولم يبهت لونُ خطابه كما بهت لونُ خطابهم.

تريد نسمات أن تكون منبرًا فكريًّا أكاديميًّا يقدِّم -من خلاله- كلُّ من استوعب فلسفة الخدمة ورؤية الأستاذ كولن في مجال الإصلاح والانبعاث، لتكون مُعينًا لمن يريد مراجعة منهجه ومواقفه وتصوراته خلال هذه المرحلة الحرجة والمرحلة المقبلة، ولتكون مَعينًا لمن يريد إشباع العين والرؤية بالمنجز، لا إشباع السمع فحسب. وبالله التوفيق. ■

التغيير الناجح
لمحات من المنجز في رؤية الأستاذ كولن

محمد جكيب

أ.د. محمد جكيب، أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث.. قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".
شارك في عديد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية داخل المغرب وخارجه.

"الخدمة" -أو "هِزْمَت" حسب التعبير التركي- من أنجح التجارب التي ترتكز على الفاعلية الحركية، وهي تجربة نموذجية، جديرة بالاهتمام وبالدراسة، وجديرة بأن يتخذ أبو الحركة الروحي ومؤسسها الفعلي الأستاذ فتح الله كولن، قدوة في مجال الإصلاح وبناء رصيد من العمل الإيجابي.

فالخدمة في الوقت الراهن نمطُ حياة وأسلوب عيشٍ ينخرط فيه العديد من فئات المجتمع، من أجل مصلحة المجموع... إنها وعي جمعي إيجابي آخذ في الانتشار، لأنها منفتحة على العالم كله من خلال أنشطة كثيرة أهمها التربية والتعليم، تربية تقوم على عنصر مركزي هو نشر القيم الإنسانية السامية، المرتكزة على التسامح وعلى احترام إنسانية الإنسان، واحترام المحيط الذي يعيش فيه. وهي لا تَدّخر جهدًا بفضل إلحاح فتح الله كولن المستمر من أجل غرس هذه القيم، وإيجاد جيل إنساني جديد يعيد التوازن للعالم". بهذه الأفكار وغيرها رصد المقال لمحات من المنجز في رؤية الأستاذ كولن وحركته بوصفها نموذجًا عمليًّا أثبت فاعليته على أرض الواقع.

منذ أحسّت أقطار العالم الإسلامي بأنها فقدت الشهود الحضاري، وتخلفت عن ركب التطور بمسافة طويلة، تحركت آلة التفكير في أسباب الأزمة والعطل الذي ولّد العقم الإبداعي لدى المسلمين. منذ ذلك الحين أثيرت الآلاف من الأسئلة، وبرزت أجوبة عديدة ومشاريع إصلاحية متطلّعة إلى التغيير، لكن الأسئلة المثارة على مدى قرن ونصف أو قرنيين من الزمن تفيد بأن العقل الإصلاحي كان مسكونًا في الغالب بهَمّ البحث عن علة تقدم "الآخر" المسيحي وتأخّر الـ"أنا" المسلم؛ بمعنى أن طبيعة السؤال كانت تبطن بعض أنانية تميل إلى الظن بأن الحضارة سُرقت من المسلمين ومن عالمهم، وقد سرقها الآخر.

ظلَّ تشريح الأزمة مُثارًا في حضرة هذا "الآخر" الذي تفوّق على المسلمين وسرق شهودهم الحضاري على الناس. لم تكن الأسئلة متّجهة إلى الذات وإلى ما يرتبط بها، وأما الأجوبة المقترحة فكانت تحمل في طياتها الفشل لاستحضارها إشكالية الصراع مع نموذج قام على أساس مادي، وعلى مقومات تختلف بالضرورة عن مقومات الذاتية الثقافية. كانت المشاريع الإصلاحية مجرد اقتراحات مفتقرة إلى خطط للتنزيل والتفعيل، ومجرد أحلام وأشواق موغلة في المثالية.

حاول بعض من كان بيدهم سلطة القرار إدخال إصلاحات في المجال العسكري والصناعي، وبناء قوة عسكرية تضاهي عسكرية الآخر الأوربي. حدث هذا مع بعض السلاطين في تركيا، ومع محمد علي باشا في مصر، وكذلك حاول خير الدين التونسي في تونس في المجال البحري... لم يكن في مقدور هؤلاء لمس عمق الأزمة، فاختزلت عندهم وعند من نظّروا لهذه الإصلاحات في مجرد تقنيات ومهارات ينتج اكتسابها إنهاء الأزمة وعودة الشهود الحضاري.

ومن جهة ثانية فإن بعض الذين قاربوا حقيقة أزمة المسلمين، تصرّفوا باعتبارهم نخبة اجتماعية تؤدي مهمة جليلة، هي إنتاج الأفكار لتجاوز أزمة الذات، لكن هذه النخبة صعدت إلى برج عاجي وأحاطت نفسها بهالة الأنانية المعرفية، فلم تر وجوب نزول النخبة بالمعرفة الإصلاحية من مستوى النظر إلى مستوى التفعيل، ولم تنخرط في عمق المجتمع لإحداث التغيير، وحتى عندما اتجهت تريد نشر تصوراتها الفكرية اختارت نخبة ضيقة للقيام بذلك. فحُكم على أغلب مشاريع الإصلاح بالبقاء حبيسة نخب عاجزة عن الوصول إلى شرائح واسعة، وعندما شعرت هذه النخبة بأهمية الالتحام مع المجتمع اختارت -مع الأسف- العمل السري ولم تستطع الخروج إلى العلن.

لا مبالغة إذا قيل بأن أغلب مشاريع الإصلاح كانت مسكونة بهموم الحكم والسلطة وإلحاح فكرة

الخدمة في الوقت الراهن نمطُ حياة ينخرط فيه عديد من فئات المجتمع، من أجل مصلحة المجموع... إنها وعي جمعي إيجابي آخذ في الانتشار، لأنها منفتحة على العالم كله من خلال أنشطة كثيرة أهمها التربية والتعليم.

nesemat.com نسمات nesemat.com

التغيير من القمة، وقد كان هذا العامل أحد الأسباب المباشرة التي ساهمت في بروز البعد الأيديولوجي في بعض مشاريع الإصلاح والتغيير، وخاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، لِتخلق الحدث خلال مرحلة ما بات يعرف بـ"الربيع العربي"، ولِتجد نفسها أمام امتحان عسير جدًّا قد يعيد أجوبة الإصلاح إلى نقطة الصفر.

قد تُشعر هذه الصورة القاتمة بانسداد الأفق، لكن الصورة ليست بهذه القتامة وليست بهذا العجز، لأن الذين استطاعوا تجاوز عقدة الصراع واستبطنوا الذات ولمسوا هويتها الثقافية ملامسة فعلية، قد تمكَّنوا من تجاوز التنظير إلى الإنجاز.

امتحان الإنجاز في الفكر الإصلاحي المعاصر

أكبر امتحان يواجه الإصلاح في العالم الإسلامي في الوقت الراهن هو امتحان المنجز الحضاري، والأساس الفكري الذي يرتكز عليه. بعبارة أخرى إن أسئلة المرحلة في مجال الإصلاح يجب أن تركز على ما أنجز وعلى أي أساس أنجز وآفاق المنجز الآنية والمستقبلية، وأن تركز كذلك على مناهج الإبداع في تحويل الفكري إلى حركية.

"الخدمة" -أو "هِزْمَت" حسب التعبير التركي- من أنجح التجارب التي ترتكز على الفاعلية الحركية، وهي تجربة نموذجية، جديرة بالاهتمام وبالدراسة، وجديرة بأن يتخذ أبو الحركة الروحي ومؤسسها الفعلي الأستاذ فتح الله كولن، قدوة في مجال الإصلاح وبناء رصيد من العمل الإيجابي.

راكم الأستاذ على مدى خمسين سنة خلت النجاح في مجالات مختلفة، لكن أهمها هو المجال التربوي الذي ظل طيلة حياته يعمل على صقل منهجه وعلى تطوير قدراته، حتى استقام عوده وصار اليوم علامة أو ماركة عالمية حاضرة في أكثر من ١٦٠ دولة.

لا مجانبة للصواب إن قيل بأن أغلب الحركات الإسلامية كانت دائمًا محط شك بالنسبة للقوى العالمية وخاصة أوروبا وأمريكا؛ فقد عجزت هذه الحركات عن بناء رصيد من الثقة لدى هذه القوى، وهو ما أبقى حدة التوتر قائمًا إلى اليوم، يرجع ذلك إلى طبيعة الخطاب الذي انبنت عليه أدبيات بعض هذه الحركات، إذ لم تتمكن من بناء خطاب يسمح للآخر بالانفتاح عليها، وظلت بفعل عقدة الآخر عاجزة عن تبني خطاب مطمئن تستطيع تسويق نفسها من خلاله. استفاد الأستاذ فتح الله كولن من مواطن الخلل في هذا الخطاب، فطوّر خطابًا أصيلاً نابعًا من مرتكزات الثقافة الذاتية، منفتحًا على المجتمع الإنساني كله.

إن الخدمة ليست مجرد تيار حركي، ولا مجرد تيار فكري نجح في تفعيل رؤيته الفكرية، بل هو أكبر من ذلك بكثير؛ فالخدمة في الوقت الراهن نمطُ حياة وأسلوب عيشٍ ينخرط فيه العديد من فئات المجتمع، من أجل مصلحة المجموع... إنها وعي جمعي إيجابي آخذ في الانتشار، بل هي تيار عالمي لأنها منفتحة على العالم كله من خلال أنشطة كثيرة أهمها التربية والتعليم، تربية تقوم على عنصر مركزي هو نشر القيم الإنسانية السامية، المرتكزة

على التسامح وعلى احترام إنسانية الإنسان، واحترام المحيط الذي يعيش فيه. وهي لا تَدّخر جهدًا بفضل إلحاح فتح الله كولن المستمر من أجل غرس هذه القيم، وإيجاد جيل إنساني جديد يعيد التوازن للعالم.

إذا كانت بعض التيارات ترى أن المال وسلطته -بغض النظر عن مصدره- يستطيع شراء كل شيء بما في ذلك النهضة والحضارة، فإن الزمن سيكذّب دعاة هذا التيار الجارف.

نسمات nesemat.com

الإنسان المشكلة، الإنسان الحل

لقد أدرك الأستاذ فتح كولن منذ وقت مبكر أن أكبر مشكل يواجه المجتمعات الإسلامية -بل العالم كله- هو مشكل "الإنسان الصالح" الذي يتحرك حركة متوازنة ومنسجمة مع مكونات الوجود؛ ولمس بإحساسه المرهف وروحانيته العالية أن المشكلة تكمن في "الإنسان"، وأن حضارة المجتمع الصالح متصلة بصلاح الإنسان، وأن الحضارة الإسلامية كانت قادرة على العطاء والإبداع عندما كانت تتوفر على نماذج بشرية مرهفة الحس روحانية التطلع، مشدودة إلى الآفاق العالية، يقول: "الإنسان كائن عاجز بحد ذاته، ولكنه لا تخفى عن النظر حقيقة واضحة وهي أنه يبدي مقدرة كبيرة عندما يستند إلى صاحب القدرة اللانهائية. أجل، عندما يستند إلى صاحب القدرة اللانهائية ينقلب مِن قَطْرة إلى سيل، ومِن ذرّة إلى شمس، ومِن متسوّل إلى سلطان".

لقد كان الرسول ﷺ نموذجًا للإنسان الكامل الذي اصطفاه الله تعالى، ليكون قدوة للإنسانية في سعيها إلى إعمار الأرض وفق المسلك الذي يرضاه تعالى. وقد نظر الأستاذ فتح الله كولن لشخصيته النبوية والإنسانية ﷺ على أنها الغاية والهدف الذي يتحتم التمسك به بغرض الوصول إلى تجاوز أزمة الذات الإنسانية والحضارية، يستمد هذا الاقتداء مشروعية عند الأستاذ فيما يترتب على الاصطفاء، وهو الفهم العميق والدقيق لحقيقة الوجود، ونجاحه ﷺ في تكوين نماذج بشرية سامقة كالصحابة رضوان الله تعالى عليهم جميعًا، الذين أدركوا من خلال أستاذهم ﷺ أنهم في حاجة إلى أن تعزف قلوبهم وجوارحهم إيقاع التوحيد بشتى السبل والوسائل في كافة مجالات الحياة، وأن يبلغوا هذا الإيقاع إلى أقصى نقطة يستطيعون الوصول إليها. لقد جعلهم الرسول ﷺ يدركون أنهم ينبغي أن يكونوا مبلغين ومربين وأساتذة للعالمين، لأن أستاذهم ﷺ أُرسل للعالمين.

تمثل الأستاذ فتح الله كولن هذه الأبعاد وغيرها في شخصية الرسول ﷺ فأدرك أن حاضر العالم الإسلامي ومستقبله لا يتحقق بغير تمثل حقيقي وصحيح لمختلف جوانب سيرته وسنته ﷺ. فبغير الرجوع الفعلي إلى قيم الإسلام لا أمل في انصلاح حاضر هذه الأمة، وهو ما يحتم عليها إعادة اكتشاف ذاتها بالتعرف على حقيقة البعد الإنساني فيها، أي أن تدرك معنى الإنسان فيها، حيث يقول محلّلاً حالة الانحراف التي وصلتها الذات: "تعرض الإسلام منذ حرمنا من إرث الأرض إلى معالم ينفطر

ارتباطًا بالتاريخ، يرى الأستاذ أن معرفة التاريخ من أوجب الواجبات التي يتوجب على الإنسان الجديد معرفته ومعرفة ترابط أحداثه.

nesemat.com نسمات nesemat.com

لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم... لا يُنكَر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما وخمودهما وتكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفلك النبوي... وحجب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم... إن إزالة هذا الانحراف الهرم المادّ جذوره إلى عصور خلت، المدعوم بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، هو بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وتعرفنا -كرة أخرى- على الشعور الإسلامي، والمنطق الإسلامي، وأسلوب محاكمته العقلية"[1].

الخطاب الإسلامي وروح التاريخ

حافظ الأستاذ فتح الله كولن دائمًا في خطابه الإصلاحي على روح الرؤية الإسلامية، فجعل هذا الخطاب ثابتًا في مبادئه، لكنه مرن في أساليب تنزيل المبادئ، وقادر على التكيّف مع طبيعة الواقع، ولذلك يمكن القول بأن الأستاذ فتح الله كولن، قد طور الخطاب الإسلامي في اتجاهين:

• الاتجاه الأول ينظر إلى الواقع المحلي وإشكالاته المستعصية، وما يتطلبه هذا الواقع من حلول تنهي زمن العقم، وتعيد قاطرة الشهود الحضاري إلى السكة الصحيحة.

• وأما الوجه الثاني لهذا الخطاب فيطل على الإنسانية كلها، مفعلاً بذلك أحد أهم المرتكزات المؤسسة للإسلام باعتباره دينًا للعالمين، لأن الرسول ﷺ بعث للعالمين.

لا ينبغي الظن بأن وجهي هذا الخطاب متعارضين، بل هما متكاملان، رغم أن الحكمة وإكراهات الواقع قد فرضت بروز الخدمة باعتبارها حركة مجتمع مدني من خلال الوجه الأول قبل الوجه الثاني، وقد يختلف الوجهان في طبيعة المفاهيم الموظفة وطبيعة الخطاب الموظف، لكنهما وجهان للعملة الذهبية الواحدة.

لا تتعلق القضية في نظر الأستاذ بمجرد منجز هنا ومحاولة هناك، أو بالتفكير في مشروع هنا أو مشروع هناك، أو بفتح بضع مدارس أو عقد منتديات للتفكير والتأمل هنا أو هناك... إنها أكبر من ذلك، إنها قضية إعلان نفير عام، إلى درجة أن يصير ذلك نبض مجتمع بكامله بمختلف فئاته، وأن يصير حليبًا يرضعه أبناء هذا المجتمع منذ نعومة أظافرهم.

الرجوع إلى التاريخ -بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن- يعني الرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ، وسيرة الصحابة الكرام ﷺ، ليس من أجل ترديدها قصصًا بطولية تُروى للفتيان، بل من أجل الاقتداء بهؤلاء الأبطال، واستحضار تفاصيل حياتهم حتى تكون المصباح الذي يشدّ الذات إلى إعادة صياغة واقع اليوم.

بعبارة أخرى إن مفهوم الأستاذ فتح الله كولن للتاريخ متعدد الأبعاد، ومن أبعاده بناء جيل جديد قادر على الوصول إلى مستوى الأفق الإيماني والحركي الذي وصله الصحابة الكرام ﷺ. لقد عاش الصحابة بتوجيه من مرشدهم وأستاذهم وبما قذفه نور النبوة في جوارحهم، من فكر إسلامي وتصور إسلامي بشموليته وروحانيته وواقعيته، فاقتربوا من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، فكانت كل محاكماتهم منطلقة من هذا الفكر الإسلامي الذي تشربته أرواحهم، وكانت كل حركيتهم قائمة على التصور الإسلامي.

وتحقيقًا لهذه الغاية العظيمة لا ينبغي في نظر الأستاذ أن تكون السيرة النبوية وسيرة الصحابة مجرد أحداث خالية من الحياة والمعنى، لأنها حققت الاستشعار فالتعقل بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة للأمر نفسه، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها. هذا الخطاب عند الأستاذ فتح الله كولن محل الأحلام والشعارات، بل هو محل التطلعات العملية والخطط والمشاريع القابلة للإنجاز والتنزيل.

يجد المتأمل في حياة الأستاذ فتح الله كولن أنه ألزم نفسه قبل غيره برياضة روحية متطلعة إلى تمثل سيرة الرسول ﷺ، يقول في مقدمة كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية": "إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمُنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الخدمة من التجارب التي ترتكز على الفاعلية الحركية، وهي تجربة نموذجية، جديرة بالدراسة، وجديرة بأن يُتخذ الأستاذ كولن، قدوة في الإصلاح وبناء رصيد من العمل الإيجابي.

وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له، كان رغبة ملحة لديّ -كما عند كثيرين- وهاجسًا من هواجس فكري ومشاعري"، ويقول محفّزًا نفسه: "ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعتُ أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قِطميرًا" له، هل استطعت أن أُشْعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه ﷺ... حب سيد السادات حبًّا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟"[٢].

الأبطال في قصة النجاح

تبدأ قصة نجاح الأستاذ فتح الله الحركية بهذه الآمال والتطلعات مع عصبة من الشباب الواعد، من خلال حرص صادق على أن يكون لهم أبًا روحيًا ومربيًا وموجهًا. لقد رباهم على حب الرسول ﷺ وعلى الاقتداء بالصحابة الكرام ﷺ، من خلال اقتدائه

-هو شخصيًا- بسيرة الرسول ﷺ والتحلي بصفات الصحابة رضوان الله عليهم، ربما لم تكن هذه العصبة تعرف الشيء الكثير عن طموحات الأستاذ وتطلعاته الإنسانية، لكن الأستاذ نفسه كان يعرف بأنه قد نذر حياته لله، ومن أجل وضع اللبنات الأساسية لإيجاد جيل جديد صَنَّاع للنهضة، ليس من الضروري أن يعلم كيفية التخطيط والتنظير لتلك النهضة، لكنه كان يعرف أنه ملزم بفعل الخير والصلاح وأن يسعى قدر مستطاعه إلى أن يكون راشدًا في حركيته. لقد جعل الصدق مع الله والصبر على ذلك شعار مرحلة رفع قواعد البناء والتشييد.

أدرك الأستاذ فتح الله كولن منذ وقت مبكر حاجات الواقع، فحدد الأولويات ورسم الخطط في عالمه الداخلي، وتسلح بالثقة في الله تعالى مستحضرًا روح القرآن وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾(مريم:٩٦). لم يكن الأستاذ فتح الله كولن يتطلع إلى هذا الود من أجل الحصول على مركز اجتماعي أو شهرة، بل كان يأمل ويرجو أن يوفقه ربّه في أن يفتح القلوب، ولذلك وبعد مضي فترة من الزمن، ركز اهتمامه بمعية تلك العصابة على افتتاح محاضن الطلبة.

كانت محاضن الطلبة في مرحلة ما، من مراحل عمل الأستاذ الحركي، تلبي جملة حاجات منها ضبط نجاعة المنهج التربوي الذي طبّقه في بداية المشروع الإصلاحي، ومنها توفير الظروف المواتية للشباب حتى يتفرّغوا للتحصيل العلمي والمعرفي الذي يؤهّلهم ليكونوا أفرادًا قادرين على المساهمة في بناء الوطن وتطويره نحو الأفضل... ومنها كذلك حماية هؤلاء الشباب من أن تنزلق أقدامهم إلى شتى أنواع الانحراف الأخلاقي والفكري وإلى العنف بشتى أنواعه. وقد لعبت هذه المحاضن دور المدرسة الإعدادية التي تعد الأطر التربوية التي أدارت باقتدار مرحلة توجيه الشعب إلى بناء المدارس، وكانت هذه المخرجات هي المحرك الذي أدار دواليب المدرسة والتعليم.

المدرسة حضن جيل الأمل

آمن الأستاذ فتح الله كولن منذ البدايات الأولى لعمله الإصلاحي، بأن أنجع وسيلة وأقربها إلى الإصلاح هو تكوين أجيال قادرين على إدراك حقيقة وجودهم ووظيفتهم التي خُلقوا من أجلها، وقادرين في الوقت نفسه على ممارسة عبوديتهم لله ﷻ في دائرة الإعمار والبناء، ولا سبيل للوصول إلى هذا المستوى سوى بإيجاد مدرسة وفق مواصفات محددة.

لقد كان حرص الأستاذ منصبًّا على البحث عن السبل التي تجعل المجتمع بجميع فئاته وبجميع أفراده يستشعر دوره الحاسم في عملية البناء، من خلال وعي عام أو وعي جمعي يجعله يستشعر دوره في مقدمة الصفوف على أنه هو المسؤول الأول عن إعادة الاعتبار للذات بربطها بمرتكزات الثقافة الذاتية، وجعل ذلك جزءًا من تحقيق مبدأ العبودية إن لم تكن هي عين العبودية.

ثم آمنت فئات واسعة من أبناء المجتمع بأنهم ملزمون بأن يعتبروا أمر توفير شروط البناء والإصلاح يعنيهم مباشرة، فأخذوا بزمام المبادرة

بأنفسم بتوجيه من الأستاذ فتح الله كولن الذي ظل يرفض بإصرار أن يكون له علاقة عضوية مباشرة بما يقوم به المجتمع من مبادرات تتطلع إلى تحقيق آماله وأهدافه، فانبرى المجتمع يبني المدارس التي أثثها وأشرف عليها "الجيل الذهبي"، الذي تربّى في المحاضن التي وضع الأستاذ فتح الله كولن منهج عملها، من خلال تكوينه لتلك المجموعة الأولى في ستّينيات القرن الماضي.

الوقف أهم بعد في فلسفة الخدمة

ارتباطًا بالتاريخ، يرى الأستاذ أن معرفة التاريخ من أوجب الواجبات التي يتوجب على الإنسان الجديد معرفته ومعرفة ترابط أحداثه، يقول: "الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقل موضوعي يتصور الأمس واليوم معًا، قادر على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوب في المقايسة والمقارنة، منفتح على بُعد أسباب الوجود وعلله، محيط بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها"[٣].

ومن أهم القيم الضاربة بجذورها في تاريخ الحضارة الإسلامية، والسلوكات الجميلة للمجتمع المسلم، التي أعاد لها الأستاذ فتح الله الاعتبار وأعاد توجيه المجتمع إليها، نجد نظام الإنفاق والوقف؛ فقد أقنع المجتمع بأهمية البذل والعطاء، وبأهمية أن يكون ذلك في الدائرة التي تشيّد المستقبل، كان جهد الإحسان متجهًا قبل دعوته إلى بناء المساجد، فأعاد توجيه البوصلة جهة بناء المدارس والمعاهد التربوية التي تكوّن الأجيال الذهبية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أغلب مشاريع الإصلاح كانت مسكونة بهموم الحكم والسلطة وإلحاح فكرة التغيير من القمة، وقد كان هذا أحد الأسباب المباشرة التي ساهمت في بروز البعد الأيديولوجي في بعض مشاريع الإصلاح والتغيير.

سجّل التاريخ للمسلمين تطويرهم لنظام الوقف، حتى صارت أغلب مناحي الحياة تدبَّر بأموال الوقف، وطوّر المسلمون جملة قواعد وضوابط لتدبير هذا النظام، قد تصلح لهذا العصر. وقد أعاد الأستاذ إنتاج هذه القواعد وصياغتها وفق قوالب منهجية مرنة تستطيع التكيف مع طبيعة الحياة المعاصرة التي تتميز بالتشابك والتركيب.

يتمثل النجاح هنا في إعادة الاعتبار للتاريخ من خلال ربط المجتمع بأحد المظاهر التي تحقق فيها تفعيل أساس من أسس التصور الإسلامي وهو الإنفاق والصدقة والتضحية والعطاء والبذل... وقد كان هذا المجال أحد أهم المجالات التي تَنافس فيها الصحابة الكرام ﷺ فيما بينهم. فالرجوع إلى عصر السعادة -كما يطلق عليه الأستاذ فتح الله كولن- لم يكن بغرض المتعة، بل بنيّة الاقتداء. يذكر تلامذته الذين تلقوا عنه مباشرة، وأجازهم في العلوم الشرعية، أنه كان يقول لهم "كونوا مثل الصحابة أو موتوا!"، أي كونوا في مستوى أفق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. تميزت مختلف مراحل التكوين والتأطير بالنسبة لهؤلاء الحَواريين بالشحن المستمرّ، الذي كان الأستاذ يمارسه -وما يزال- مع تلامذته

بغير الرجوع الفعلي إلى قيم الإسلام لا أمل في انصلاح حاضر هذه الأمة، وهو ما يحتم عليها إعادة اكتشاف ذاتها بالتعرف على حقيقة البعد الإنساني فيها.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

"أقصد أبناءه" شحذًا لهممهم، ومع ذلك فإن أكثرهم همّة يؤكد بأنه دون أفق انتظار الأستاذ، لأن همته عالية جدًّا وهو لا يشبع.

التفويض والأخذ بالأسباب

يلح الأستاذ على ضرورة الأخذ بالأسباب، شريطة أن تكون هذه الأسباب مشروعة تراعي الشروط العامة للتصور الإسلامي، دون أن يغيب عن دائرة نظره أنه لا ينبغي التدخل في شؤون الربوبية كما يقول، لأن الإنسان مسؤول عن العمل والحركية، أما النتيجة من نجاح أو فشل فذلك من تقدير الله تعالى.

حرص الأستاذ طيلة حياته على التنبيه بأن ما يتحقق من منجز في طريق تحقيق الانبعاث والإحياء هو بتوفيق من الله تعالى، وأن الله تعالى يعطي على قدر نيّة العبد وتطلعه، يقول: "ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخّل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى... فإن الله تعالى يُظهر بُعدًا خفيًّا من أسرار قدرته بجعْل ذلك شرطًا عاديًّا في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزرٍّ سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحرًا في قطرة، وشمسًا في ذرة وعالمًا في عدم من عدم... إن حكم الأسباب -أو أي شيء آخر- لا يجري على الله تعالى، ولا يقيد إرادته ومشيئته الإلهية. الله يحكم على كل شيء، والله هو الحاكم الأحد المطلق؛ ومراعاة الأسباب وعد العلل وسائل صغيرة ليس إلا بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسنّة الله عقابًا معظمه في الدنيا، وقسم منه في الآخرة"[٤].. بل إن الأستاذ يعتبر بأن مصيبة المسلمين في القرون الأخيرة، ترجع إلى عدم إدراك حقيقة وظيفة الإنسان في باب العبودية من خلال الأخذ بأسباب التطور، ومن أهم تلك الأسباب عدم الأخذ بناصية العلوم وخاصة في حقل الآيات التكوينية، بما هي وسيلة لتحقيق العبودية، ووسيلة لمعرفة قدرة القادر تعالى.

أكّد الأستاذ منذ بداية عمله الحركي الإصلاحي ضرورة توجيه الأجيال الجديدة إلى معرفة العلوم وتكوين دهاة في مختلف مجالات العلوم والمعارف، بل تربيتهم على أساس أن لا تعارض بين الدين والعلم، وأن لا تصادم بينهما على الإطلاق... لقد أدرك الأستاذ -كما أدرك النورسي- أن علوم الطبيعة قد انحرفت عن مسارها عندما انفصلت عن الدين، فأرجعت التوازن في الوجود إلى محض الصدفة، ونسبت للمخلوق -وهو الطبيعة- قدرات الخلق الخارقة؛ فمسؤولية الأجيال الجديدة التي يتم تكوينها في المدرسة النابعة من خصوصيات الثقافة الذاتية، تتحدد في أن تعرف أن العلوم مظهر لتجلي صفة الرب في هذا الوجود،

وهو ما يفرض معرفته بمعلومات سليمة المصدر... بعبارة أخرى إن هذا الإنسان الجديد سيصحّح مسار العلم بربطه بالخالق وبتجليات صفاته في الوجود، بما يعود بالنفع على الإنسانية كلها، وذلك ما ستضفيه الأجيال الجديدة من طابع أخلاقي على العلم وعلى الممارسة العلمية، بعد أن ألغت نظرية الطبيعة القيم والأخلاق عن مجال العلم.

يقول الأستاذ في معرض حديثه عن إحدى أهمّ صفات ورثة الأرض: "الوصف الثالث للوارث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. وهذا الإقبال يأتي في أوانه إذ يشكّل استجابة لمطلب بشري عام في وقت انجرفت فيه البشرية وراء فرضيات غامضة مظلمة وإنها لخطوة خطيرة نحو خلاص الإنسانية عامة. ولقد أشار بديع الزمان النُورْسي إلى أن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن؛ فتستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد. ولا نرى سبيلاً غير هذا، يبعدنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق.

إن استدراكنا للنواقص والفجوات التي ألمت بنا في القرون الأخيرة، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير

لقد نجحت هذه المدارس في تقديم صورة إيجابية عن الإسلام غير تلك التي يقدمها الإرهاب وتخويف الآمنين باسم الدين.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

خراب حس الانسحاق المزمن في شعورنا الباطن... كل ذلك يتطلب منّا إمرار العلم من منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله عمَليا والإفادة عنه بشتّى الوسائل.

يؤمن الأستاذ فتح الله كولن أن المدخل الذي اختُرِق منه العالم الإسلامي هو المدرسة، التي أُسست في وقت من تاريخ الأمة وفق رؤية غريبة عن هوية الذات وبعيدًا عن مقومات الثقافة الذاتية. تم ذلك من خلال ما يطلق عليه الأستاذ فتح الله كولن "أعشاش التعليم" التي سُلّمت إليها صفوة الأدمغة الطرية دون توجس وقلق، لتملأ أدمغتها بالثقافة الغربية وعاداتها التي كانت نتيجة طبيعية للمدارس؛ لأن هذه المدارس كانت تقدم صنوف هذه الثقافة على العلم، لأنها كانت ترمي إلى تكوين نخب تابعة لها في الرؤية والتوجه تخدم مصالحها ولا تخدم مصالح الوطن. ولتجاوز هذا، يتوجب تكوين أجيال جديد في مدرسة نابعة من خصوصيات الثقافة الذاتية، وتقدم الثقافة الذاتية وتدرس العلوم في إطار هذه الثقافة الذاتية، دون الإخلال بخصوصيات العصر وشروط المدنية الحديثة، يقول: "أجل، لابد من تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقيح عقول شبابنا بالتفكير العلمي، وذلك

مسؤولية الأجيال الجديدة التي يتم تكوينها في المدرسة النابعة من خصوصيات الثقافة الذاتية، تتحدد في أن تعرف أن العلوم مظهر لتجلي صفة الرب في هذا الوجود،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

سيؤدي إلى تفاعلهم واندماجهم مع الفكر والعلم، كما فعَلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، واضطراب القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا بسبب استغلال الغير لنا قرونا، أورثنا اليوم شهقةً كشهقة النبي آدم، ونشيجًا كنشيج النبي يونس، وأنينًا كأنين أيوب عليهم السلام. وقد بلغ بنا الأمر أننا بدافع هذه الأفكار والمشاعر وعلى ضوء التجارب التاريخية نشعر اليوم وكأن المسافات قد انكمشت ولم يبق للوصول إلى الهدف سوى خطوات"[٥].

خطاب التأميل والحركية في رؤية الأستاذ

لا شك أن خطاب الأستاذ خطاب مسكون بنبرة آملة وليس نبرة يائسة، فهو يحرص على أن يُشعر متلقيه بأنه متيقّن بأن الأفق مشرق وبأن المستقبل واعد... إنه يستمد هذه الطاقة من الخطاب القرآني نفسه، ومن وجهه المطبق وهو السنة النبوية باعتبارها الوجه العملي للقرآن الكريم، الذي كان دائم الإلحاح على أن الالتزام بالعبودية في إطارها العام، يضمن رضى الله تعالى وتوفيقه، شريطة توفر شرط الإخلاص والصبر المتصل بعدم استعجال النتائج واستعجال قطف الثمرات.

يربط الأستاذ فتح الله كولن ربطًا حتميًّا بين الحركية والفكر؛ ففي نظره لا يمكن للفكر وحده صناعة النهضة والإحياء، كما أن الفعل والحركية دون هدي الفكر وتحت إرشاده، حركية تائهة تعطلت بوصلتها. وعندما يربط الأستاذ بين الحركية والفكر، فهو يقصد حركية محددة هي الحركية الإسلامية، وعندما يقصد الفكر يقصد الفكر الإسلامي؛ لأن من شأن توقف الذات عن الحركة وعن الفعل في ضوء الفكر الإسلامي، دخولها في تأثير الدوامات الفكرية الغريبة عن الذات وهوتها، الأمر الذي سهل الاختراق. وهذا فعلاً هو ما تعرضت له الذات في الماضي القريب، يقول: "إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغمًا عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء... أما تعاجزنا عن حماية جزئياتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توترًا تامًّا في جوهر الإنسان"[٦].

أعلن الأستاذ النفير العام منذ أكثر من أربعين عامًا مع نفسه فلم يلتفت لهمومه الخاصة ولم يتزوج، ولم يملك ولم يتمتع، وقضى معظم حياته معتكفًا متضرعًا مفكرًا يقرأ العالم، لأنه يعتبر نفسه

مسؤولاً عن كل واحد من أفراد هذا العالم، وملزمًا بأن يجعله يعرف حقيقة وجوده ووظيفته في هذا الوجود الفسيح. وعلى أساس ذلك يرى فتح الله كولن أن الوجود الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر، حركية وفكر يغيران الذات والآخرين، فالآخرون يوجدون دائمًا في بؤرة اهتمامه وفي بؤرة اهتمام الحركة المدنية التطوعية المعروفة اليوم بـ"الخدمة"، كما يطلق عليها البعض، والآخر هنا مفهوم صوري يوظف من أجل إلباس الحركية بعدًا اجتماعيًّا، إذ لا وجود للآخر في تصور فتح الله إلا من تم تأخيره وإقصاؤه، يقول: "إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو أن يكون وجودنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات"[٧].

إن "الإنسان الجديد" الذي يبشر به الأستاذ والذي بدأت طلائعه الأولى تلوح في الأفق، يحتضن الوجود كله بل يعتبر ذلك من أوجب واجباته. فـ"جيل الأمل" هذا مستعد دائمًا للهجرة من أجل احتضان هذا الإنسان في كل مكان في هذا العالم، غير آبه بالبعد عن الوطن والأهل تاركًا خلفه الوطن والأحباب، ومضحّيًا بكل ما يشده إلى الدنيا... ولقد وفقه الله ﷻ ففتح القلوب من خلال فتح المدارس والجامعات والمستشفيات في أماكن عديدة من العالم، حتى في تلك الأماكن التي تعرف توترات ونزاعات سياسية وعرقية ودينية ومذهبية. لقد نجحت هذه المدارس في تقديم صورة إيجابية عن الإسلام غير تلك التي يقدمها الإرهاب وتخويف الآمنين باسم الدين.

أما بعد

الأستاذ فتح الله كولن مدرسة ناجحة في العمل الإيجابي. والإلمام بجميع جوانب شخصيته الفكرية والحركية يحتاج إلى العديد من الدراسات والأبحاث. ومن المؤكد أن الشهور والسنوات المقبلة ستعرف توسعًا في عدد مَن سيقتربون من عالم هذا المفكر، ومن عالم الخدمة قصد البحث عن أجوبة الواقع الملحة، خاصة بعد فشل الإسلام الأيديولوجي في حلّ ألغاز النهضة. وإذا كانت بعض التيارات الإسلامية ترى بأن المال وسلطته -بغض النظر عن مصدره- يستطيع شراء كل شيء بما في ذلك النهضة والحضارة، فإن الزمن سيكذّب دعاة هذا التيار الجارف، لأن الحضارة في مفهوم الإسلام لا تقوم على اعتبار المال غاية والدنيا هدفًا. ■

الهوامش

[١] ١٨، ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م.

[٢] ١٣، النور الخالد، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

[٣] ٢٠، ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م.

[٤] ٢١، المصدر السابق.

[٥] ٣٨، المصدر السابق.

[٦] ٥٧، المصدر السابق.

[٧] ٥٨/٥٧، المصدر السابق.

مرتكزات تربية الإنسان الجديد عند الأستاذ فتح الله كولن

عماد الشريفين

أ.د. عماد الشريفين دكتوراه في التربية الإسلامية من جامعة اليرموك بالأردن، وهو الآن أستاذ التربية والدراسات الإسلامية، بكلية الشريعة بالجامعة، له اهتمات أكاديمية بالدراسات التأصيلية في التربية الإسلامية وعلم النفس والاجتماع، ودراسات الحوار والوسطية، و دراسات الأسرة والمؤسسات التربوية.

الأستاذ فتح الله كولن من المفكرين الذين اهتموا بتربية الإنسان وفق منظومة قيمية فكرية وأخلاقية مستمدة من كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، وسيرة السلف الصالح في الماضي والحاضر. وتظهر هذه المنظومة من خلال المؤلفات والرسائل والمقالات التي كتبها الأستاذ، فقد أشار في هذه المؤلفات إلى قيم الإيمان، والمسؤولية والشورى، وحث على إعادة شحن الأجيال بشعائر الثقافة الذاتية للأمة وإلى ضرورة الانبعاث الحضاري من جديد.

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن مرتكزات تربية الإنسان الجديد عند الأستاذ كولن، وبيان رؤيته في تربية الإنسان الجديد، من خلال القراءة في كتابي "ونحن نقيم صرح الروح" و"ونحن نبني حضارتنا" وذلك لتعلقهما بموضوع الدراسة.

يتبع الباحث في هذه الدراسة منهج البحث الوصفي التحليلي، ويتمثّل في وصف الظاهرة المراد دراستها، ولا يقف عند مجرد الوصف، وجمع المعلومات، بل يتعدى ذلك إلى تحليل الظاهرة وتفسيرها، ومعرفة العلاقة بين عناصرها، وهو أسلوب الحصول على استنتاجات، واستخراج خصائص الظاهرة المدروسة بشكل منتظم وموضوعي.

تُعدُّ تربية الإنسان من أهم الموضوعات التي عُنيت بها الفلسفات والأيدولوجيات المختلفة؛ وذلك بهدف إيجاد الإنسان الذي يحقق أهداف تلك الفلسفات والأيدولوجيات في واقع الحياة، فلم يكن في الماضي ولن يكون في المستقبل أهم من الإنسان فهو مرتكز البناء الحضاري للأمم ومشعل التقدم للمجتمعات.

ويلحظ المتأمل في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ الاهتمام الواضح بالإنسان، فهو مخلوق مكرَّم، سخَّر الله ﷻ كل ما في الكون لخدمته، فقد فضَّله الحق على كثير من مخلوقاته يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). وكرمه ﷻ بنعمة العقل وأنعم عليه بأدوات العلم والمعرفة، يقول ﷻ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(النحل:٧٨). وقد بين الإسلام الأسس والقواعد التي تضمن للإنسان التربية السليمة، منذ أن يكون نطفة في رحم الأم إلى أن يبلغ ما شاء الله أن يبلغه من العمر، وأوكل أمر تربيته في المراحل الأولى للحياة إلى الوالدين وبعد ذلك يُعدّ مسؤولاً عما يقوم به من أعمال.

وقد ربى النبي ﷺ أصحابه الكرام على آيات الكتاب الحكيم، فكانوا مشاعل نور تمشي على الأرض، ووصل الإسلام بفضلهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، وسار على نهجهم التابعون ﷺ فكانوا كذلك أصحاب منهج دعوي فريد يتأسى المسلمون به إلى وقتنا الحاضر. وعندما ابتعدت المجتمعات

ينبّه الأستاذ كولن إلى أن وارثي الأرض عليهم السعي الجاد في عمل الصالحات، بل يطلب منهم معايشة الدين كما هو في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

المسلمة عن مصدري الدين "الكتاب والسنة"، واجه العالمُ الإسلامي أشدَّ أزماته فتعدى عليه الخصوم ونهبوا خيراته، وشاعت الأمراض في المجتمعات، وتأثر الإنسان المسلم من حيث الفكر والسلوك بما ظهر في تلك المجتمعات في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية، وفي ظل هذا الواقع ظهر من المفكرين المسلمين من يدعو إلى الاهتمام بتربية الإنسان من جديد في فكره وسلوكه ونظام حياته، ودعوته إلى العودة الصادقة إلى منبع الهداية الربانية والمتمثلة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

الأستاذ فتح الله كولن من المفكرين الذين اهتموا بتربية الإنسان وفق منظومة قيمية فكرية وأخلاقية مستمدة من كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، وسيرة السلف الصالح في الماضي والحاضر، وتظهر هذه المنظومة من خلال المؤلفات والرسائل والمقالات التي كتبها الأستاذ، فقد أشار في هذه المؤلفات إلى قيم الإيمان، والمسؤولية والشورى، وحثَّ على إعادة شحن الأجيال بشعائر الثقافة الذاتية للأمة وإلى ضرورة الانبعاث الحضاري من جديد. ويحتار الباحث في مؤلفات الأستاذ كولن من أين يبدأ في الكشف عن عناصر التجديد في تربية الإنسان؛ فكل

ما كتبه الأستاذُ يُعَدُّ من عناصر التجديد في تربية الإنسان والبناء الحضاري.

وعليه فهذه الدراسة تكشف عن مرتكزات تربية الإنسان الجديد عند الأستاذ كولن من خلال الإجابة على السؤال الآتي: ما مرتكزات تربية الإنسان الجديد عند الأستاذ فتح الله كولن؟

المرتكز الأول: الصلة بالله ﷻ

يقصد بالصلة العلاقة بين العبد وخالقه ﷻ، والتي تقوم على أساس أن الله هو المعبود والإنسان هو العابد، فهي علاقة عبودية، فالله ﷻ هو خالق الإنسان، بيده أمره ومصيره، اعترف بذلك أم أنكر، فالمهم هو الإحساس بهذه الصلة وقوة الشعور بها واستحضارها في النفس[1].

والصلة بالله تجعل الإنسان يحاسب نفسه على ما يصدر منهما يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(الحشر:١٨)، ولها الأثر في تنمية جميع جوانب شخصية الإنسان، ويتربى الإنسان في ظلال الصلة بالله ﷻ على القيم الإنسانية العادلة ويستقيم سلوكه، أما ضعف الصلة بالله فإنه يؤدي إلى انحراف السلوك وفساد الفطرة واضمحلال القيم.

ويركز الأستاذ فتح الله كولن على بيان حقيقة الصلة بالله فهي الصفة الأولى لوارثي الأرض أو للإنسان الجديد الذي هو الأساس في الانبعاث الجديد للأمة، وأن هذه الوراثة لن تتحقق إلا باللجوء إلى الله والعودة إليه يقول: "ولئن حَرَم مالكُ الملك الحقُّ الإرثَ عمن ادعى وراثة الأرض الحقيقية في مرحلة تاريخية كثيفة بالضباب والزمان، لأنهم لم يبذلوا الجهد اللائق بالوراثة السماوية كما ينبغي فإن الخلاص من هذا الحرمان يبدأ من اللجوء إليه تعالى مجدداً"[2].

واللجوء الذي يراه الأستاذ صلة مباشرة بين العبد وربه لا واسطة فيها يقول ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦)، وهي صلة متبادلة بين العبد وخالقه يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة:٥٤)، ويقول ﷻ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(المائدة:١١٩)، وهي قابلة للنماء والزيادة بل إن تنميتها وزيادتها تعود للإنسان بالكثير من الفوائد.

وينبه الأستاذ إلى أن وارثي الأرض عليهم السعي الجاد في عمل الصالحات، بل يطلب منهم معايشة الدين كما هو في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يقول: "فيلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداء بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة وجعل الإسلام إحياء للحياة..."[3].

وحتى لا يقول البعض إن المسلمين على صلة بالله ﷻ فهم في المساجد يصلون، وفي رمضان يصومون، وإلى مكة يحجُّون، هم على صلة بالله ﷻ ولم تتحقق لهم

وراثة الأرض يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وينبه الأستاذ إلى ضرورة التجديد في العبادات وأن يفهمها المسلم فهمًا سليمًا بل سلوك مقاصدها، حيث يقول: "نعم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفًا في العبادات، والكلمات وسيلة الروح، والصدق أساسًا في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازمًا، وفي كل هذه: الله غاية القصد... الصلاة ليست قيامًا وقعودًا، والزكاة مالاً مطروحًا تبرئة للذمم لا يعلم أين ذهابه، ولئن صار الصيام جوعًا وعطشًا فما اختلافه عن الحمية؟ والحج إن لم يجر في فلكه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تكسب بعض عملات أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلوق.. والحج والعمرة إن صارتا مشقة تُحتمل للتسلي بحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف نحرج في المعاني والمرامي..."[٤].

ويقول: "الانسلاخ من القالب إلى اللُّبِّ، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح في كل مسألة، ويعني أيضًا التوجه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل وإلى الإحسان في الحس والفكر..."[٥].

والأستاذ في حديثه السابق إنما يريد أن ينبه إلى أن المقصود من العبادات أثرها وجوهرها مع ما لشكلها من أهمية، إضافة إلى الإخلاص والإحسان واليقين وبهذا يحاكي الأستاذ أقوال حجة الإسلام الإمام الغزالي في أسرار العبادات وأن تكون بحضور القلب، فيقول مثلاً عن الصلاة: "فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضرْ في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمَّر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءًا بالفرح والاستبشار مشحونًا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء..."[٦].

وللعبادة في الإسلام مجموعة من الخصائص التي تميزها عن غيرها من أنواع العبادات؛ فعبادة الله حررت الإنسان من الذل والانقياد لغير الله تعالى، فحررته من قيود الواسطة والمكان لكل مظاهر العبودية للكهنوت[٧]. كما أنها شاملة لجميع مناحي حياة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل لا ينحصر في النواحي الجسمية أو القلبية والروحية كما هو الحال في عبادات أخرى،[٨] والعبادات في الإسلام تقتضي مراعاة الواقع وطبيعة الإنسان بالإضافة إلى السهولة في التطبيق ويسر العبادة يؤدي إلى رفع الحرج.

كما تسهم العبادات في تربية شخصية المسلم على الثقة بالله والتوكل عليه والشعور بالإحساس بالعزة والثقة بنصرة، يقول ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣)، حيث يستمد القوة، والعزة، والكرامة، من الله ﷻ، وهي تربي الوجدان الإنساني ليصل إلى مراتب الكمال الإنساني الذي يسعى كل مسلم إلى الوصول إليه

حتى يلاقي الله ﷻ[٩].

ويؤكد الأستاذ على أنه على وارثي الأرض الذين يخططون للعالم تعميقَ صلتهم بالله ﷻ من الكم إلى النوع، وسد النقص الحاصل في الأوراد والأذكار، والنظر إلى العبادات بعين الرضا يقول: "يتحقق هذا بتعميق الكمية في عبادتنا إلى النوعية وبإطلاق النقص الحاصل في رياضة الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبثِّها إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسُّون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي وفي أراضيه يرصدون فيها نورانية ومهابة الروح والقلب والأبعاد الأخروية"[١٠].

يريد الأستاذ أسرار العبادات ومهامها الحقيقية وأثرها في سلوك الإنسان، فمثلاً لا معنى للصلاة إن لم تحقق الصلة الدائمة بالله ﷻ، ولا معنى لها إن لم تُشبع في النفس الطمأنينة، وترفع الروح المعنوية للمؤمن، وتطبعه بطابع التواضع، وتَقِيه من الرذائل والكبائر، ولا معنى للزكاة إن لم تخلِّص الإنسان من الأنانية والأَثَرة، وتُحلِّيه بالفضائل الأخلاقية مثل الإيثار والكرم والجود والتضحية والانتماء إلى المجتمع. والصوم إن لم يُطهِّر النفس ويزكيها ويُحلِّيها بالصبر والجلد، ويسمو بالروح والجسد فوق المطالب الآنية فيجب أن يعاد النظر في أدائه.ويشير الأستاذ أيضًا إلى أهمية الأذكار والأوراد وسد النقص الحاصل بها، وكأني بالأستاذ لا يريد ذكر اللسان فقط، بل ذكر اللسان مع حضور القلب كما يقول الغزالي: "وحضور القلب في لحظة الذكر والذهول عن الله ﷻ مع الاشتغال بالدنيا أيضًا قليل الجدوى، بل حضور القلب مع الله على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدَّم على العبادات، بل به تشرُف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية، وللذكر أول وآخر فأوله يوجب الأنس والحب لله، وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه"[١١].

وللعبادة في الإسلام الدور الرئيس في تهذيب النفس الإنسانية، والتربية الروحية هي الوسيلة الفعالة لتربية الروح، فالعبادات المفروضة من صلاة وزكاة وحج وصيام تعمل على تربية الروح، وهي تواجه الحياة الواقعية بما فيها من مشكلات وعقبات، وتواجه ثقل الجسم ودفعه الشهوات[١٢]. والعبادات تحمي العقيدة، وتحدد للإنسان موقعه في الوجود، وعلاقته مع الخالق والتصدي لأعباء الرسالة، وتقوية الجانب الروحي وتنمية الشعور بمراقبة الله تعالى[١٣].

وفي كلام الأستاذ تركيز واضح على الإخلاص الذي هو أساس الصلة بالله ﷻ، وهو أن يقصد الإنسان بأعماله وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته دون النظر إلى ثناء الناس أو مَذَمَّتِهم، يرجو ثواب الله تعالى[١٤]، فيأتي بالأعمال نقية لا يشوبها رياء لتصل مباشرة بالله تعالى، فالإخلاص هو صدق النية مع الله تعالى، وقيل: "الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله خاصة"[١٥].

ولا شك أن للإخلاص نتائج؛ حيث يقوى الصلة

بالله ﷻ ويتجرد القلب من كل الشوائب كالرياء ويستقيم السلوك. ويشكل إخلاص الدعاة عاملاً أساسيا في نصرة الدعوة، وفي نصرة قضايا الأمة، لأن الإخلاص سبب في استجابة الدعاء وتنزل النصر والعون من الله تعالى،يقول عليه الصلاة والسلام: " إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ"[١٦]. ونظرًا لما يُشكِّله الإخلاص من أثر بالغ يجب على القائمين على شؤون الدعوة أن يحرصوا -كما يحرص الأستاذ في كتبه ووعظه- على تعليم المنتمين الى مدرسة الدعوة خاصة، فضيلة الإخلاص الذي هو سبب قبول الأعمال.

ومما يؤكد أهمية الإيمان والصلة بالله تعالى في تربية الإنسان الجديد أن أول الصفات التي أشار إليها الأستاذ في صفات "ورثة الأرض" الإيمان الكامل الذي هو غاية لخلق الإنسان، ولا يكون الإيمان الكامل إلا بالصلة بالله تعالى، والإنسان هو المسؤول عن البناء الإيماني لنفسه، فمن خلال الإيمان يستشعر ذاته ومقاصد وجوده وغاياته، وصلته بالله تعالى تجعله يتحدى كل القوى ويحيا متوجهًا إلى الله، يقول الأستاذ كولن: "يُعَدُّ سائح الإيمان مكتشفًا لمصدر مهم للقوة، هذه الخزينة والذخيرة التعبوية عائدة للأبعاد الأخرى، والمرمز لها بـ "لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعًا يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقوة... فإنه لا يرى إلا هو سبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفرُّ إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجهًا إليه هو،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يرى الأستاذ فتح الله أن أهم أسباب أزمة العالم الإسلامي هي التضحية بالدين في سبيل الدنيا، وذلك طمعًا في عمارة الدنيا، وتَبنِّي فهمٍ يرجح الدنيا على الدين مما كان سببًا في الخسارة الكبرى.

فيستطيع تحدي كل القوى الدنيوية بقدر توغل معرفته واعتماده على الله..."[١٧].

ويُنبِّه الأستاذُ إلى عدم الاغترار بالحضارة المادية؛ لأنها منقطعة الصلة بالله تعيش بلا قيم روحية، يعيش حالة بؤس لضياع قيمها الروحية، والمنجزات العلمية لن تمنحها السعادة طالما أنها تعاني من غياب الروح، وأن أمة الإسلام تعيش وسوف تعيش في ابتهاج الصلة بالله ﷻ. يقول الأستاذ: "وقد اعترى الغرب في القرون الماضية نسيانٌ لِقِيَمِهِ الدينية ووصايا السيد المسيح، فشن أهله الحروب في القارات، وأشاعوا الرق والاستغلال أينما حلو... فهذا العالم يتباهى بالعلم والتكنولوجيا إزاء الفراغ والاكتئاب الذي أوجده في الحياة الاجتماعية نتيجة لخطئه العظيم في تحديد نقطة الانطلاق..."[١٨].

المرتكز الثاني: بث الوعي

يُعرَّف الوعي بأنه إدراك الفرد لنفسه ولعناصر الموقف أو البيئة أو المجتمع الذي يحيط به[١٩]، ويعرف بأنه جماع العمليات العقلية التي تشترك في فهم الإنسان للعالم ولنفسه ويرتبط بنشاط الإنسان وبتطور اللغة[٢٠].

إن الوعي بأي أمر علامة من علامات النضج

العقلي، وأساسٌ في اتخاذ القرارات، ويؤدي إلى اكتشاف المشكلات قبل وقوعها، ثم التهيؤ لمواجهتها، والحيلولة دون وقوعها. والوعي يؤدي إلى الغوص في الأعماق، وعدم الوقوف عند السطح، ويُجنِّب الوقوع في الخداع والتغرير والتضليل والتزوير، ويفيد في الربط بين الأشياء، مما قد يبدو في الظاهر منفصلاً عن بعضه كما هي علاقة الإعلام بالسياسة وعلاقتهما بالثقافة وعلاقة الجميع بالتربية. وبمعنى آخر، إنَّ الواعي ينظر إلى الأمور والأشياء نظرة شمولية، وليس نظرة تجزيئية، حتى يدرك العلاقة بينها . الوعي ذو أثر أكبر من دائرة الشخص الواعي نفسه، فهو بوعيه يمكن أن ينير الدرب للآخرين، أي يفتح عيونهم للأبصار أكثر، وهذا ما يفعله أرباب الوعي الإسلامي العميق في كتاباتهم وخطاباتهم التي تزيد في وعينا وقدرتنا على التشخيص الدقيق.

والمتأمل في كتابات الأستاذ فتح الله كولن يلحظ بوضوح إدراكه الواضح لحال الأمة وسبل الخلاص اللازمة لخروج الأمة من أزمتها وهذا ما كان يبثه في ثنايا الكتاب، وقد حاول الأستاذ بث الوعي وتربية الأفراد على الوعي، ومن أهم المسائل التي أشار إليها وألحَّ في توضيحها الآتي:

أ. الوعي بأزمة العالم الإسلامي

يعيش العالم الإسلامي واقعًا مريرًا، في الجوانب الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فبلاد الإسلام أصيبتْ من شرقها إلى غربها بالشلل الفكري واستُهدِفت بالغزو الفكري الذي زلزل عوامل القوة الكامنة في الإسلام، وغدت الأفكار الجديدة تحكم جميع مناحي الحياة، وفي الجانب السياسي تم اقتسام العالم الإسلامي وتمزيقه إلى دول صغرى وإقامة حدود مصطنعة بينها، إضافة إلى انتشار الأحكام الفاسدة. والأمر لا يقل خطورة من الناحية الاقتصادية حيث تعيش الأمة على الفُتات ممَّا يُخلِّفه العالم الآخر، وفي الناحية الاجتماعية انتشر الفساد وانحطت الأخلاق وضعفت الأسرة وتفككت روابط المجتمع. وقد كان هذا الواقع المرير يعيش مع الأستاذ في كتبه ومقالاته ووعظه. فالعالم الإسلامي ومنذ زمن طويل تنازل عن مكانته في قيادة الإنسانية، وأصبح متطفلاً على موائد الآخرين، فالركود والضعف والهوان صفات لازمة للعالم الإسلامي، ويُشخِّص الأستاذ هذا الواقع بقوله: "يمر العالم الإسلامي كله في عصره القريب الأخير، بأشد أزمة واجهَتْه في تاريخه، من حيث الاعتقاد والأخلاق، والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية..."[٢١].

ويصف الأستاذ واقع المعاملة التي يتعرض لها العالم الإسلامي الذي حُرِم من إرث الأرض بأنها معاملة يتفطر لها القلب، حيث يقول: "تعرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض إلى معاملة ينفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه، وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغربًا أن يكون الظلم والغدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يُحتَمل ولا يطاق؛ ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا حيث يستعيذ بالله من جَلَد الفاجر وعجز التَّقِيِّ"[٢٢].

ويرى الأستاذ أن العالم الإسلامي يعيش في دائرة مُفْرَغة، إذا ما تقدم خطوة أعقبها خطوات إلى الوراء وانحرف عن سواء السبيل، بل إن السير المشؤوم أو الانحرافات التي يعيشها العالم الإسلامي أثَّرت على الجهود التي تبذل في سبيل العودة إلى الذات، بل تعرضت الأعمال الطيبة ورجالها إلى التزلزل من الأعماق"[٢٣].

ب. الوعي بأسباب الأزمة وسبل الخلاص

يرى الأستاذ فتح الله أن أهم أسباب أزمة العالم الإسلامي التضحية بالدين في سبيل الدنيا، وذلك طمعًا في عمارة الدنيا، وتبني فهمٍ يرجح الدنيا على الدين فكان سببًا في الخسارة الكبرى[٢٤]. ويقول: "ومن أشد ما يؤلم أن هذا العالم وقد ابتعد عن المحركات التاريخية والقيم الإسلامية التي رفعت هامته قرونًا طويلة وقع أسيرًا في قيود الجهل والانحلال الخلقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية، فانحدر من هنا إلى مهاوي الظلام والخسران..."[٢٥].

إن ترك المسلمين لمنهجهم ودينهم حوَّلهم من العدالة إلى الأهواء، ومن الأخوة إلى العداوة، ومن الشورى إلى الدكتاتورية، ومن الحرية إلى الاستعباد، ومن الفضيلة إلى الرذيلة، ومن العمل الصالح إلى العمل الطالح، ومن العمل المنتج إلى الثروة، فكان الفشل والانعزال عن قيادة الأمم؛ فلم يشهد التاريخ أتعس منها خسارة؛ لأن العالم فقد رسالة الأنبياء وفقد البلاغ لهدي السماء[٢٦]، حين ترك المسلمون التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وقعوا في الذلِّ والعبودية والهزائم العسكرية والفكرية والتفرق والشتات والتنافر والاختلاف وقعوا في التقليد والتبعية[٢٧]. وإذا أرادت الأمة أن تتخلص من واقعها، عليها أن تتحرر من فقدان الذات، فتحرير الذات من القيود منطلَق أساسي، على العرب والمسلمين أن يبادروا إليه من خلال تجاوز المناهج الوافدة التي أثبتت التجربة أنها لن تُحقِّقَ " الاستجابة الحقيقية، للمفاهيم التي يحملها المسلمون ولا لذواتهم، فما عليهم إلا أن يفكروا بلغتهم وأن يتحركوا من داخل فكرهم حتى يستردوا أصالتهم"[٢٨].

والواجب أن تكون للأمة الإسلامية رؤيتها الخاصة، النابعة من معتقداتها وتصوراتها وقِيَمها، ومن النظرة للكون والحياة والإنسان، منطلقة من الغاية من الوجود والمهمة الموكولة إليها، فحياة المسلمين اصطبغت بصبغة الحضارة الغربية في جميع جوانبها: في الفكر والتصور والاعتقاد، وفي التربية والتعليم، وفي السياسة وأنظمة الحكم، في كل شيء. وهذا لا يعني أنها اصطبغت بجوانب القوة- التي يحجبها الغرب عنها- فالأمة الضعيفة لا تقلِّد إلا جوانب الضعف والهَرَم والانحلال، لذلك فالصبغة تنحصر في مجالات اللَّذات والانحراف والتحلُّل والتخلي عن القيم.

إنَّ مما يُسهِم في واقع التخلف والتبعية والتقليد، أن معظم المسلمين هجروا إسلامهم، وتهاونوا في تطبيق أحكامه، خلَدوا إلى الدعة والراحة بل تعلقوا بالدنيا وتفرقوا إلى أحزاب متصارعة، بالإضافة إلى تفَشِّي الجهل والبعد عن العلم خاصة في السنين

الأخيرة -بعد أن كان المسلمون يتبوأون قمة الحضارة، وكانوا قادة الرَكب الإنساني في تصحيح كل فكر منحرف- فتراكمت النكبات التي تعرَّض لها المسلمون وما زالوا، وتفشَّت حالة الضعف النفسي التي وصلوا إليها بعدما تنكبوا الطريق القويم، مما أدى إلى تكريس واقع التخلف والتبعية.

ويؤكد الأستاذ كما يؤكد غيره من المفكرين والباحثين على أن إيقاف النزيف الحاصل في الأمة لا يتم إلا بالعودة إلى مصادر قوتها التي بها انتصبتْ على قدميها وجعلتها في عِزة. يقول: "لكن الثابت أن أمة الإسلام تنزف الدم في القرون الأخيرة وتبدو غير مبالية بمصادر قوتها التي بها انتصبت على قدميها وجعلتها في عزة وراثة الأرض حقًا وصدقًا..."[٢٩]، ويرى الأستاذ أن الخروج من هذه الأزمة يكفل لنا الانبعاث المادي والمعنوي ثم الانخراط في جموع عباد الله الصالحين السالمين المتينين عاطفة وفكرًا وحسًّا وشعورًا الثابتِينَ على إعلاء كلمة لا إله إلا الله"[٣٠].

ويؤكد الأستاذ على أنَّ الحياة الروحية هي الأساس في الانبعاث من جديد للعالم الإسلامي، وأنَّ إحياء الحياة الروحية هي بداية الصفحة. يقول: "إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع المتلقيات (التصورات) والأفكار المنحرفة في هذا الوطن منذ سنين وسنين مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل أجوائنا الدينية ووضع الأقفال على ألسنة القلوب"[٣١]. ومن الأفكار التي يجب انتزاعها للانبعاث من جديد، أوضاع المثقفين الذين حبسوا أنفسهم في المادية، وكذلك التخلص من التشدق الذي حلَّ محلَّ الصلابة في الحق[٣٢].

ومن سُبُل خلاص الأمة مِمَّا هي فيه الالتجاء إلى القيم الذاتية، والتي جعلت ماضي الأمة عظيمًا، وستجعله في المستقبل كذلك. يقول "إنَّ سعينا لتحقيق هذا الأمل وانتظارَنا له هو حقنا وواجبنا وضرورة إيماننا ومن اللوازم أثناء استعمال حقنا. والإيفاء بواجبنا أن نراجع ماضينا المجيد باستمرار ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاخرًا بالعظمة..."[٣٣].

فالحضارة الإسلامية سابقًا إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شروط صاغها الدِّين، وتكونَّتْ في رحم إسلامي، وليس عبثًا أن تكون قادرةً على النهوض من جديد لأنها تمتلك شبكة شروطها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يقول عماد الدين خليل: "حضارتنا الإسلامية تظلُّ الوحيدة بين سائر الحضارات الأخرى، قادرة على الانبعاث، لا سيما إذا تذكرنا قدرة النص القرآني والحديث النبوي على حماية مصداقيتها بوعد الله، وشهادة التاريخ والوقائع، على أنه ما من نص ذي أصل ديني قدر على مجابهة التحريف والتزييف كالنص الإسلامي"[٣٤].

جـ. الوعي بقدرة العالم الإسلامي على النهوض من جديد

إنَّ الضعف الذي يعاني منه العالم الإسلامي ضَعْفٌ عارض، وهو مرحلة لن تطول ستعقبها مراحل أخرى؛ فتلك سُنَّةُ الكون وطبيعة الحضارات، فجذور

الحضارة الإسلامية لا تزال سليمة محافِظة على عناصرها الحية، والمسلمون مسؤولون عن إنعاش هذه الجذور وإحيائها من جديد حتى تستأنف دورتها وتُواصل عطاءها، بل تقوم بدورة إنقاذ للعالم والحضارة الغربية التي تعاني أثر الأزمات التي لا سبيل إلى معالجتها إلا بتطعيمها بمبادئ الإسلام ذات الروح الإيمانية والنزعة الإنسانية[٣٥].

ويرى الأستاذ أن المستقبل قادم وأنَّ الأمة طالما أنها تسير في طريق الإيمان فسوف يكون الانبعاث من جديد، يقول: "وينبغي أن لا نرتاب في أنَّ ذوينا وبخاصة الأجيالُ الفتِيَّة مِنَّا، سيكونون في القابل القريب أصحاب القول الفصل في سنوات الألفية الثالثة..."[٣٦]. ويؤكد أن العالم الإسلامي قادر على النهوض من جديد، فهو لم يقف عند بيان حد الأزمة بل بث الأمل بالقدرة على الانبعاث من جديد، وذلك بما تملك الأمة من تراكمات علمية وقيادتها للأمم سابقًا يقول: "وما زالت الأرض بعد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، ورغم أنف الأشياء قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر ومالكه لطاقة تُحقِّق بعثًا جديدًا بعد الموت، وإن أمتنا تمتلك تراكمًا علميًّا يجعلها قادرة على الريادة فيما حولها من التكوينات الجديدة، وَزِدْ على ذلك قيادتها للأمم آمادًا مديدة تركت فرصًا مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم..."[٣٧].

وبهذا يحثُّ الأستاذ على استشراف المستقبل

لبناء إنسان الفكر لا بد من التخلص من كل الأفكار في داخلنا والتي تخرب جذور الروح. والعمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي وفق نسيجنا الحضاري والخاص.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

والقيام بجهد للتعرف على المستقبل؛ الأمر الذي يحتاج إلى عمل عقلي بهدف تكوين الرؤية المستقبلية للعالم الإسلامي. فعندما جاء الإسلام قَدَر بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ على نقل العرب ومجابهة الجاهلية وتكوين بداية صحيحة للتشكل الحضاري، مَكَّنَتْهم من تجاوز حالة التخلف الفكري الذي هو أساس كل تخلف، والانطلاق لصياغة حضارة متميزة لها القدرة أن تكون واحدة من الحضارات الأكثر فاعلية وتأثيرًا في مجرى التاريخ البشري[٣٨].

وهذه القدرة لم تتوقف بل مستمرة، فنسيج القرآن الكريم ومعطياته في كافة المجالات العقيدية، والتشريعية والحقائق العلمية كانت وما زالت كفيلة بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر أن تهزَّ عقل الإنسان وتُفجِّر ينابيعه وطاقاته وتؤهله للقيادة والانبعاث الحضاري من جديد"[٣٩].

إنَّ استقراء التاريخ الحضاري للأمة بدقة وموضوعية يُدلِّل على أنَّ التخلف والتراجع والوهن الحضاري جاء نتيجة الانسلاخ عن القيم الإسلامية والمغالاة في تقليد الآخر، ولا شك أن القيم الإسلامية شكَّلتْ منطلق الريادة حيث يرتقي علماء ويخرج مبدعون من كل العروق والأجناس عند الالتزام بها،

ويخبو ويتراجع هذا الرقي والإبداع عندما لا تشكل هذه القيم منطلق الريادة[٤٠].

ومما لا شك فيه أن الانبعاث من جديد لن يأتي صدفة، إذ لا بد من معرفة البرامج والخطط والمناهج والمشاريع التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عبرها في مسيرة العودة، وأن تكون هذه المناهج والمشاريع مصوغة بعقلية محترفة ومتخصصة وذلك لإعداد أجيال مثالية لإنشاء أمة عظيمة[٤١].

ومما لا شك فيه أن التخطيط السليم هو الخطوة الأولى نحو تحقيق الأهداف المنشودة وتوفير البيئة السليمة الصحيحة لبناء الإنسان، وهنا لا بد من الإشارة الى أن التخطيط الناجح للبرامج والمناهج التي تعيد للعالم الإسلامي قيادة الإنسانية، هو الذي يصدر من الفئة التي تشعر بضرورة الانبعاث من جديد، فهي الأقدر على العمل والمشاركة والإسهام في إعداد الخطط وتنفيذها.

المرتكز الثالث: الحركية والفكر

يرى الأستاذ فتح الله كولن أنه لا بد من تربية وارثي الأرض على الحركية والفكر لتحقيق الانبعاث الحضاري من جديد. الحركية التي ينطلق منها لتربية الإنسان في القدرة على الدعوة والتأثير وإيصال رسالة الإسلام إلى الآخرين[٤٢].

أما الفكر فهو "تفريغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات، هذا هو أول مدارج الفكر، وأما المدرج الأخير في ذاك السلم فهو الفكر المتحرك"،[٤٣]فالفكر ليس حالة ذهنية يعيشها الإنسان بل هو استيعاب جميع تجارب الإنسانية بداخله ثم الحركة بعد هذا الاستيعاب. وبهذا يرد الأستاذ على من يقول: إن الفكر الإسلامي يتعلق بالقضايا الذهنية والجهود العقلية أي هو تصورات وكليات متعلقة بالإنسان والكون والحياة دون أن يكون له ثمرة في السلوك[٤٤].

ويفهم من حديث الأستاذ أنه يريد المسلم الذي يقوم بتبليغ شرع الله وبيانه للناس، وهدايتهم إليه، وحثهم على تطبيقه في حياتهم بكل الوسائل المشروعة بقصد تحقيق العبودية[٤٥].

والحركية التي يريدها الأستاذ يجب أن تكون منضبطة ومنطلقة من الفكر الإسلامي الذي هو مجموعة المفاهيم والتصورات والمبادئ والعقائد التي يؤمن بها الإنسان ومصدرها الوحي الإلهي المتمثل في الكتاب والسنة، أو التصورات البشرية المنضبطة بالوحي الإلهي، ويحذر الأستاذ من الانفصام بين الحركة والفكر، فيرى أن الحركة من غير فكر تؤدي إلى الفشل والفوضى، والأفكار الجامدة من غير حركة تبقى تصورات ذهنية يقول: "كم فكر عظيم بقي حبيسًا في برزخ، فلم يشهد الحياة في هذا العالم المثقل بالدخان والضباب، وكم منهج تحطم مصدومًا بالأفكار الكدرة للمصابين بقصر النظر. فهؤلاء لا يولون أهمية ولا يعون معنى للعلم ولا للمعاني التي تربط بين الأشياء والحوادث، ولا للمناسبات بين الإنسان والكائنات"[٤٦].

فثمة تداخلٌ بين الحركة والفكر، فالعمل الحركي

مرتبط بالفكر، والحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة، ويمثل الأستاذ هذا التداخل بتشبيه بليغ فيقول "فكأنَّ الفكر بهذا المعنى سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له، وكأن الحركية أرض وسدانة للفكر أو تراب وقوة الإنبات فيه... كل جهد حركي هو تحقيق فكر وبرنامج، وكل فكر هو بدايته ووتيرة للعثور على أُطُره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة به... "[٤٧].

وليس كما يظن البعض بأن المفكرين معزولون عن المجتمع ليس لهم علاقة بما يدور، فهو يرى أن رجل الفكر هو رجل الحب الذي يحب الله تعالى كحب مجنون، ويحتضن كل إنسان إلى العشق ويداعب الأطفال ويحثُّ الشباب إلى الوصول إلى الإنسان المثالي، ويوقر الشيب بأخلص التوقير والاحترام ويسعى للحوار مع الجميع، فهو رجل حكمة يستوعب كل شيء بموازين واضحة وهو أنموذج للشعور بالمسؤولية، ويستشعر التوقير للقيم ويهب لها قلبه. وفي سلوكه يكون مشدودًا شدًّا وثيقًا بحسابات الحق[٤٨]. ويرى أن الذين يعيشون من غير فكر سطحيون كأطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، ولا يحسون بأنفسهم، ولا يشعرون ألبتة بوجود قيم تخصهم فهم يحيون حياة العبيد، يُسخّرون كل شيء لخدمة الجسم بل يغيرون ما وهبهم الله كالقلب والإرادة والحس والشعور إلى وسائل رخيصة لملذاتهم البدنية، ويكفي أن الذين يعيشون مفكرين يرون كل لحظة من حياتهم طريقًا للأفكار المتكررة والتجديد في الحياة[٤٩].

فالفكر والهدف السامي يشحذ الأجيال ويولِّد الطاقة، وهو منبع صافٍ يمد بالحماس، والفكر السامي يصل بالمساعي الفردية إلى حركة جماعية، فقد كانت أهم مصادر القوة لتلك الثلة الأولى من المجاهدين فكرة واحدة بدلَّوا بها مصير الإنسانية[٥٠].

وحتى لا يبقى الحديث عن إنسان الحركة والفكر حديثًا نظريًّا، يقدم الأستاذ فتح الله كولن نماذج عملية في الحياة المعاصرة لأشخاص يرى أنهم يمثلون إنسان الفكر والحركة ويذكر نبذة يسيرة عن حياتهم باعتبارهم نماذج وقدوات، فالقدوة هي: "المعلِّم القدير بلا لسان، والمرشد الناصح من غير بيان، وهي مدرسة الإنسان العلمية التي يرسخ تعليمها في النفوس، ويعلق بالأفهام، والناس مائلون طبعًا إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم، والمرئي يؤثر أكثر من المقروء والمسموع، وتعليم العمل أنفع من تعليم القول، والإرشاد يري الطريق ولكن القدوة البكماء تسير فيه، ومهما أوتي المعلم من البراعة في تهذيب النفوس فليس ببالغ ما يبلغه زميل له دونه في المهارة وفوقه في السيرة، ولذا كان خير النصح افعل كما أفعل لا كما أقول"[٥١]. في العبارات السابقة قولٌ بليغٌ في بيان أهمية القدوة ودورها وتأثيرها في النفوس، وبيانٌ لميل النفس البشرية لها لا إلى الكلام من غير فعل، لذا جاء القرآن الكريم يبين موقع وأهمية القدوة في التربية وتعديل السلوك. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١). فالآية الكريمة تبين أهمية القدوة في المجتمع، وما لَهَا من تأثير واضح على أفراد المجتمع. لذا جعل الإسلام القدوة الدائمة في شخص المصطفى ﷺ، فهو عليه الصلاة والسلام قدوة متجددة على مر الأجيال وفي واقع الناس. ولا تَعرِض التربية الإسلامية هذه القدوة للإعجاب والتأمل، إنما تعرضها على الناس ليحققوها في ذوات أنفسهم بقدر ما يستطيع كل فرد منهم وبقدر ما يصبر على الصعود[٥٢]. فالقدوة عامل مهم في إصلاح الأفراد أو إفسادهم، فالمربِّي الصدوق الشجاع الكريم يُنشئ شابًا صدوقًا أمينًا خلوقًا كريمًا شجاعًا، لذا فالقدوة من أفعلِ الوسائل وأقربها إلى النجاح. فمن السهل تأليف كتاب في التربية ومن السهل تصور منهج، ولكن يظل هذا غير ذي جدوى ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض، وما لم يترجمه البشر بسلوكات وتصرفات حقيقية، فعندئذ يتحول المنهج إلى حقيقة، والحقيقة إلى حركة، والحركة إلى تاريخ[٥٣].

ويؤكد الأستاذ أنه ليس هناك نمطٌ أو نسقٌ معينٌ لإنسان الفكر والحركة. فقد تجده إنسانًا متفانيًا في العلم، أو فنانًا أو رجل دولة يجمع كل هؤلاء. ومن الأسماء التي أشار إليها "النورسي" و"أحمد حلمي"... بل يقترح الأستاذ على طلبة العلم الاهتمام بالكتابة عن هؤلاء للاستفادة ممَّا توصلوا إليه. أما الفكر الذي يريده الأستاذ فهو الفكر الذي يُبرز هويتنا الداخلية المنسوجة من ميراث حضارتنا وثقافتنا الذاتية، وجعل هذا الفكر محور الانبعاث من جديد، يقول: "إن بعضًا منا لا يدرك على المدى القريب الفوائد المترتبة على العيش في أجواء "محور الذات" لكن سوف تبدو الأهمية في مراحل التقدم كلها لذا علينا أن نواصل السير في إطار ديننا وتراثنا وعقائدنا وتقاليدنا[٥٤]. ويتابع: "إذ ينبغي على الأمة ألا تغض البصر عن جذورها المعنوية في جميع فعالياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما ينبغي عليها ألا تنسى البته الرسالة الهادفة المميزة لثقافاتنا الذاتية ما دامت قد قررت أن تحقق الشهود الحضاري في عصرها..."[٥٥].

فهو يدعو إلى ضرورة بناء النسق الخاص بالأمة بحيث تنطلق فلسفة الحياة منه، وأن يتم التفريق بين النسق الذاتي والنسق المترجم، فالنظام الفكري الإسلامي عادل ويستجيب لمتطلبات الإنسانية، يقول: "فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظلِّ ذلك إلى القدرة على تجديد نفسه ذاتيًا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكير..."[٥٦].

فالفكر الإسلامي يتصف بالشمول من خلال تنظيمه لعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بالإنسان وعلاقته بنفسه وبالآخرين، ويشمل حاجات الإنسان الجسمية والعقلية، والروحية، وهو فكر عالمي؛ لأن دعوة الإسلام كانت وما زالت عالمية يقول ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧) وهو فكر

إنساني فيه "محبة الناس كلهم بلا أنانية ولا تعصب للون أو قوم أو وطن، وهذا ينعكس على كل تصرفات الإنسان رحمة وعدلاً"[٥٧]، وفكرًا متوازنًا يوازن بين متطلبات الروح والمادة، والقول والفعل، ومصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، بالإضافة إلى أنه فكرٌ متميزٌ.

وهذا الفكر هو الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية التي اكتسبت طابعًا مميزًا عن غيرها من الحضارات الإنسانية والتي هي حضارة إيمانية انبثقت من العقيدة الإسلامية، وحضارة إنسانية عالمية في آفاقها وامتداداتها لا ترتبط بإقليم أو جنس أو مرحلة، وحضارة معطاء أعطت عطاء زاخرًا بالعلم والقيم من عدل ومساواة وفضيلة وجمال وحضارة باقية بقاء الحياة على وجه الأرض تستمد بقاءها من الإسلام[٥٨]. لذلك يؤكد الأستاذ أن الأيدولوجيات التي برزت للميدان كانت عليلة بعلل شتى، مثل التصادم مع الطبيعة البشرية، وقد عجزت عن احتضان الفئات كلها، ولم تكن بالمستوى في استجابتها للحاجات الإنسانية، وقد أغفلت القيم الإنسانية، بل أسهمت في تأجيج مشاعر الحقد والبغض بين البشر، لذا خلَّفتْ خرابًا وأنقاضًا، وبناء على ذلك فإننا بحاجة إلى فكرٍ سامٍ يشحذ الهمم وينوِّر العيون ويبعث الأمل، ليس فيه فجوات عقلية أو عاطفية[٥٩].

فالفكر الغربي المعاصر يعاني من الغبش في معرفة الألوهية، ويعاني من النزعة المادية التي تؤمن بالمادة وحدها لتفسير الكون والمعرفة والسلوك، ومن النزعة العلمانية التي تفصل بين الدين والحياة، كما يعاني من الصراع الذي لا يعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب، صراع بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والإنسان، ويقوم هذا الفكر على الاستعلاء على الآخرين، فهم يعتبرون أنفسهم الأفضل، ويعتبرون حضارتهم هي الحضارة الإنسانية ولا يعترفون بغيرها[٦٠].

إن دراسة العوامل الحقيقية لولادة تلك الإيدولوجيات وتأثيراتها تجعلنا أمام أزمة فكرية طاحنة، وهذه الأزمة الخانقة متعددة الآثار أدت إلى إصابة العقل المسلم بأمراض خطيرة، كان القرآن الكريم قد شفاه منها، ومنها مرض التقليد الذي أشار إليه الأستاذ تكرارًا، وعقلية العوام، وإهمال النظر والفكر والتدبر والتأمل الذي أدى إلى إنكار البدهيات، والتحيز والتعصب والتعلق بكل ما هو شاذ وغريب[٦١].

إن واقع التخلف والتبعية الذي تعيشه الأمة الإسلامية يجعلها تقلد كل ما هو بعيدٌ عن بيئة المسلمين وحضارتهم الإسلامية، لاعتقادها بأن تقليد الآخر يوصل الأمة إلى مصافِّ الدول المتقدمة المتبوعة.

وعن هذه التبعية عبَّر أحد الكتاب قائلاً: "فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين

التخطيط السليم هو الخطوة الأولى نحو تحقيق الأهداف المنشودة وتوفير البيئة السليمة الصحيحة لبناء الإنسان.

nesemat.com نسمات nesemat.com

وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء من الفلاسفة والمفكرين "الإغريق والألمان والأوروبيين والأمريكان"، وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة، وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين ..."[٦٢]. ولبناء إنسان الفكر لا بد من التخلص من كل الأفكار في داخلنا والتي تخرب جذور الروح. والعمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي وفق نسيجنا الحضاري والخاص[٦٣].

ويفهم من حديث الأستاذ المصطلح الشائع والمعروف بالتَّخْلِيَة والتَّحْلِيَة، ويقصد بالتخلية ترك الأفكار والمعتقدات المخالفة وعدم ممارستها، وحتى يتمكن الفرد من هذا الأمر يجب تجنب هذه الأفكار، ونبذ السلوكيات والعادات والانحرافات غير المرغوب فيها؛ وتعد هذه المرحلة تهيئة لمرحلة وجدانية نفسية عند الشخص تسهل تخليِّه عن الأفكار والمعتقدات المخالفة والتخلص بتركها دفعة واحدة، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(الأنعام: ١٥١)، والمتأمل يلحظ أن هذه السلوكات لا علاقة لها بجسد الإنسان، لذا أَمَرَ بتركها دفعة واحدة.

أما التحلية فيقصد بها جعل الفرد يمارس سلوكًا جديدًا يكون محلاً وبديلاً للسلوك الذي تمَّ تركه، وحتى يتمكن الفرد من ممارسة السلوك يجب عليه المجاهدة: ويُقصد بها أن يتكلَّف الإنسان فعل السلوك المراد تثبيته لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩). وهذا ما عناه الإمام الغزالي بتكلف الفعل الذي يراد تحويله إلى سلوك ثابت، حيث قال: "فمن أراد مثلاً أن يُحصِّل لنفسه خُلُق الجُود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفًا، مجاهدًا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعًا له..."[٦٤].

وكذلك تكرار السلوك، ويقصد بالتكرار أن يمارس الفردُ السلوكَ بشكل مستمر، والهدف من تكرار السلوك أن يصير ثابتًا مستقرًا، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾(الأعراف: ٢٠٥) والتكرار هو ما تحدث عنه الغزالي بقوله: "ولا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذُ الطاعة واستكراهُ المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ. وإنما المقصود من العبادات تأثيرها في القلب ويتأكد التأثير بكثرة المواظبة عليها..."[٦٥]. ■

الهوامش

[١] ٦٨، نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، محمد المبارك، دار الفكر-

بيروت،ط٤، ١٩٧٥م.

[٢] ١٣، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٣] ١٤، المصدر السابق.

[٤] ٢٦، المصدر السابق.

[٥] ٢٦، المصدر السابق.

[٦] ٢١٦/١، إحياء علوم الدين، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي.

[٧] ١٤٩، العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة- بيروت.

[٨] ١٦٠، قرارات في التربية الإسلامية عبد الرحمن النقيب، الرياض، ط١، ٢٠٠٤م.

[٩] ٨٣، الأساس التعبدي للتربية الإسلامية"بنان" أحمد ضياء الدين.

[١٠] فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح، ص ٦١.

[١١] ٣٩١/١، إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي.

[١٢] ٨٥، في النفس والمجتمع، محمد قطب، دار الشروق، ط٥، ١٩٨٠م

[١٣] ٧٣-٧٧، نظام الإسلام العبادة والعقوبة، محمد عقله، عمان، ط١، ١٩٨٦م.

[١٤] ٣٦، إسلامنا، سيد سابق، دار الكتب الحديثة - القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م.

[١٥] ٤٤٩/٤، إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي.

[١٦] حديث٤٣٧٢ ، ٣٠٥/٤، النسائي، السنن الكبرى.

[١٧] ٣٥، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[١٨] ٨-٩، ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن.

[١٩] معجم علم النفس الطب النفسي، القاهرة، جابر عبد الحميد، وعلاء الدين كفافي، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٨م.

[٢٠] ٩٤٦، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم حنفي، دار النهضة- القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.

[٢١] ١٠، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٢٢] ١٨، المصدر السابق.

[٢٣] ٢٤، المصدر السابق.

[٢٤] ١٥، المصدر السابق.

[٢٥] ١٠، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٢٦] ٣٥-٣٦، حاضر العالم الإسلامي، توفيق الواعي.

[٢٧] ١٠٦، التقليد والتبعية، ناصر العقل.

[٢٨] ١٤، مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس، أنور الجندي.

[٢٩] ١٤، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٣٠] ١٧، المصدر السابق.

[٣١] ٣٠، المصدر السابق.

[٣٢] ٣٠، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٣٣] ٣٢، المصدر السابق.

[٣٤] ١١، مدخل إلى الحضارة الإسلامية،عماد الدين خليل.

[٣٥] ١٠، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل،عبد العزيز التويجري.

[٣٦] ٦، ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٣٧] ٢٩، المصدر السابق.

[٣٨] ١٩، الوسيط في الحضارة الإسلامية، عماد الدين خليل.

[٣٩] ٢٦، المصدر السابق.

[٤٠] ٢٠-٢٢علوم حضارة الإسلام، خالد الحربي.

[٤١] ١٢-٤٣ ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٤٢] ٢٢، المصدر السابق.

[٤٣] ٥٩، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٤٤] ٨١، الثقافة الإسلامية، محمد أبو يحيى.

[٤٥] ٢٠، أخلاق الداعية، عدنان خطاطبة.

[٤٦] ٨٢، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٤٧] ٨٠، المصدر السابق.

[٤٨] ١١١/ ١١٢، المصدر السابق.

[٤٩] ١٢٠، المصدر السابق.

[٥٠] ٤٥، ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٥١] ٦٧، الخلق الإسلامي الكامل، بديوي.

[٥٢] ٢٥٧، أصول التربية الإسلامية، عبدالرحمن النحلاوي.

[٥٣] ١٨٠، منهج التربية الإسلامية، محمد قطب.

[٥٤] ٢٣-٢٤، ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٥٥] ٢٦، المصدر السابق.

[٥٦] ١٢٦، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

[٥٧] ١٥٩، محاضرات في الثقافة الإسلامية، نوح القضاة، عمان، مديرية الإفتاء العسكري.

[٥٨] ٧، خصائص الحضارة الإسلامية، عبد العزيز التويجري.

[٥٩] ٣٨-٣٩، ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٦٠] ١٣-٢٣، الإسلام... حضارة الغد، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة- القاهرة، ١٩٩٥م.

[٦١] ١٤١، تجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد.

[٦٢] ٤٤٠/١ في ظلال القرآن، سيد قطب.

[٦٣] ١٥، ونحن نبني حضارتنا،فتح الله كولن.

[٦٤] ٧٣/٢ إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي.

[٦٥] ٧٣/٢ المصدر السابق.

الجمع بين الحُسنيَين
الأستاذ كولن مربِّيًا ومُفكرًا مسلمًا

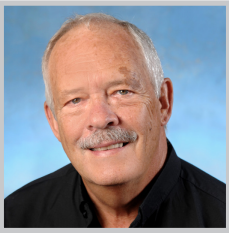

توماس ميشال

الأب الدكتور توماس ميشال، (مستشار البابا ومستشار الفاتيكان للشؤون الإسلامية سابقاً)، درَّس اللغة الإنجليزية في أندونيسية وهناك بدأ اطلاعه على الإسلام، انتقل إلى القاهرة لتعميق معرفته بالعربية والإسلام، ودرَس في الجامعة الأمريكية ودار العلوم و الأزهر، عمل سكرتيرًا لمجلس أساقفة آسيا للحوار بين الأديان، ثم سكرتير الأمانة اليسوعية للحوار بين الأديان في روما، درَّس في كثير من جامعات العالم، وله عديد من الكتب والمقالات بلغات مختلفة.

كانت مدرسة "التسامح الفلبينية التركية" أول مؤسسة تربوية تلفت نظر الكاتب إلى حركة الأستاذ كولن وتدفعه إلى دراسة كتاباته، ليكتشف الغاية الكامنة وراء هذا المشروع التربوي الصادر عن رؤية الأستاذ كولن وأصحابه التربوية، خصوصًا وأن المدرسة تتواجد في منطقة يقطنها ٥٠٪ من المسلمين و٥٠٪ من المسحيين، ويغلب عليها طابع التوتر والتجاذب بين هؤلاء الأطياف، لكن المدرسة تعطي التلاميذ الفلبينيين مسلمين ومسيحيين دروسًا إيجابية وذات جودة عالية في كيفية التعايش مع الآخر.

لقد كان الكاتب يتوقع رؤية مظاهر إسلامية تقليدية وصارمة في منهاج وإطار المدرسة، لكن الواقع كان غير ذلك بحكم الطبيعة التعددية لنوعية التلاميذ الذين يترددون على المدرسة.

يحاول الكاتب في هذه الدراسة بيان دور الأستاذ كولن مربيًّا ومفكرًا مسلمًا؛ فدوره كمفكر إسلامي ومعلم يستحق الفحص الدقيق، كما أن دراسة معمقة لفكره الديني المنفتح لا تقل أهمية، خصوصًا وأن هذا الفكر يمثل قراءة حديثة للنص الإسلامي "على حد تعبير الكاتب".

كان أول ما عرفت في حركة الأستاذ كولن هو تلك المؤسسات التربوية التي يديرها أفراد الحركة. وهذا ما قادني إلى بدء دراسة كتابات الأستاذ كولن لأكتشف الغاية الكامنة وراء هذا المشروع التربوي الصادر عن رؤية الأستاذ كولن وأصحابه التربوية.

يجب في البداية الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بعلاقة الأستاذ كولن بهذه المدارس، حيث يُطلَق عليها في الغالب، وبدون تبيّن، "مدارس كولن، "أو"مدارس حركة كولن". يحب الأستاذ كولن أن يسمي نفسه مربيًا، في حين أنه يضبط مفاهيميًّا الفرق بين التربية والتعليم، فيقول: "قد يصير كثير من الناس أساتذة، لكن المربين قلائل"[1].

كما أنه لا يفتأ يكرر أنه لا يمتلك أي مدارس؛ فقد تأسست تلك المؤسسات جراء اتفاقيات بين الشركات الراعية للمدارس والجهات الرسمية في الدول التي توجد بها. ثم إن كل مدرسة تدار على حدة.

لقد كان أول تعرُّف لي على واحدة من هذه المدارس سنة ١٩٩٥م في زامبوانغا، جنوب الفيليبين، وكان أول ما استرعى اهتمامي تلك اليافطة التي تحمل اسم "مدرسة التسامح الفلبينية التركية".

كان هذا بالنسبة لي أمرًا مذهلاً لدرجة كبيرة، خصوصًا وأن المدرسة تتواجد في منطقة يقطنها ٥٠٪ من المسلمين و٥٠٪ من المسيحيين، ويغلب عليها طابع التوتر والتجاذب بين هؤلاء الأطياف، لكن المدرسة تعطي التلاميذ الفلبينيين مسلمين ومسيحيين دروسًا إيجابية وذات جودة عالية في كيفية التعايش مع

من الأفضل الاعتراف بأن الأستاذ كولن يرفض الجهود الرامية للقطع مع الماضي، وفي الوقت نفسه يرفض الجهود الرامية إلى إعادة تأسيس المجتمعات ما قبل الحداثية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الآخر. وقد أكد لي صديقي المسيحي، الأستاذ بنفس المدرسة، أن هذه الأخيرة حافظت على مستوى رفيع من التواصل مع مؤسسات مسيحية في المنطقة.

إن تميز هذه المدرسة واضح من خلال فوز تلامذتها الدائم بأولمبياد المواد المختلفة: لغة، رياضيات، علوم، تكنولوجيا، لقد كنت أتوقع رؤية مظاهر إسلامية تقليدية وصارمة في منهاج وإطار المدرسة، لكن الواقع كان غير ذلك بحكم الطبيعة التعددية لنوعية التلاميذ الذين يترددون على المدرسة: مسيحيين، مسلمين، بوذيين، هندوس، وقرغيز. إن أغلب خطاب المدرسة حول القيم الكونية كالصدق، والعمل الجاد، والتناغم، وتحكيم الضمير، وكان هذا الاكتشاف المذهل وراء محاولتي البحث في كتابات الأستاذ كولن وتتبع الأسباب التي جعلت منه مربيًا قادرًا على إلهام الآخرين.

رؤية الأستاذ كولن التربوية

لم يتقبل العديد من الأتراك الملتزمين والمحافظين الطريقة التي تبنت بها الجمهورية التركية الحديثة "تحديث" جميع قطاعات الدولة في عشرينيات القرن المنصرم، وكان أول ما آخذوا به الدولة هو ذاك التقليد الأعمى للحضارة الأوروبية، وقد رأوا في العلمنة نتيجة قصدية تضاد الدين، ولم يستطيعوا

أن يروا فيها مسارًا تاريخيًّا عاديًّا.

لقد كانوا يتصورون أن العلمانية جاءت نتيجة لاقتناع مؤسسي تركيا الحديثة بأن الدين يعرقل التقدم، ولذلك وجب استبعاده من نطاقات المجتمع، والاقتصاد، والسياسة إذا أردنا للأمة أن تتقدم. وقد كان لهذا النقاش الذي ما زال محتدمًا، حول علمنة أو أسلمة التعليم أن يدفع المفكرين والباحثين إلى إعلان ولائهم لأحد الطرفين على حساب الآخر. وفي رأيي، فقد كانت واحدة من الأسباب التي دفعت باليمينيين واليساريين وبالعلمانيين والإسلاميين إلى مهاجمة الأستاذ كولن هو أن هذا الأخير رفض بشكل صارم أن يتبنى واحدًا من الموقفين المتضادين في هذه القضية؛ لقد قدم الأستاذ كولن، وعلى عكس طرح هؤلاء، مقاربة استشرافية تتجاوز محدودية هذا النقاش، فجاء برؤية تربوية توفيقية بين التحديث والعلمنة وبين تأصيل القيم الإسلامية الكونية، بحيث استطاع أن يستجيب لمقتضيات العالم الراهن المتحولة.

إن مقاربة الأستاذ كولن لا تتماشى مع ما يريده البعض من المطالبة بإحياء أمجاد الماضي، أو الوقوف عند بعض التقاليد من أجل استعادة دولة الخلافة أو الأثر العثماني بشكل حرفي وساذج. ويبدو ذلك واضحا في قوله: "إذا لم يكن هناك تلاؤم مع الأوضاع والشروط الراهنة، فالنتيجة دائمًا هي الزوال"[٢].

إن الأستاذ كولن يضيف مؤكِّدًا أن الإغراق في كل من الطرفين، أي التحديث أو التقليد، لا يؤدي إلى نتائج حميدة. المطلوب إذن هو عدم القطع مع القيم التقليدية، لأنه من دونها قد نعرض الشباب إلى خطر تربية جوفاء قد تجعل منهم قطعانًا من الموظفين النفعيين داخل نظام السوق المعولم، خالين من القيم غير المادية. إن الشباب المتعلم يحتاج في تربيته إلى قيم مثل عمق التفكير، ووضوح الفكر، وأصالة الإحساس، والتعاطف الثقافي، والاهتمام بالجانب الروحي[٣].

هناك حساسية مرهفة في رؤية الأستاذ كولن لمسألة التربية والتعليم، فهو يرى أن أغلبية الخريجين الجامعيين يُهَيَّؤون لكي يكونوا موظفين مفرَّغين من الداخل. وبالنسبة له فمثل هؤلاء الخريجين لا يستطيعون الوصول إلى الحرية الإنسانية بمعناها الفسلفي؛ فالقادة في كل من المجالين الاقتصادي والسياسي يفضلون دائمًا التعليم الخالي من القيم، والذي يكوِّن طلبة عاملين ونفعيين، لأن ذلك يمكِّن أصحاب السلطة من السيطرة بسهولة على الأطر الشغيلة "المتدربة" وليس على "المتعلمين المهذبين". ويؤكد الأستاذ كولن على "أنك إن أردت أن تجعل الجموع تحت سيطرتك، فقط جوِّعهم معرفيًّا. فهروبهم من الاستبداد لا يتم إلاّ من خلال التربية والمعرفة. إن الطريق إلى العدالة الاجتماعية ممهد بأسس التربية السوية والكونية، والتي ستسمح للناس بفهم معاني التسامح والتعايش واحترام الحقوق"[٤].

وبالتالي ففي رؤية الأستاذ كولن، لا يتعثر تأسيس أسس العدالة بقلة التربية والتعليم، ولكن يتعثر كذلك بقلة الاعتراف بحقوق الإنسان، وبعدم الاهتمام بمواقف قبول الآخر والتسامح معه. فإذا كان الناس قد حظوا بتربية جيدة تدفعهم للتفكير في أنفسهم وتحفزهم على احتضان قيم إيجابية كالعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، والتسامح، فإنهم سيتحولون إلى عملاء تغيير يغرسون هذه الأهداف النبيلة في نفوس المحيطين بهم.

وحتى يتحقق هذا المستوى الرفيع والمطلوب من التربية والتعليم، وجب الاهتمام بشكل جدي بتكوين الأساتذة. ولذلك ينبه الأستاذ كولن إلى حقيقة أن "التربية تختلف عن التعليم. فغالبية الناس قد يصبحون أساتذة، لكنَّ المربين فيهم قلائل"[٥]، الفرق بين الاثنين يكمن في أنَّ كُلاً من الأساتذة والمربين يكتسبون مهارات التدريس والمعرفة، لكن المربي هو شخص لديه القدرة على دعم شخصيات التلاميذ حتى تتفتق، وهو شخص يدفع بهم إلى التفكير والفكر، ويبني لديهم قوة الشخصية، ويساعدهم على تطوير قدرات السلوك الحسن الخاص بهم، وعلى الاهتمام بقيم التسامح، وحس المسؤولية. كما أنه يصف أولئك الذين يدرّسون من أجل كسب المال، من دون اهتمام بشخصيات التلاميذ كـ"أعمى يقود أعمى".

لقد أدى هذا الصراع على مناهج التعليم بين أطراف متعصبة إلى ما يسميه الأستاذ كولن بـ" الصراع المرّ الذي لم يكن ليقع: صراع الدين مع العلم"[٦]. هذه المفارقة الخاطئة، والتي استهلكت خلال القرنين ١٩ و٢٠ طاقات المفكرين والسياسيين ورجال الدين أدت إلى تقسيم الفلسفات والمناهج المتعلقة بحقول التربية والتعليم؛ فقد رأى المربّون العلمانيون الحداثيون في الدين مضيعة وقت على أقل تقدير وعرقلة للتطور على أكثر تقدير، ورأى رجال الدين في التحديث والعلمنة الشيء نفسه.

لقد أدى هذا النقاش العقيم إلى نبذ الحداثة والدين معًا، وقد نُظر إلى هذا الأخير "كإيديولوجية سياسية عوض النظر إليه كدين بمعناه الصحيح"[٧].

إن الأستاذ كولن يدرك أنه فقط ومن خلال نهج

تهدف مظاهر الحياة الإسلامية إلى إنتاج أفراد شرفاء ومستقيمين أخلاقيًّا. ويمكن الزعم -من خلال هذا المعنى العام عن الإسلام، أنَّ مدارس حركة "الخدمة" تستلهم رؤيتها الأخلاقية من جذور الإسلام.

تربوي ينفتح فيه رجال الدين على تكوين رصين في العلوم وينفتح فيه العلماء إلى القيم الدينية والروحية، قد ينتهي هذا الصراع الطويل بين الدين والعلم أو على الأقل قد نتنبه إلى سخافته"[٨].

وإلى أن نصل إلى هذا المبتغى، يبقى تبني أسلوب جديد في التربية ضرورة ملحة، يقول عنه الأستاذ كولن: "إنه أسلوب يجب أن يضع المعرفة الدينية والعلمية في بوتقة واحدة مع الأخلاق والروحانية، حتى نتمكن من تخريج أناس متنورين وذوي قلوب رحبة وعقول مليئة بالأشياء الإيجابية، أناس مستعدين للعيش وفقا للخصائص الإنسانية والقيم الأخلاقية، ومدركين للظروف السوسيواقتصادية والسياسية لوقتهم"[٩].

هناك العديد من المصطلحات التي تتكرر في كتابات الأستاذ كولن حول التربية، وتحتاج إلى توضيح لئلا تتسبب في سوء الفهم. وأول هذه المصطلحات هو الروحانية أو القيم الروحية؛ هناك من سيقرأ هذا المصطلح كرمز للدين، بحيث يُستعمل بغرض التغطية على الإجحاف في حق التدين في المجتمعات المعلمنة والحداثية، غير أن الحقيقة هو أن الأستاذ كولن يريد بهذا المصطلح معناه العام، فبالنسبة له لا تحتوي الروحانية فقط على التعاليم الدينية، بل

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كذلك على الأخلاق، والمنطق، والسلامة النفسية، والانفتاح العاطفي. وهناك أيضا مصطلحات مفاتيح كالرحمة والتسامح، ويبقى الدور الأساس على التربية والتعليم لكي ترسخ مثل هذه الخصائص "غير القياسية" في أذهان وقلوب التلاميذ، بالإضافة إلى تدريبهم على نهج السلوك "القويم".

هناك مصطلحات أخرى يستعملها الأستاذ كولن تحتاج إلى درس أكثر. فهو غالبا ما يتحدث عن الحاجة إلى قيم ثقافية[١٠] وتقليدية أصيلة[١١]. وقد أُوِّلت دعوته هذه إلى إدماج القيم الثقافية والتقليدية في التربية والتعليم من طرف النقاد كدعوة للرجوع إلى المجتمع ما قبل العثماني؛ فهو الذي اتُّهم بالرجعي وحتى بالأصولي. وهذا اتهام لم يتقبله أبدًا الأستاذ كولن. وحتى يوضح موقفه يقول: "إن كلمة رجعي تعني الرجوع إلى الماضي أو حمل الماضي إلى الحاضر، وأنا شخص أخذ على عاتقه الخلود هدفًا، وليس الغد فقط. إنني أفكر في مستقبل بلدنا وأحاول قصارى جهدي في ذلك، ولم يكن في نيتي يومًا ما أن أُرجع بلدي القهقرى في أي من كتاباتي، أو خطبي، أو أنشطتي. ولا يحق لأحد أن يصف الاعتقاد في الله، أو العبادة، أو القيم الأخلاقية أو أن يزعم أن الأشياء اللامحدودة بالزمان رجعية"[١٢].

إن الأستاذ كولن باقتراحه إدخال القيم الثقافية والتقليدية في التعليم ينظر إلى تاريخ تركيا كتراكم متمهّل للحكمة، التي ما زالت تعطي دروسًا للناس الحداثيين، كما أن الكثير داخل الحكمة التقليدية لازال فيه ما يستفاد منه في حاجيات المجتمعات الراهنة.

إن الماضي لا يجب أن يُهمل بسبب هذه الحكمة المتراكمة، لكن في مقابل هذا فإن أي محاولة لإعادة بناء الماضي تبقى قاصرة ومحكومة بالفشل. من الأفضل الاعتراف بأنه في حين نجد الأستاذ كولن يرفض الجهود الرامية للقطع مع الماضي، فإنه في الوقت نفسه يرفض الجهود الرامية إلى إعادة تأسيس أو إعادة خلق المجتمعات ما قبل الحداثية.

إن هذا التوجه الذي نجده عند بعض الإصلاحيين المحدثين والذي يصبو إلى "التحرر من قيود الماضي" يرى فيه الأستاذ كولن رحمة مزدوجة. فعناصر التراث التي كانت تتسم بالقمع والجمود، أو التي فقدت غايتها الأصلية وإلهاميّتها لا بدَّ لها من أن تُخلف، لكن هناك عناصر أخرى تحريرية وإنسانية يجب علينا ترسيخها حتى تتمكن الأجيال الجديدة من بناء مستقبل أفضل. ومن الواضح أن تفكيره يتجاوز النقاش الداخلي حول التوجهات السياسية في تركيا، كما أنه يتجاوز مستقبل المجتمعات الإسلامية، فرؤيته التربوية تعانق مجتمعات العالم أجمع؛ إنه يسعى إلى تكوين مصلحين محصّنين بنظام قيمي يعتبر كلا من المظاهر الفيزيقية واللامادية للإنسانية، وفي هذا الصدد يقول: "إن أولئك الذين يريدون أن يصلحوا العالم يجب عليهم أولا أن يصلحوا أنفسهم. ومن أجل أن يدعوا آخرين إلى طريق السفر إلى عالم أفضل، يجب عليهم أن يطهّروا عوالمهم الداخلية من الحقد، والكراهية، والحسد، وأن يجمّلوا عوالمهم الخارجية بكل أنواع الفضائل. أما أولئك الذين لا يبالون بتزكية أنفسهم أو الانتباه إلى سلوكهم فقد

يبدون جذابين وأصحاب بصائر في النظرة الأولى، لكنهم لن يتمكنوا من إلهام الآخرين بشكل مستمر كما أن الأحاسيس التي يُذكون عاجلاً ما تتوارى"[١٣].

ويضيف الأستاذ كولن أنه: "لا يمكن اعتبار شخص ما إنسانيًا بحق إلا بعد أن يتعلم ويعلم ويلهم الآخرين. ومن الصعب اعتبار شخص ما إنسانيًّا بحق إذا كان جاهلاً ولا يمتلك الرغبة في التعلم. كما أنه يبقى في عداد النقاش كل شخص متعلم لا يحيِّن تعليمه ولا يجدده أن يكون قدوة أو أن يكون إنسانيا بحق"[١٤].

يتمثل الطرح الأساسي هنا في كون الأستاذ كولن مربيًّا؛ فدوره كمفكر إسلامي ومعلم يبقى موضوعًا يستحق الفحص الدقيق، كما أن دراسة معمقة لفكره الديني المنفتح لا تقل أهمية، خصوصًا وأن هذا الفكر يمثل قراءة حديثة للنص الإسلامي. غير أن مثل هذه الأسئلة، للأسف لا تمثل محور هذا المقال، على أن دراسة لرؤيته التربوية لن تكتمل من دون نظرة ولو خاطفة لكتابات الأستاذ كولن عن الإسلام، ولدى الأستاذ كولن أكثر من ٣٠ كتابًا، البعض منها تأليف لمجموعة من الخطب والمواعظ التي سبق وألقاها بين طلبته ومرتادي المساجد، والآخر أجوبة لأسئلة طُرحت عليه في مناسبات مختلفة. تتطرق مضامين هذه الكتب إلى مواضيع مختلفة، فمن حياة الرسول محمد ﷺ إلى التعريف بالتصوف، والقضايا المرتبطة بعلم الكلام، مرورًا بالثيمات المتعلقة بالعقيدة. وتستهدف هذه الكتب في الغالب عوام المسلمين المتعلمين، لا المتخصصين.

إن أول ما يجلب انتباه القارئ عندما يتعلق

يقترح كولن نوعًا كونيًّا من الأخلاق، تَعلَّمه من الإسلام. و لا يعتبر هذه الفضائل والأخلاق الكونية ملكًا للإسلام وحده؛ فغير المسلمين مرحَّب بهم داخل المدارس، ولا توجد أدنى محاولات لإكراههم على الإسلام.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الأمر بمقاربة الأستاذ كولن التأويلية للنصوص الإسلامية الأساسية وللتقليد، هو هذا التركيز الكبير على الأخلاق والفضائل، والواضح من خلال كتاباته أنه يرى في الأخلاق قضية محورية داخل النطاق التديني الذي يرويه القرآن الكريم أكثر منه ممارسة طقوسية. وفي حين يؤكد على أهمية العبادة، يعتبر الاستقامة الأخلاقية في صميم الباعث الديني، يقول في هذا الإطار: "الأخلاق هي جوهر الدين، وهي الجزء الأساسي في الخطاب الرباني، فإذا كان بطوليًّا أن تكون صاحب فضائل وأخلاق، فأعظم الأبطال هم أولاً الأنبياء، ثم من يتبعون تعاليمهم بصدق والتزام. فالمسلم الحقيقي هو من يمشي بين الناس بأخلاق كونية، وبالتالي إسلامية"[١٥]. ويؤكد الأستاذ كولن على طرحه هذا بحديث نبوي شريف: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (أخرجه أحمد في مسنده).

تهدف جميع مظاهر أسلوب الحياة الإسلامية إلى العمل من أجل إنتاج أفراد شرفاء ومستقيمين أخلاقيًّا. ويمكن الزعم أنه ومن خلال هذا المعنى العام عن الإسلام، أي الخضوع إلى الله تعالى، فإن مدارس حركة "الخدمة" تستلهم رؤيتها الأخلاقية من جذور الإسلام، فعندما يتحدث الأستاذ كولن عن تكوين طلبة "يكرسون حيواتهم وفقًا لخصائص

الحياة الأخلاقية، ويجمّلون عالمهم الخارجي بكل أنواع الفضائل"، فإنه يقترح نوعًا كونيًّا من النظام الشّفري الأخلاقي تَعلَّمه بنفسه من الإسلام. ومن البديهي أنه لا يعتبر أن هذه الفضائل والأخلاق الكونية ملكًا للإسلام وحده؛ فالتلاميذ من غير المسلمين مرحب بهم داخل المدارس، ولا توجد أدنى محاولات لإكراههم على اعتناق الإسلام.

إننا بهذه الطريقة قد نفهم أن الإسلام "طريقة تؤدي بالإنسان إلى الكمال البشري، أو تساعده على إعادة اكتساب الحالة الملائكية الفطرية"[١٦]. وإذا كنا نرى في الإسلام طريقًا نحو الكمال البشري، فإن تطور التصوف يجب أن يعتبر تطورًا طبيعيًّا ومحتومًا داخل التقليد الإسلامي. إن الأستاذ كولن يقترح تعريفًا أخلاقيًّا للتصوف، فيقول: "إن التصوف يشبه هذا السعي الحثيث للتخلص من العادات السيئة والإغراء الشيطاني والتوق إلى اكتساب المزيد من الفضائل"[١٧]، ويثني الأستاذ كولن على أهل التصوف في التاريخ الإسلامي، بحيث يعتبرهم كالقادة الروحيين الذين عرضوا طريق الكمال البشري على أجيال من المسلمين، لقد أدت للأسف قراءته هذه للتصوف إلى اتهامه بإنشاء طريقة صوفية جديدة داخل حركته. وفي حين ينكر الأستاذ كولن أنه ينتمي إلى أي طريقة صوفية، فإنه يستغرب كيف يكون له أن يُنشئ طريقة صوفية جديدة بالمرة، ويؤكد الأستاذ كولن أن اتهام الصوفية أو البعد الروحي في الإسلام هو بمثابة اصطدام بالعقيدة الإسلامية وبروح الإيمان: "لقد صرحت غير ما مرة أنني لا أنتمي لأي طريقة دينية؛ إن الإسلام دين يركز بشكل فطري وطبيعي على مملكة الروح، ويتخذ من تدريب الأنا مبدأ عامًّا، كما أن الزهد، والتقوى، والصدق، وحسن الخلق أسس ضرورية فيه، وقد كان التصوف تلك الشعبة التي تداولت هذه المعاني في التاريخ الإسلامي. ومعارضة كل هذا قد يكون بمثابة معارضة روح الإسلام، لكنني، أكرر أنني لم أنضم أبدًا إلى أي طريقة صوفية، ولم تكن لدي أي علاقة بأي واحدة"[١٨]. ■

الهوامش

[١] ١، الموازين أو أضواء الطريق إزمير: كيناك، ١٩٩٨م.

[٢] ٣٦، لين إميلي ويب، فتح الله غولن: هل هناك أكثر من له يلتقي العين؟

[٣] ١٠٦، نحو الجنة المفقودة.

[٤] ١٦، "م. فتح الله غولن: صوت الرحمة والحب والتفاهم والحوار"، مقدمة إلى م. فتح الله غولن، "ضرورة الحوار بين الأديان"، مقدمة ل م. غولن، "نيسيسيتي أوف إنتيرفيث ديالوغو: أ مسلم أبروتش ، "قدم في برلمان الأديان في العالم، كيب تاون، سوت أفريقيا، ١-٨ ديسمبر.

[٥] ٣٣، المصدر السابق.

[٦] ٣٦، "ضرورة الحوار بين الأديان".

[٧] ٣٩، المرجع نفسه.

[٨] ٢٠، المرجع نفسه.

[٩] ٣٩، المرجع نفسه.

[١٠] "القليل من الاهتمام والأهمية يعطى لتعليم القيم الثقافية، على الرغم من أنه أكثر للتعليم. إذا كان يوم واحد ونحن قادرون على ضمان أن يعطى أهمية، ثم سنكون قد وصلت إلى هدف رئيسي". الموازين أو أضواء من واي، ١.

[١١] ٣٥، راجع نحو الجنة المفقودة. ١٦، والموازين أو أضواء الطريق، ١: ٤٤

[١٢] ٤٥، ويب، فتح الله غولن.

[١٣] ٩٥، "ضرورة الحوار بين الأديان".

[١٤] غير محدد المصدر من الكاتب.

[١٥] ٣٠. نحو الجنة المفقودة.

[١٦] ٣٠، النور الخالد، محمد مفخرة الإنسانية.

[١٧] ٥٤، المفاهيم الأساسية في ممارسة التصوف.

[١٨] ١، ويب، فتح الله غولن.

مفهوم "المجاهدة" في منهج الخدمة

سليمان الدقور

أ.د. سليمان محمد علي الدقور، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، ورئيس قسم أصول الدين الأسبق بكلية الشريعة بالجامعة الأردنية، له عديدٌ من الكتب والأبحاث المؤلفة في التفسير والحديث والثقافة الإسلامية، منها: "الثقافة الإسلامية وقضايا العصر"، ، ومن أبحاثه المنشورة: "الغلو والتطرف، معناهما أسبابهما، آثارهما، علاجهما، مؤتمر الإرهاب والتطرف بالسعودية ٢٠١٠م، شارك في عشرات المؤتمرات والندوات الدولية والمحلية ومئات البرامج الإعلامية.

في هذه الدراسة يقدم الكاتب توضيحات حول مفهوم المجاهدة وصلتها بالجهاد، وبيان مؤشراتها القرآنية، وبيان صفات أصحاب المجاهدة ممن يحملون هم تقديم الخدمة الإيمانية للبشرية، وبيان آثار المجاهدة وتجلياتها الفردية والمجتمعية والحضارية. كل ذلك من خلال نموذج عملي حركي فاعل عرفه الكاتب وشاهده وعايشه عن قرب في فكر الخدمة وإنجازاتها، وفي كتابات الأستاذ المفكر الكبير فتح الله كولن حفظه الله.

ويخلص الكاتب إلى أن الجهاد -كما قرأه في كتابات الأستاذ كولن وعايشه في تطبيقات حركته- عبارة عن موازنة بين فتح الداخل والخارج؛ ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر. فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عن عمله. فيتولد من أحدهما الذل والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب. ويرى أن السعيد هو من يبحث عن وسائل لإنقاذ غيره مثلما يبحث عنها لإنقاذ نفسه، وهو أيضًا من لا ينسى نفسه في خضم العمل لإنقاذ غيره.

يعتقد كثير من الباحثين أن صناعة الحضارات الإنسانية تبدأ من منهج البحث العلمي القائم على النظر في مكونات الوجود، وتوظيف التقدم العلمي في سبيل تحصيل المعارف الجديدة، وإعادة تقديمها وتطويرها وتسخيرها لبناء مقومات حياة الإنسان.

والنظر المنهجي الدقيق يوقفنا على أن هذا ليس هو سبيل صناعة الحضارات التي تحقق للإنسان سعادته الحقيقية، أو الانتقال به من الشقاء إلى الطمأنينة والهناء، ومن الفقر إلى الغنى والرخاء، ومن التخلف إلى العلم والنماء.

إن اعتقادًا من هذا النوع يؤكد قصور الوعي على حقيقة النفس الإنسانية التي خلقها الله تعالى، وجعل ميزانها الروح الجامعة بين القلب والجسد، كما يؤكد أن أي بناء حضاري يشيده الإنسان اليوم سيبقى قاصرًا عن تلبية الحاجات الأساسية التي تربط الإنسان بفطرته وحقيقة خلقه التي تحركه نحوها دوافعه وشهواته.

إن مادة أي حضارة ينبغي لتثمر وتستمر وتربط صاحبها بحقيقةٍ ما بعد موته أن تقوم على أساس التصور الإيماني السليم، وليس أصدق في تأكيد ذلك من منهج بناء الحضارة الإسلامية الذي يقوم على تغذية الروح بحفظها من تفلتات النفس الشهوانية بمستوى ما يؤكده هذا المنهج من أهمية للبناء العلمي البحثي المعرفي.

ويختصر التصور الإسلامي هذه المعادلة بمفهوم قيمي يتحقق من خلال تصور وسلوك وعمل وأخلاق؛ ويقدمها من خلال مصطلح المجاهدة.

وإذا كنا اليوم أمام مشاريع ناهضة تحمل على عاتقها مسؤولية البناء المجتمعي، وتحقيق الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فإننا أمام تحديات كبيرة نُسائل فيها عن البرامج الروحية البانية لهذه المشاريع والمكونة لها؛ لننظر أين المجاهدة في هذه المشاريع؟ وما أهميتها لهذه المشاريع؟ وما صلتها بالإنجازات الميكانيكية التي تحققها هذه المشاريع؟

كلها أسئلة تفرضها مقتضيات الإجابة على سؤال العمل الحضاري.

وفي هذه الدراسة المختصرة سأقدم توضيحات حول مفهوم المجاهدة وصلتها بالجهاد، وبيان مؤشراتها القرآنية، وبيان صفات أصحاب المجاهدة ممن يحملون همَّ تقديم الخدمة الإيمانية للبشرية، وبيان آثار المجاهدة وتجلياتها الفردية والمجتمعية والحضارية. كل ذلك من خلال نموذج عملي حركي فاعل عرفته بنفسي، مما شاهدته وعايشته ولامسته عن قرب في فكر الخدمة وإنجازاتها، وفي كتابات الأستاذ المفكر الكبير فتح الله كولن حفظه الله.

رجل الحقيقة

من هنا تبدأ المجاهدة من الوعي على حقيقة وجود الإنسان، الإنسان المكلف بحمل أمانة عمارة الأرض، الإنسان الذي يملك الإجابة على الأسئلة الوجودية الكبرى: من أنا؟ من أوجد هذه المخلوقات جميعها؟ ما الأمور المكلف بالقيام بها؟ ما مصيري ومآلي؟

يعرفنا به الأستاذ فيقول: هو "رجل يستطيع

مجابهة ومقاومة كل الدواهي ببدنه وبأعصابه الفولاذية. أما فكره وعقله فقد مَزج في بوتقة واحدة معارفَ ومفاهيمَ عصره بالحقيقة الأزلية وصهرهما معًا، أي هو مثل عالم كيميائي ينشئ في كل آن تركيبة جديدة. أما ملكاته الروحية والقلبية فهي بنفس نكهة القابليات والملكات التي سحَّت من أمثال مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره إلى بوتقة واحدة وانصهرت فيها ونضجت. أي هو في النهاية قلب ناضج عارف، بينما يرى نفسه إنسانًا وفردًا عاديًّا بين الناس. فإنه يستطيع أن ينسى بل يضحي بلذاته وحظوظه من أجل خير وسعادة الآخرين"[١].

نعم. إنه الرجل الذي يحقق الانتساب الإيماني أي "الانخراط الوجداني في سلك العبودية لله إيمانًا وعملًا؛ بما يحقق للإنسان معنى الإضافة إلى الله في صفة "عبدالله"[٢].

هو ذلك الرجل الذي يحمل الهم، وتشعله الهمة، فيتحرك لأداء المهمة، إنه رجل الدعوة، "رجل ارتبط قلبه بدعوته ارتباطًا لا يتردد في السباحة معه في بحور من الدم والصديد من أجلها. وهو ناضج إلى درجة أنه عندما يصل إلى هدفه يزهد بكل شيء، ويعطي كل صاحب حق حقه. هو مؤدب غاية الأدب تجاه خالقه، كل نفس يتنفسه في سبيل الدعوة ذكر وتسبيح، وكل فرد من أفراد الدعوة مبجل وعزيز عنده، يشكرهم على خدمة ناجحة يقدمونها للدعوة ولكن دون إفراط. لأنه يؤمن بإرادة ربه. أي هو رجل متوازن. عندما تكون هناك خدمة لا يتقدم أحد نحوها يرى نفسه مسئولًا عنها قبل الجميع. هو منصف ويحترم كل من يعين الحق وينصره ويعمل في سبيله. عندما تنهدم مؤسساته وخططه، وتتمزق وحدة جماعته وتتفتت قوتها لا يفقد إيمانه ولا أمله وتفاؤله، بل يحاول التحليق من جديد. وعندما ينجح في التحليق ويصل إلى الذرى، لا ينسى التواضع والمسامحة. هو شخص واقعي وصاحب بصيرة يعرف منذ البداية أن هذا الطريق وعر وشاق، ولكنه صاحب عزيمة وإيمان يرى معه أن طريقه لو ملئت بحفر من حفر جهنم فإنه يستطيع قطعها. هو عاشق متوله يحب دعوته التي وضع روحه في كفه من أجلها. وَفِيٌّ لها وفاءً يضحي بسببه في سبيلها بروحه وبكل ما يملك دون أن يخطر على باله أبدًا أنه قام بأي تضحية"[٣].

ما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم. وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مفهوم المجاهدة

يسيطر مصطلح الجهاد بمفهومه المحدود على آراء كثير من الباحثين والكاتبين والمفكرين، فيحملونه على معنى القتال فحسب، مما أدى إلى ارتباطه وحصره في معنى ضيق أدى إلى ضمور فكرة المجاهدة ودلالاتها الواسعة، بما تشمله من مناحي حياة الإنسان وأعماله في مستواه الفردي ومستواه الجمعي.

شدَّد الأستاذ كولن على وجوب التفريق بين الجهاد -بمفهومه الخاص والعام- والإرهاب، والتأكيد على أن البلاغ يقوم على احترام الحرِّيات وليس على القسر والإكراه والإرهاب.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وهذا يستدعي منا ومن مفكرينا إعادة النظر في تموقع المصطلح ودلالته واستعمالاته، ليستعيد عافيته ودوره في البناء الإنساني والإعداد القيمي والسلوكي.

وقد قدم الأستاذ كولن رؤية تصورية وعملية حول مفهوم المجاهدة وصلتها بالجهاد من خلال عدة قضايا ومسائل تناولها في مقالات ومؤلفات متعددة، سنحاول هنا تجليتها قدر المستطاع

يقول: "الجهاد كلمة مشتقة من جذر: جَ هَ دَ، وهي تعني بذل الوسع، والكلمة تحمل معنى آخر وهو بذل الإنسان كل ما في وسعه وطاقته وتحمّله المشاقّ في سبيل الوصول إلى هدف معلوم. وهذا التعريف أقرب إلى معنى الجهاد بمعناه الشرعي.

إن مفهوم الجهاد في سبيل الله يجري في جبهتين اثنتين: الأولى موجهة إلى الداخل، والأخرى موجهة إلى الخارج. ويقول: "إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية إيصال الإنسان إلى ذاته وإلى ربه. أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلى ربهم. ويطلق على الأول (الجهاد الأكبر) وعلى الثاني (الجهاد الأصغر). حيث إن الإنسان بالأول يبلغ معرفة نفسه بعد اجتيازه العقبات بينه وبين نفسه حتى يبلغ معرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني. أما بالثاني فتتحقق إزالة الموانع بين الإنسان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى ومن ثم التعرف عليه والعروج في معرفته.

والجهاد من زاوية أخرى هو غاية خلق الإنسان، فلا مهمة على الأرض أفضل منها. إذ لو كان الأمر خلاف هذا، لما كان الله ﷻ يرسل أنبياءه بتلك الوظيفة. فجميع الأنبياء والأصفياء منذ آدم عليه السلام قد بلغوا -بصورة عامة- مرتبة الاصطفاء والاختيار إمَّا تحت ظلال السيوف أو بمحاسبة النفس"[٤].

"حسب المفهوم الشامل للجهاد؛ فإن الجهاد الأكبر هو الطريق الذي يسلكه الإنسان طوال حياته، أينما كان وكيفما كان، وفي أي ظرف كان، بينما الجهاد الأصغر هو مزاولة الإنسان له إذا اقتضت الظروف، ويكون في أوقات معينة وبين حين وآخر"[٥].

"نعم، إنه لا يمكن أن يذوق النصرَ إنسانٌ لا يعيش في نفسه تلك الحقائق التي ينافح ويذبُّ عنها في كل ميدان يخوضه. لذا ينبغي لأبطال الجهاد أن يحققوا الجهاد في أنفسهم أولًا ويظلوا معها في جهاد مستديم حتى يكونوا أخرويين يسيحون في منازل الآخرة وهم ما زالوا في هذه الدنيا. ومن بعد ذلك عليهم أن يسعوا لإسعاف القلوب الظمأى إلى الحق والحقيقة"[٦].

"وهذا السبيل سلكه المنعَم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين من المسلمين على مرِّ تاريخهم، لذا أعطى الله ﷻ لكلامهم قوة وتأثيرًا، بناء على إخلاصهم لله وصدقهم معه، حتى جعلهم

يحيون -منذ عصورهم إلى الآن- بآثارهم الطيبة وذكرياتهم الجميلة، وشرح الله صدور المؤمنين لهم، وكأنه خلدهم بسجل حسناتهم"[٧].

ولو ذهبنا بعيدا عن تصنيف الأستاذ للجهاد بالأصغر والأكبر ومقصوده من ذلك، فإننا نلمس شمولاً منهجيًّا واضحًا في التعامل مع أصل تشكيل مصطلح المجاهدة وما يتصل به من أداء شامل لكل أعمال الإنسان.

ويضيف الأستاذ توضيحا أعمق إذ يقول: "وللجهاد وجهة أخرى تضم المجتمع بأكمله وتحتضنه، وهو جانب مهم جدًا، إذ الإنسان جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، والمجتمع بدوره يتألف من الأفراد. فالمجتمع الذي يهدف كل فرد فيه إلى جهاد نفسه أولاً لدى أدائه فريضة الجهاد، لهو مجتمع متماسك مترابط، تنسد أبوابه أمام عوارض الزمن ونوائب الدهور. حيث أتم كل فرد فيه مهمته وأعدَّ عدته المادية والمعنوية، فلا يمكن أن يصدّهم شيء عمّا يسيرون إليه"[٨].

"لذا فالمؤمنون الذين يعيشون مع هؤلاء الذين يجوبون في وديان الضلالة ويبحثون عن طريق للخلاص ويضيّعون حياتهم في سبيل العدم، مضطرون إلى أداء فريضة الجهاد مع هؤلاء الذين يشاركونهم العيش في سفينة الحياة الواحدة. فهذا فرض في أعناقهم من حيث كونهم بشرًا. ومن جهة أخرى فهو فرض ألقاه الله عليهم وكتبه لهم. فكل إنسان مكلف بأداء هذه الفريضة ضمن إطار موضعه وموقعه

nesemat.com نسمات nesemat.com

الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج. ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر.

وأحواله، وحسب إمكاناته وطاقته. وبخلافه يكون حسابه عسيرًا يوم الحشر الأكبر"[٩].

ويضيف توضيحا أدق لفكرته فيقول إجابة على الأسئلة الحائرة: "الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يُؤدى في جبهة القتال فحسب، فهذا النمط من الفهم يُقلِّص أفق الجهاد، حيث إن ميدان الجهاد واسع جدًا يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتًا وصمتًا أو تبسمًا وطلاقة وجه أو امتعاضًا ونفورًا أو تركًا لمجلس أو مشاركة فيه. وباختصار هو القيام بأي عمل من الأعمال لوجه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل. ومن هنا فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي.

بمعنى أن ما يؤدى في ميدان العائلة والأقارب القريبين والبعيدين والجار الجنب والصاحب بالجنب، كل ذلك هو من الجهاد الأصغر. فهي كَدَوائرَ متداخلة واسعة سعة الأرض كلها. نعم، إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي. أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي. فمتى ما

من أعظم تجليات المجاهدة أنها تُبين للإنسان هدفه وطريقه، وأنها تحميه من الذوبان الذاتي لأنها تدفعه يوما بعد يوم للحركية والفاعلية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

أوفى حق هذين الجهادين معًا فقد تأسس التوازن المطلوب. وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد.

فالمؤمن هو الإنسان الذي يجد هدف حياته ضمن هذه الموازنة في أدائه الجهاد، ويدرك أنه متى ما ترك الجهاد فقدْ فَقَدَ الحياة. نعم، المؤمن كالشجرة المثمرة تحتفظ بحيويتها طالما تثمر، وإذا انقطعت عن الإثمار يبست وفَنَتْ.

إذا شئتم أمعنوا النظر في وجوه جميع المتشائمين، تجدونهم قد تركوا الجهاد، فقطع المولى الكريم عنهم فيوضاته لأنهم لا يبلِّغون الحق والحقيقة إلى غيرهم. فأظلم عالمهم الداخلي وغدا قاسيًا جاسيًا. وانظروا إلى المجاهدين تجدونهم في نشوة وحبور دائمين وعالمهم الداخلي مملوء بالنور ومشاعرهم نابضة بالحيوية والرقة، لما يسعون إليه من تحويل الفرد الواحد إلى الألف، نعم إن كل جهاد يولِّد لديهم جهادًا آخر، وكل خير يكون وسيلة لخير آخر، لذا فهم يجولون ويصولون في الخيرات. والآية الكريمة تفهّم هذه الحقيقة في وجداننا:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)"[١٠].

بين الجهاد والمجاهدة

قد يتصور البعض أن الحديث عن المجاهدة طريق للتفريط في الحديث عن الجهاد بمفهومه المحدود الذي يدور عليه الفكر الإسلامي اليوم، إلا أن الحقيقة تبرز من خلال قراءة سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، فإن الجهاد بمفهومه الواسع هو رسالة محمد ﷺ، فهو الذي بلّغ الإنسانية جمعاء نظرة الإسلام في "أنّ الحفاظ على العرض والشرف وعلى الوطن والأمّة وحراستها والكفاح في سبيلها جهاد، وأنّ الجهاد أسمى ذروة في سُلَّم أداء وظيفة العبودية لله تعالى"[١١].

يقول الأستاذ: "فإنْ كنَّا لا نسارع للجهاد من أجل إعلاء الدين الإسلامي المبين أو لا نستطيع ذلك، وإذا كنَّا لا نصاب بالأرق جرَّاء انسحاقنا تحت صولة الكفر ومن جرَّاء غلبة الباطل على الحق ولا نحسُّ بألم عميق. فليس هناك من يجب إلقاء اللوم عليه إلا أنفسنا. لذا يجب على كلٍّ منَّا أن يعيب نفسه ويتهمها"[١٢].

وبسبب اختلاط الكثير من المفاهيم والتباسها في هذا العصر بسبب التخلُّف الفكري وضغوطات الاستبداد السياسي والقمع العسكري، فقد شدَّد الأستاذ كولن على وجوب التفريق بين الجهاد -بمفهومه الخاص والعام- والإرهاب، والتأكيد على أن البلاغ يقوم على احترام الحرِّيات وليس على القسر والإكراه والإرهاب، حيث قال: "تؤدَّى هذه الوظيفة المقدسة ضمن منهج الأفراد والأمم والدول، إذ المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا نظام

في عالم ليس فيه مسلم، كذلك لا إرهاب ولا فوضى في المواضع التي يوجد فيها مسلم. وهذا منوط بقيام المسلم بوظيفته وأدائها حق الأداء"[١٣].

المجاهدة تحتاج إلى صدق العلاقة مع الله

إذا كنا نؤمن أن المجاهدة مشروع حيوي روحي حركي يعيشه الإنسان ليتحرك في أداء مهمته، فمن الضروري معرفة مفتاح هذه العلاقة التي تمكن هذا المشروع في نفوس أتباعه والقائمين على تقديم الخدمة الإيمانية للإنسانية جميعها.

"إن أقوال وأحوال المبلغ تكون مؤثرة بقدر إخلاصه، فإن انعدم الإخلاص فلا تأثير لفخامة الكلام واحتشامه. حتى يصح أن نقول: إن الاهتداء ليس له علاقة قوية بالتبليغ والإفهام. لأنه بِيَدِ الله ﷻ. فإن لم يرد الله الهداية لشخص لا يكون أحد وسيلة لها قط. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦).

لذا فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي له مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهداية خزينة عظيمة فمفتاحها أيضًا بيده بلا شك. فالألزم إذًا للمبلِّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كل شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام. ولقد أتى ورحل من هذه الديار ذوو عقول جبارة، أتوا ورحلوا، وعلى الرغم من مستواهم الرفيع في البيان والخطابة، لم يتمكنوا من جمع بضعة أشخاص على أمر جادٍّ، فلم يكونوا مخلصين في بعض نواحيهم، حيث كانوا يتصورون أن كل شيء من عندهم ويربطون كل نتيجة

التضحية من أهم مميزات رجل الخدمة؛ فمن لا يعزم على التضحية ولا يأخذها في اعتباره لن يكون رجل خدمة أبدًا، ومن لم يكن رجل خدمة فليس هناك أي احتمال أمامه للنجاح.

nesemat.com نسمات nesemat.com

بأنفسهم. فيهم دهاة في البيان، كانوا يستطيعون أن يجعلوا ألوفًا يسيرون وراءهم ولكن لم يحصلوا على شيء لتلوثهم بالنفاق، ففيهم من يتكلم عن الصلاة وهو لا يصلي، وفيهم من يتناول شرح حسن الإسلام ولا يعيش به، لسانهم يغرد كالبلبل وقلوبهم تنبض بالحقد والكراهية والأغراض الشخصية. ومن هنا عدَّ القرآن الكريم المنافقين في الدرك الأسفل من النار. ولهذا فإنّ على كل مبلِّغ مخلص أن يسجد لله خمسين مرة ويلجأ إليه من احتمال دخول النفاق فيه ويتوسل إليه ليرزقه الإخلاص"[١٤].

المجاهدة والتضحية

و"الخدمة" اليوم تقيم مشروعها الذي تقدم فيه القيم الإيمانية الإنسانية للبشرية برؤية ديناميكية تتغلغل إلى محركات الإنسان ودوافعه ومحفزاته، ليكون قادرًا على التضحية من أجل القيام بهذا الواجب متجاوزًا كل العقبات والتحديات.

يقول المفكر محمد أنس أركنه: "من آليات حركة فتح الله كولن وديناميكياتها الداخلية خصلة (التضحية والإخلاص). وقد يقول أحدهم: ولماذا تجعل هذه الصفات من مميزات حركة فتح الله كولن مع أنها صفة موجودة في العادات والتقاليد

قدم الأستاذ كولن رؤية تصورية وعملية حول مفهوم المجاهدة وصلتها بالجهاد من خلال عدة قضايا ومسائل تناولها في مقالات ومؤلفات متعددة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الإسلامية؟ وجوابًا على هذا نقول: إن فتح الله كولن مثلما وسَّع المفاهيم الأخرى كذلك وسَّع هذه الخصال، فهو لا يرضى بالحد الوسط من هذه الخصال في حركته، بل يريد الأفق الأخير لما تستطيع هذه الخصال الوصول إليه. لذا يرد في العديد من كتاباته عند ذكر هذه الخصال تشبيهات مثل: "رجل الخدمة كالجواد الأصيل الذي يعدو حتى يكاد أن ينشق صدره، أو كالنسر الذي أفرد جناحيه للطيران... إلخ"... "التضحية من أهم مميزات رجل الخدمة؛ فمن لا يعزم على التضحية ولا يأخذها في اعتباره لن يكون رجل خدمة أبدًا، ومن لم يكن رجل خدمة فليس هناك أي احتمال أمامه للنجاح. أجل، عليه أن يستعد للتضحية بماله أو بنفسه أو بمنصبه أو بأولاده وعياله أو بشهرته وجاهه. وعندما بدأ رسول الله ﷺ في مكة بإرساء قواعد رسالته، قام أولًا بنفسه بالتضحية، وكان قدوة لأصحابه الذين آمنوا بدعوته، حيث نفث فيهم روح التضحية والفداء، وكان قدوة حسنة لهم في هذا الأمر"[١٥].

دافع المجاهدة

ويبقى السؤال العملي؛ سؤال الإرادة المقلق: كيف تتشكل عند الإنسان هذه الدافعية للتضحية؟ وهل يمكن للمجاهدة أن تصنع في نفس المُضحي هذه الدافعية للبذل والعطاء وتقديم الخدمة؟

وقد ينتظر الكثير إجابة نظرية تصورية تأصيلية على هذا السؤال!

لكنني أقول: إن الواقع العملي الذي قدمته الخدمة في تشكُّل هذه الدافعية الموجهة للتضحية والبذل بما صاغته من أدوات المجاهدة وآلياتها لهو خير دليل على صدق الهدف وقيمته في ميزان الدعوة إلى الله ﷻ.

ولعل أهم ما يشكل هذا الدافع هو السعي لمرضاة الله تعالى. أضف إلى ذلك الهم الذي يتشكل في قلوب العاملين فينعكس على أعمالهم وتضحياتهم؛ فإذا غاب الهم من وجوه المسلمين غاب البذل وغابت التضحية.

يقول الأستاذ: "تعرَّض الإسلام منذ حُرِمنا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغربًا أن يكون الظلم والغدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا حين يستعيذ بالله من جَلَد الفاجر وعجز التَّقي"[١٦].

نعم هو الدافع الإيماني الذي يثق بموعوده كلُّ العاملين المخلصين، "فمحال لدى الرحمة الإلهية ووعده القاطع أن تمس النارُ هاتين العينين -التي تحرس أحدهما وتبكي الأخرى- كمحالية عودة اللبن إلى الضرع! وواقع من يجاهد في سبيل الله أشعث

أغبر لا يختلف عن هذا، فقد بشّر الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة أن النار وهذا الغبار والتراب في سبيل الله لا يجتمعان.

نعم لا تمسُّ النار تلك العيونَ التي تذرف الدموع ساخنة من خشية الله، وتحرس وتراقب مواقع دخول العدو مرابطة في الثغور والمواقع الخطرة. فالذي ينذر نفسه لهذه الأمور ويجابه المهالك التي تحدق بالبلاد ويتصدى لها بإنشاء مؤسسات يتربى فيها أبناء أمته بمستوى يليق بالإنسان، ويتجافى عن حظوظ نفسه وأذواقها لأجل الآخرين ويستطيب راحة الآخرين وعيشهم الهنيء.. فهؤلاء لا تمسُّ عيونَهم النَّارُ. وعلى هذا فالذين يرون الجهاد جدالًا ونقاشًا هنا وهناك إن لم يراقبوا أعمالهم ويقوِّموها بموازين الجهاد الذي ينادون به، فإنهم لا يعملون إلا لقتل الوقت وخداع أنفسهم.

فالذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم، ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة، ولم يرغموا أنف الرياء، ولم يسحقوا روح الافتخار، ولم يجعلوه تحت أقدامهم، ولم يقلعوا من أرواحهم الكبر على الآخرين والتظاهر أمامهم، فأعمالهم لا تنفع شيئًا سوى كونها مصدرًا لإحداث القلاقل والاضطرابات.

ومن جهة أخرى، فالذين ينسحبون من الميدان ويقبعون في زاويتهم آخذين نصيبهم من الجهاد من جهته المعنوية وحدها ويقولون: لا يصح الانشغال مع الغير قبل الجهاد مع النفس، فهؤلاء الذين يرون إحراز درجات معنوية لأنفسهم وبلوغ المراتب

كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الرفيعة التي يرونها فوق كل أمر، ويعزفون عن إرشاد الناس، هم بلا شك على خطأ واضح، حيث يخلطون الإسلام بالروحانية الصوفية (ميستيزم).

إن الفكر المهيمن على القائلين بإصلاح أنفسهم قبل دعوة الآخرين مكتفين بالجانب المعنوي من الجهاد فحسب هو: أن كل إنسان يحاسَب بمفرده "فكل شاة تُناط برجليها"، كما في المثل العامي المشهور. وإن من لم يصلح نفسه أعجز عن إصلاح غيره. لذا على المرء أن يلتفت إلى إصلاح نفسه أولًا.

فنقول لمن يستغرقه هذا الفكر: اعلم أن الإنسان حينما يظن أنه أنقذ نفسه فقد وقع من فوره في أخطر دوامة، فمن يطيق أن يدعي خلاص نفسه والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩).

نعم إن الإنسان مكلف بالعبادة حتى الرمق الأخير، فلا يستطيع أن يحجم عن أي عمل كان في معنى العبودية لله تعالى، حتى يرفع الستار ويُدعَى إلى العالم الآخر. فكيف يمكن لمن تستمر عليه مهمة التكليف هكذا أن يقول: أكملت إنقاذ نفسي؟

والمقصود أن جهاد الإنسان مع نفسه وسعيه لتطهيرها وتزكيتها من الأخلاق الرذيلة، ومحاولة

المجاهد يحمل من الإخلاص ما يجعله يختار الله ﷻ على كل ما سواه، فهو إنسان خالص مخلص، ذو قلب حيّ. وبذلك يكون الجهاد مثمرًا وباقيًا.

nesemat.com نسمات nesemat.com

إصلاحها وتقويمها يدوم ما دامت فيه الحياة"[١٧].

تجليات المجاهدة الإيمانية

وقد يسأل أحدنا عن المجاهدة وهل لها من أصل في نفوسنا وفي فِطَرِنَا التي فَطَرَنا الله عليها؟

يقول الأستاذ كولن: "إن أساس حياتنا المعنوية قائم على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتُنا أيضًا منطلقة منه. فإنْ جرَّدْنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء.

إن الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدّنى، وإشباع حس الأبد في الوجدان. ليس منحصرًا على العبادات. إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعًا. ويتدخل في كل شيء لنا: عقليٍّ وروحيٍّ وقلبيٍّ. ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويسربل بلونه كل شيء. نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى. ولا برزخ بين قلبه وعقله. وعواطفه ومنطقه مزيج واحد. ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره سُلّمٌ من النور يتصل بالعقل، والعلم برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يحلق إلى اللانهاية دومًا بأجنحة العشق العملاقة في هذا السلّم، وحلّاج يندف قطن الوجود ندفًا بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة"[١٨].

ويضيف "شعارنا في هذا المضمار النفير والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أخفق دومًا الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن الشرف، وبقينا شرفاء، بفضل الله الذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمنا وانتمائنا إلى أمتنا التي رجحناها على كل شيء دنيوي، وبلادنا التي وُجدنا في صدرها ونشأنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال!"[١٩].

ومن أعظم تجليات المجاهدة أنها تُبين للإنسان هدفه وطريقه، وأنها تحميه من الذوبان الذاتي لأنها تدفعه يوما بعد يوم للحركية والفاعلية.

و"يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر. حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة.

وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات، ونفتح صدورنا أمام معضلات الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل، فإن لم نتحرك نحن فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغمًا عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا.

ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توترًا تامًا في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضحِّ منذ الآن بقلوبنا ورؤوسنا من أجل وجودنا في الغد، فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعًا.

إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو أن يكون وجودنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في

nesemat.com نسمات nesemat.com

الحاجة اليوم ماسة إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتنفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة.

عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعني الحفاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها).

ومن لا يرتبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفئ في روابط مطالبه الفردية والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأنانية القاتل، ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنسان عن الوجود وبقائه وحيدًا بذاته، هو: الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطرافه الجسمانية، وكل سلوان فارغ الفحوى وذي بعد وهمي، يرجع في جذوره إلى تلك الشهوات البدنية والصراعات الجسمانية.

إن دنيا رجل الحركية والفكر الحقيقي، وسعادته في دنياه، ذات تلونات عالمية الشمل مؤطرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا. ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنسان السعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق سعادة لها نهاية أو بداية؟

إن الحركية -من مقترب أفضل- هو احتضان الإنسان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات،

الذين لم يحسموا الأمر مع نفوسهم ولم يلجموها بالمراقبة الدائمة ولم يرغموا أنف الرياء ولم يسحقوا روح الافتخار تحت أقدامهم، ولم يُقلعوا عن الكبر. فأعمالهم ليست سوى مصدرٍ للقلاقل والاضطرابات.

nesemat.com نسمات nesemat.com

والتدقيق فيه، والسير من خلال المعابر التي فيه إلى اللانهاية، ثم إحلال دنياه في فلك غاية الخلقة الحقيقية مستخدمًا الطاقة الكلية لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبها من اللامتناهي"[٢٠].

من ثمار المجاهدة

قد يرى بعضنا أنَّ المجاهدة وسيلة نعبر بها إلى ما نريد ثم نزهد فيها ونتركها، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نثق بها أن المجاهدة منهج نحيا به ونحقق أحلامنا ووعود ربنا به ونلقى الله عليه.

فهو في آثاره يتجاوز حد النفس وتهذيبها ليصل إلى تهذيب الحضارات وتقويمها، لذلك فأنت تجد ثماره في بناء الفرد وتقوية الأمة وضبط سيرها الحضاري وسلوكها الأخلاقي.

"فإذا ما بلغ المؤمن هذا الشعور والمفهوم فلن تستغل أية قوة استعمارية المسلمين، ولا يؤخذ ضدهم قرار الحصار. وهذا ما يريده ﷻ من المؤمنين وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

فالذكر: يعني النصيحة، أما هنا فيأتي بمعنى التوراة، أو اللوح المحفوظ في معنى أشمل. وعلى هذا المعنى يمكن أن تُوضَّح الآية الكريمة كالآتي: إن الله ﷻ بعدما كتب في اللوح المحفوظ ما كتب، كتب في الكتب المرسلة إلى الأنبياء مستنسخات من اللوح المحفوظ وهي: إن عباد الله الصالحين يرثون الأرض، أي العباد الصالحون هم الوارثون الحقيقيون الدائمون في الأرض."[٢١].

"هناك طرق ووسائل عديدة للالتزام بالحق وإعلائه، وقيمة هذه الطرق ونفاستها مرتبطة بمدى احترامها للحق تعالى وبمدى خدمتها لأفكار ومبادئ الحقيقة. فإذا كان هناك بيت يُحلِّق بساكنيه في سماء المعرفة، وإذا كان هناك معبد يُنفَث في نفوس المجتمعين تحت قبته الأفكارُ التي تتجاوز هذه الحياة إلى الأبدية، وإذا كانت هناك مدرسة تستطيع ملء قلوب طلابها بالأمل وبالإيمان ... مثل هذه الأماكن تعد أماكن مباركة. أما إن قامت هذه الأماكن بمهمات ضد المهمات المذكورة سابقًا فهي مصايد مخيفة تقوم بقطع السبيل أمام الإنسان. والجمعيات وتشكيلات الأوقاف والأحزاب السياسية أمثلة في هذا الموضوع."[٢٢].

"ويستحيل على الذين يتركون خط المجاهدة والكفاح وينحرفون عن الخط الرجوع إلى مواقعهم الأولى عادة، ذلك لأنهم وهم يتقلبون في حمَّى الشعور بالذنب لا يرون أمامهم -في سبيل الدفاع عن أنفسهم- سوى سلوك نقد وتجريح إخوانهم في سلك الدعوة. فمقابل استغفار آدم عليه السلام عن زلته واستغفاره واعترافه بخطئه ورجوعه إلى موقعه السابق بقفزة واحدة، نرى قيام إبليس بتبرير عمله

والدفاع عن نفسه على الرغم من جرمه الكبير، فاستحق بذلك اللعنة الأبدية والخسران الأبدي."[٢٣]

وإذا سرنا طريقنا بلا روح للمجاهدة تنيرها وتجلي معالمها فإن المصير أن " تزول من القلوب بركة الوحي بنسبة زوال الرغبة في الجهاد والشوق إليه، وينمحي الشوق والعشق لإدراك المقاصد الإلهية، حيث القلوب باتت بعيدة وغريبة عن أن تكون مهبط الإلهام الرباني، فيحرمون من الأسرار الإلهية. فَنَهار هؤلاء مُظلم كَلَيلِهم، ذلك لأن الله ﷻ إنما يتفضل بالتجليات والفيوضات على قلوب الذين يتحملون أعباء الجهاد ويتعهدون إعلاء كلمة الله بما يوافق عظمته سبحانه، فلا يتحول المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء إلى أنقاض وخرائب"[٢٤].

صفات القائمين على المجاهدة في أنفسهم

قد لا أكون مبالغا إذا قلت: إن هذه الصفات هي ذاتها مقومات مشروع الحركية والفاعلية عند الإنسان، وأنها ذاتها مقومات المجاهدة الإيمانية، وأنها هي ذاتها مواصفات رجل الخدمة المضحي، وأنها ذاتها ما يمثل تشبع المضحي بمعاني الفتوة.

يقول الأستاذ: "تشبع القلب بالإيمان الكامل، وحسن معاملة الناس كلهم، ونذر العمر من أجل الآخرين، وأداء المرء مهامه دون أن يرى نفسه متميزًا، وبذل كل التضحيات في سبيل القيم المقدسة، وانتظار ما له أجل مسمى والصبر عليه صبرًا يبلغ حد الجنون كصبر الدجاجة حتى تفقس بيضها، والثورة على كل المساوئ والشرور مع مراعاة

كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شريحة من شرائح المجتمع. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي.

nesemat.com نسمات nesemat.com

العصر والزمان الذي نعيش فيه، ودون إهمال العقل والمنطق، والثبات وعدم الفزع من الأذى والمشقة التي تنتج عن كل ما سبق ذكره."[٢٥].

ومن أهم أهم هذه الصفات التي أقتبسها من جهد الأستاذ ما يلي:

١- الإيمان الكامل: يحدد القرآن الكريم "الإيمان بالله" غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة وبعد العشق والشوق وتلون الخطوط الروحانية. والإنسان مكلَّف ببناء عالمه الإيماني والفكري حينًا بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود، وحينًا بالتقاط شرائح من الوجود وتقيمها في ذاته. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء، إلّا في ضياء الإيمان ... وبعد الاطلاع يحيط فهمًا بالوجود في أبعاده الذاتية.

٢- العشق: وهو أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد. إن من يعمِّر قلبه ويجهزه بالإيمان بالله وبمعرفته يحسُّ حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحسُّ فيعيش عمره كله وسط حالات المدِّ والجزر للعشق والمواجد

والجذبات والانجذابات والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جميعًا. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق، في فهم جديد وطري لتحقيق انبعاث عظيم.

٣- التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشعور: هذا التوجه الذي يشكل جوابًا عن تمايل البشر وحَيْده في انسياق البشرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخلاص الإنساني.

٤- التدقيق والضبط: ويتم ذلك بإعادة النظر في ملاحظاته عن الكائنات والإنسان والحياة، وتمييز الصحيح من الخطأ فيها بميزان دقيق.

٥- حرية التفكير: بمعنى أن يكون حرًّا في التفكير وموقِّرًا لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمق مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح على أسرار الذات. من العسير أن نصف بالإنسان من لم ينطلق في ذاك العمق ولم يلج من ذلك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نتلوى ألمًا في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا أثقالهم أنواعًا وألوانًا على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا ... فدع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسأل إن كان في قدرة الإنسان البقاء بملكاته ومواهبه الإنسانية في هذا الوسط؟ فإن حماية المستوى الإنساني البسيط والخام في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمقون إلى العُلى بروح التجديد ويمدون البصر إلى اللانهايات؟

٦- الصدر المتسع: فالحاجة اليوم ماسة إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر، وتنفتح على العلم والبحث العلمي، وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء. تتجلى في الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي.

٧- التفكير الرياضي: فالعلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات والجمع بين هذا العلم وقوانينه الفكرية، ومصاحبتها دائمًا في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود.يصاحبها دائمًا من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهمًا شاملًا؛ وأعني الفكر الصوفي والبحث العلمي.

٨- الفكر الفني: أَحجَمَ الأستاذ كولن عن الكلام عنها واكتفى بقوله: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا".

ما يجب على إنساننا اليوم

"إن إنساننا في الوقت الحاضر، إن كان يريد أن يجاهد في سبيل الله حق جهاده وبما يرضيه -وهذا ما يجب عليه- عليه أن يراقب نفسه مراقبة جادة ويحاسب رغباته حسابًا عسيرًا، في الوقت الذي يزاول نشر الحق وتبليغ الحقيقة للآخرين. وإلا

فهناك احتمال قوي أن يخادع نفسه، وعند ذلك لا ينتفع بعمله ولا ينتفع به غيره.

المجاهد يحمل من الإخلاص ما يجعله يختار الله ﷻ على كل ما سواه، فهو إنسان خالص مخلص، ذو قلب حيّ. وبذلك يكون الجهاد مثمرًا وباقيًا. فهو بدلًا من أن يملأ عقول الآخرين بأكوام من الغث والسمين من المعلومات، عليه أن يُقرَّ في قلوبهم وعقولهم الإخلاص وحسن النية وروح المحاسبة الداخلية والشعور بأن يكونوا رجال القلب.

نعم، الجهاد موازنة بين فتح الداخل والخارج. ففيه بلوغ الكمال ودفع الآخرين إليه. فبلوغ الإنسان ذاته جهاد أكبر ودفعه الآخرين إلى الكمال جهاد أصغر. فإذا ما افترق أحدهما عن الآخر ينتفي معنى الجهاد عن عمله. فيتولد من أحدهما الذل والمسكنة ومن الآخر العنف والإرهاب. ونحن ننتظر ولادة روح محمدي، وهذا لا يمكن إلا باتباع الرسول ﷺ في هذا الأمر كما في كل أمر.

فما أسعد أولئك الذين يبحثون عن وسائل لإنقاذ غيرهم مثلما يبحثون عنها لإنقاذ أنفسهم، وما أسعد الذين لا ينسون أنفسهم في خضم العمل لإنقاذ غيرهم.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة؛ مهما بذلنا من جهد في سبيل إنقاذ الإنسانية". ■

الهوامش

(١) ٢٨، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر-مصر، ط٨، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

(٢) ٢٧٢، مفاتح النور، للأستاذ فريد الأنصاري، دار النيل للنشر-مصر، ط٢، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٣) ٢٩، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن.

(٤) ٢٩، إعلاء كلمة الله أو الجهاد، فتح الله كولن، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للنشر-مصر، ط١، ٢٠٠١م.

(٥) ٢٢، المصدر السابق.

(٦) ٢٣، المصدر السابق.

(٧) ٢٣، المصدر السابق.

(٨) ٢٣، المصدر السابق.

(٩) ٢٤، المصدر السابق.

(١٠) ٣٥/٣٤، المصدر السابق.

(١١) ١٦١، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن.

(١٢) ٣٤٠/٣٣٩، أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر-مصر، ط٤.

(١٣) ١٧٦، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للنشر-مصر، ط٢، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

(١٤) ١٣٠/١٢٩، المصدر السابق.

(١٥) ٣٣٨/ ٣٣٩، فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر -مصر، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(١٦) ١٨، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للنشر -مصر، ط٤، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

(١٧) ٤٥/٤٣، إعلاء كلمة الله أو الجهاد، فتح الله كولن.

(١٨) ٢٤/ ٢٥، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

(١٩) ٢٨، المصدر السابق.

(٢٠) ٥٧/ ٥٨، المصدر السابق.

(٢١) ٩٤/ ٩٥، إعلاء كلمة الله أو الجهاد، فتح الله كولن.

(٢٢) ٢٢/ ٢٣، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن.

(٢٣) ٢٦/٢٥، المصدر السابق.

(٢٤) ٨٢، إعلاء كلمة الله أو الجهاد، فتح الله كولن.

(٢٥) ٣٧، شد الرحال لغاية سامية، فتح الله كولن، ترجمة عبدالله محمد عنتر وعبدالرازق أحمد، دار النيل للنشر - مصر، ط ٢٠١٤م.

(٢٦) ٤٠/٣٤، ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

(٢٧) ٤٧، إعلاء كلمة الله أو الجهاد، فتح الله كولن.

"خُوجَه أفندي"
قوة المثال في النموذج المجتمعي

سمير بودينار

أ.د. سمير بودينار، أكاديمي مغربي، عمل أستاذًا جامعيًّا متخصصًا في مناهج وقضايا العلوم الاجتماعية، يتركز اهتمامه كباحث في مجالات الالتقاء بين القيم والنظريات الاجتماعية مع الحقلين الديني والسياسي. بدا اهتمامه البحثي بفكر الأستاذ فتح الله غولن والنموذج المجتمعي لحركة الخدمة خلال السنوات الماضية.
يشغل حاليًا رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة بالمغرب.

الأستاذ فتح الله كولن شخصية علمية تربوية مرموقة بين رموز الإصلاح في عالم المسلمين اليوم، استطاعت هذه الشخصية أن تنتج نموذجًا كامنة خصائصه في مدرسة تجديدية للنهوض والتغيير واستعادة المبادرة الحضارية.

وفي هذا المقال محاولة للوقوف عند ذلك النموذج كما تأسس في اجتهادات وأفكار الأستاذ كولن وكما تبلور في الواقع -ولا يزال- من خلال مشروع الخدمة الذي يراه الكاتب نموذجًا حضاريًّا ذا هوية مجتمعية. وقد بدا للكاتب أن تناول هذا النموذج بوصفه نموذجًا مجتمعيًّا، لا يتجلى في أبعاده الكاملة إلا من خلال المقارنة بين رؤيتين مركبتين للعالم وللتغيير فيه. وهما الرؤيتان اللتان تجملان أكثر محاولات التغيير والإصلاح الجادة في عالم المسلمين اليوم. وأمَلَ الكاتب في نهاية مقاله أن تكون ثمرة كلماته هدية لكثير من ذوي النهى، المعانين واقعًا أليمًا؛ ثمرة قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور والفعل من مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق.

عندما يكتب المرء عن الأستاذ فتح الله كولن، فهو يكتب عن الشخصية العلمية والتربوية المرموقة بين رموز الإصلاح في عالم المسلمين اليوم، لكن الأهم في تلك الشخصية ربما أنها استطاعت أن تنتج نموذجًا كامنة خصائصه في مدرسة تجديدية للنهوض والتغيير واستعادة المبادرة الحضارية.

معلوم أننا نكابد في عالم المسلمين مخاض النهوض وأسئلته الحارقة منذ أزيد من قرنين من الزمان، وهي أسئلة متعددة تتصل بالطريق الذي يخرج بمجتمعاتنا من التخلف ويمكنها من أسباب النهوض. غير أن جوهر تلك الأسئلة جميعًا، هو قضية مركزية جامعة تتلخص في السبيل إلى إنتاج نموذج حضاري خاص بديل. وشرط هذا النموذج المنشود، هو تحقيقه فاعلية الإنسان في أداء مهامه الكبرى في عالمه، تلك التي أجملها الوحي في أمانات الوراثة والاستخلاف والعمران.

والذي يعنينا في هذا المقال، هو محاولة الوقوف عند ذلك النموذج كما تأسس في اجتهادات وأفكار "خُوجَه أفندي" اللقب التركي للأستاذ كولن، الذي يعني "السيد الأستاذ"، وكما تبلور في الواقع -ولا يزال- من خلال مشروع "الخدمة". والذي نزعم أنه نموذج حضاري ذو هوية مجتمعية، وهو أمر يقتضي توضيحات أولية حول المراد بهذا النموذج وعلاقته بنماذج أخرى مغايرة.

أولاً: ليس الحديث عن نموذج حضاري مجتمعي هنا، مقابلاً للنموذج السياسي للإصلاح؛ لأن النموذج المجتمعي معني بالشأن العام عنايته بالشأن الخاص بالإنسان الفرد بناء وتربية وإعدادًا، وحاضر في المجال العام على أكثر من مستوى، مما يُنشئ مساحات التقاء وتقاطع بالضرورة بين النموذجين.

ثانيًا: ربما كان النموذج الأقرب إلى كونه مقابلاً للنموذج المجتمعي، هو "نموذج السلطة السياسية"، أي نموذج التغيير المتمركز حول السلطة السياسية، تنافسًا عليها واستخدامًا لأدواتها. وهو نموذج مخالف للنموذج المعرفي الحضاري الإسلامي للسياسية في معناها الأشمل بوصفها منظومة آليات للإصلاح، أي "القيام على الأمر بما يصلحه" كما يقرر العلامة ابن خلدون.

ومن المهم في هذا السياق، التأكيد على أن الأمر يتعلق -بالفعل- بنموذج كامل في مقابل نموذج كامل آخر، لكل منهما فلسفة ورؤية للتغيير، وأهداف ووسائل وإنْ اتحدا في الغاية النهائية التي ينشدانها؛ وهي تحقيق مقتضيات الاستخلاف في الأرض وعمرانها من خلال بعث النموذج الحضاري المؤسس على هدي الوحي، لكن الاتحاد في الغاية لا ينبغي أبدًا أن يصرف النظر عن أهمية النظر بعمق في النموذجين ورؤيتيهما، وفحص مستوى وعيهما بالحقائق الماثلة وفعاليتهما في تحقيق ما ينشدان من غاية، والوسائل التي

النموذج الحضاري المجتمعي يعيد الاعتبار -بدأبٍ وإصرارٍ- لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون.

nesemat.com نسمات nesemat.com

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ثمرة هذه الكلمات هدية لكثير من ذوي النهى المعانين واقعًا أليمًا، قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور، والفعل من مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق.

يستخدمانها من حيث الجدوى والآثار على الواقع.

لكن ليس معنى ذلك أننا نقدم هنا نقدًا لنموذج السلطة السياسية الحديثة والمعاصرة، وقوامه الآلية والقواعد الديمقراطية، فهو وإن كان قد تعرض لنقد واسع في الكتابات الفلسفية والسياسية الأحدث -ترد بعض الإشارات إليه دون أن يكون هذا مجال التفصيل فيه- إلا أن النقد مؤسس على التجاوز وهذا رهن بالاستيعاب؛ وهو ما لم يتم إلى الآن في مجتمعاتنا بالنسبة لآليات النموذج السياسي الحديث وتطبيقاتها المتعددة.

١- نموذجان للتغيير

يسعى نموذج التغيير الحضاري أو المجتمعي في رؤية "كولن"، إلى تحرير إرادة المجتمع وإكساب كافة وحداته الفعالية المطلوبة، لتتحرك ذاتيًا نحو بناء المجتمع وشهود الأمة ورشاد الإنسانية، بمعنى أنه نموذج التغيير المنطلق من قاعدة المجتمع إلى قمته، مرورًا بكافة وحدات المجتمع بلا استثناء. وواضح في ضوء هذا النموذج -كما تجلى واقعيًا في منظومة مشاريع ومؤسسات "الخدمة" منذ أزيد من أربعة عقود- أن منطلقه هو "بناء الإنسان" وإكسابه المواصفات اللازمة لوراثة الأرض، وهو هدف يفضي إلى الارتقاء به عبر نقلات نوعية، وتحرير إرادته، ومن ثم تحرير إرادة المجتمع كله، وإكسابه القدرة على أخذ زمام المبادرة بشكل يحقق أكبر قدر مستطاع من الاستقلالية عن أي إرادة، سواء كانت إرادة سلطة حاكمة -مهما كان لونها أو توجهها- أو قوة تأثير داخلية أو خارجية، فيعيد بذلك سلطة الدولة إلى حجمها الحقيقي الذي كان عليه قبل أن يتمدد باطراد عبر الزمن؛ مما يعني أن تسير السلطة إلى جانب المجتمع، ميسرة أمامه سبل الفعل، ومذللة ما يواجهه من صعوبات، دون أدنى سعي للحلول محله في أداء وظائف لا يمكن أداؤها أصلاً، ولا تتسع بنيتها والتزاماتها وهامش حركتها لما تقتضيه تلك الأهداف من تحرر إرادة ومثال أخلاقي وطاقة فعل ومرونة حركة.

وليس معنى ذلك أن هذا النموذج لا يملك تصورًا لتدبير الشأن العام بما في ذلك السياسي، بل إنه من خلال رصيد الحركة في الواقع، يعيد تعريف العمل السياسي، ليخرج به من إسار الإطار الحزبي ومقتضياته التنافسية على سلطة الحكم، فيجعله قوة فعل عام قوامها النموذج الإنساني المؤهل والفاعل، والمجتمع الحي والمتحرك والمبادر، دون أن يظل أسير الهدف الحزبي المحدود في وسائل الممارسة السياسية التقليدية. بل إن هذا النموذج، هو استثمار إيجابي للوظائف الأهم والأشد تأثيرًا من بين تلك التي تقوم عليها علاقات الدولة الحديثة بالمواطن، من قبيل التعليم والاقتصاد والإعلام.

أما نموذج السلطة السياسية فقائم على مبدأ

التغيير من خلال سلطة مؤسسة الحكم، أي امتلاك أداة السلطة السياسية طريقًا للتغيير. لذا فإنه من المهم الإشارة إلى أنَّ ما نعانيه من أزمات حالية، مرتبطة أساسًا بسلامة الأداة الأساسية للتغيير وإمكانية تحقيقه بالاعتماد عليها، ذلك أنه فضلاً عن المحدودية الواضحة للسلطة السياسية في عملية تغيير تستهدف غايات كبرى ذات طابع حضاري، مؤسسة على القيم الشاملة للوحي؛ فإن المنظور السياسي يواجه معضلة الدولة الحديثة التي يتخذها مركبًا لبلوغ غايته مع ما هو معروف من الأزمات المستحكمة التي تئن تحت وطأتها هذه الدولة على الإطلاق، سواء من حيث جوهرها العنيف، أو نزوعها التحكمي للسيطرة على مساحة الفعل على حساب المجتمع، أو صناعتها لآليات استبداد جديدة باسم الأغلبية والديمقراطية وشرعية الصندوق، أو ضربها لروح التوافق ومفهوم الجماعة، مع ما في ذلك من آفات التحكم اللاأخلاقي لمؤسسة الدولة نفسها وموازينها الداخلية وإكراهاتها بالأفراد ومجموعات الحكم مهما كانت مستوياتهم الفردية أو توجهاتهم الفكرية أو الأخلاقية الأصلية، نظرًا للطبيعة التحكمية لمؤسسة الدولة الحديثة نفسها، التي تكاد في بعض الأحيان تحكم الجالس على كرسيها بدل العكس مما يتوقعه الناس من الحاكم عادة، ويعلقونه على وجوده من آمال عراض، مستسلمين لذات الفكرة التبسيطية عن إمكانية التغيير الشامل بالأداة المفردة أو الفرد القائد المخلّص.

وغني عن التذكير هنا، أن السلطة السياسية في الدولة الحديثة، ليست قيامًا على الأمر بما يصلحه،

nesemat.com نسمات nesemat.com

سلامة المجتمع وأمانه الداخلي مقصد تقتضيه رؤية التغيير في النموذج الحضاري المجتمعي، فالمجتمع مقصد التغيير ومادته الأساس، والحفاظ عليه أولوية تقتضي التضحية بالمنجز الخاص أو المرحلي.

لأسباب ترتبط بظروف تَشَكُّل هذه الدولة، وامتداد السلطة السياسية العضوي من حقل العنف أو احتكاره على الأقل كما يقول "ماكس فيبر"، وغيرها... مما يجعل أي إسقاط تاريخي على التجربة الإسلامية مثلاً في مجال تدبير السلطة السياسية المعاصرة، خاطئًا من الأساس، لأنه قياس مع وجود فوارق نوعية كبرى.

٢- قوة المثال الإنساني

يبدو نموذج السلطة السياسية الحالي -الابن الشرعي للدولة الحديثة ونمطها في التحكم بغض النظر عن أيديولوجيته- قائمًا على منظور لمنظومة العلاقات داخل المجتمع مغاير تمامًا للمنظور الحضاري المجتمعي. فهو ينظر إلى القاعدة الاجتماعية العريضة من الناس بوصفها مجالاً للتوجيه، وأن مهمة الفاعل في هذا النموذج هو قيادتها وتوجيهها. وهي مهمة لا تتحقق إلا من خلال تركيز علاقات الإعجاب (الكاريزما)، بل الانبهار بين الحاكم (أو صاحب السلطة السياسية) وبين الناس، فلا بد حينئذٍ من مد هذه العلاقة باستمرار بوقود من الخطاب الحماسي، وصناعة الصورة، والتمركز حول الشخصية القيادية؛ وهذه هي مهمات عمليات التواصل السياسي الذي يحيل ذلك الإعجاب إلى

nesemat.com نسمات nesemat.com

إننا نكابد في عالم المسلمين مخاض النهوض وأسئلته الحارقة منذ أزيد من قرنين من الزمان، وهي أسئلة متعددة تتصل بالطريق الذي يخرج بمجتمعاتنا من التخلف ويمكنها من أسباب النهوض.

تفويض مطلق. وتزداد هذه السلطة في التوجيه، من خلال وسائط التأثير في عصرنا، الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع، عصر الجماهير "غوستاف لوبون"، أو عصر الجماهير الغفيرة "جلال أمين"، بعد أن تسيدت وسائط الاتصال عوامل التوجيه وصياغة القناعات وتشكيل الرأي العام.

ولأن الغاية في النموذج المجتمعي لا تنفصل عن وسيلة التغيير وأداته التي يتبوأ الإنسان فيها منزلة الصدارة، فإن مقتضاه أن تكون شبكة علاقاته قائمة على معان أكثر عمقًا وأقوى تأثيرًا في بناء دافعية الإنسان نحو التغيير المنشود، هكذا تتصدر قيم التأسي والاقتداء بالرموز العلمية والمجتمعية في نسق تراحمي، والبذل في سبيل الفكرة إلى أقصى الحدود في كل مكان ومجال.

إن المقصود بالمثال الإنساني هنا، هو نوعية العنصر الذي يحرك هذه المنظومة فتعيد إنتاجه على امتداد الأمكنة والبيئات والظروف؛ المعلمون، المهاجرون، والمضحون بمصائرهم الشخصية والأسرية والمهنية، الأساتذة المتفانون في رسالتهم حد التماهي، الرجال والنساء الباذلون من أموالهم في تسابق عجيب تشهد عليه "مجالس الهمة" لبناء هذه المدارس والجامعات والمؤسسات ورعايتها حيثما كانت في العالم، خريجوها من الطلاب الذين يعيدون إنتاج هذه الدائرة الصالحة من الخدمة والبذل، هؤلاء الذين يشكلون جميعًا "جزر سلام" حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان المثال، ومعيار دقيق في الحكم على قوة النموذج الكامن في المنظومة المؤسسية، الذي أنتج هذه التجربة الإنسانية الحية في عالمنا.

يمكن حقًّا لنموذج فكري أو تربوي أن يقدم نفسه للعالم اليوم معتمدًا على مؤشر قوي من مؤشرات الجودة، ويمكن لهذا النموذج أن يعرف الانتشار والقبول سعيًا للإفادة الجزئية من هذا المؤشر. وليس صعبًا أن نجد أمثلة عديدة على ذلك في زمن الإنتاج والاقتصاد والمعرفة المعولمة، لكن الصعب حقًّا هو أن يكون التحدي بالمثال الإنساني. أن تكون علامتك المسجلة موضع الثقة والفعالية إنسانًا مؤهلاً تتحدى به ظروفًا معقدة في بيئات صعبة عبر العالم، واثقًا من نجاعة مسلكه القيمي والتربوي، وكفاءته في التعامل معها في كل مكان.

٣- معادلة الوعي التاريخي والرؤية المستقبلية

لم تكن هذه الروابط بما ينسجها من قيم ومعان لتؤتي أكلها فعالية تربوية ونماءً اجتماعيًّا وتغيرًا في أعماق المجتمع، وعلى صفحة التاريخ الممتد في النموذج المجتمعي دون وعي تاريخي حاد وموجِّه، فليس غريبًا أن ترى الأستاذ "كولن" يبكي في درس من دروسه أو موعظة من مواعظه الدائمة، متأثرًا بحدث تاريخي وهو يقف عنده مفسرًا، ولا أن تسمع نبرات

الحـسرة في صوته وهو يحلل موقفًا تاريخيًّا، أو تقرأ له في كتبه استدراكًا على اختيار ما في لحظة تاريخية سـالفة... سر ذلك هو الوعـي التاريخي الذي يؤكد عليه، والـذي يتخطى حواجز الزمـن، بل يتجه إلى بعدي الزمن بنفس القوة والدقة، إلى الماضي المجسِّد سـياق الواقع وجذوره ومحدداته، وإلى المسـتقبل الكامن في رحم الغيب مستودعًا للأهداف والغايات. الحقيقـة أن الواقـع وفق ذلك النمـوذج إن هو إلا مستقبل نُحيله ماضيًا بقوانين السعي في الأرض، ومن خلال إرادة الإنسان الواعية.

وإذا كان القائلون يقدمون الواقع تكرارًا للتاريخ يستحيل معه الإنسان إلى كتلة منفعلة، حين يرددون أن "التاريخ يعيد نفسه"، فإن الأستاذ كولن ينبهنا -بقولته "التاريخ يشبه نفسه"- إلى القوانين والسنن التي تتحد فيها وقائع التاريخ فتتشابه، دون أن تتجاوز أهميتها الإنسان أو الخليفة وسعيه بوصفه مسخر السنن، ومحور الكون، والفاعل الرئيس في مساحة التاريخ.

أما في المستقبل، البعد الثاني في خط الزمن الإنساني والاجتماعي فتوسيع لمدى الرؤية الإستراتيجية الحاكمة للأهداف الكامنة في كافة البرامج والمراحل وهنا، حيث مفهومان مختلفان للمرحلية، تكمن أولى تجليات التقاطع بين النموذج المجتمعي ونموذج السلطة السياسية.

تعني المرحلية وفق النموذج المجتمعي، أن تكون الرؤية الإستراتيجية المتصلة بالغايات الحضارية الكبرى واضحة شديدة الوضوح، ثم تتعلق الأهداف المرحلية بها، وتدور البرامج والمهام والمناشط المختلفة حول

nesemat.com نسمات nesemat.com

يسعى نموذج التغيير الحضاري في رؤية "كولن" إلى تحرير إرادة المجتمع وإكساب وحداته الفعالية المطلوبة، لتتحرك ذاتيًّا نحو بناء المجتمع وشهود الأمة ورشاد الإنسانية.

تحقيق هذه الأهداف، بما يحقق الرؤية الإستراتيجية الكلية تدرّجًا ولا ينقضها أو يصادمها أبدًا. صحيح أنه لا يمكن تحقيق تلك الأهداف كافة، ولا تنزيلها على الواقع إلا في إطار الإمكان وظروفه وشروطه، لكن الأهم هو أن يظل السعي محكومًا بالغاية، منقادًا إلى تحقيق الأهداف حسب الإمكان في غير تثاقل يقصر بالسعي عن بلوغها، ولا تسرع يغفل الشرط الواقعي أو يقفز عليه. غير أن نموذجًا بهذا المستوى من الانضباط للشرط التاريخي، سواء في مداه الزماني ماضيًا ومستقبلاً أو في قانونه السنني واقعًا، ليس يسير التحقق، إذ ينضاف إلى المثال الإنساني في انتمائه وعلاقاته، الترفع الواعي والمنضبط عن الأهداف المرحلية المعلنة، مما لا علاقة له بالرؤية منطلقًا والغاية محددًا. ولعل هذا هو مكمن السبب فيما يبدو من مظاهر الاصطدام بين هذين النوعين من الأهداف.

فكثيرة هي الأهداف التي وإن لم يعوزها حسن الدافعية وسلامة القصد، فإنها تخضع لمؤثرات ظرفية من قبيل الموجات الاجتماعية وعواصف الجمهور، وردود الأفعال والحضور الطاغي في وسائط الاتصال. الفرق هنا ليس في مدى الاستيعاب للرؤية والصبر على مراحلها، بل في الوتيرة الخاصة بكلا النموذجين على خط الواقع الإنساني وامتداداته الحاضرة.

نموذج التغيير المتمركز حول السلطة السياسية، تنافسًا واستخدامًا لأدواتها. مخالف للنموذج المعرفي الحضاري الإسلامي للسياسية في معناها الأشمل بوصفها منظومة آليات للإصلاح، أي "القيام على الأمر بما يصلحه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

فكيف لوتيرة مقيدة إلى زمن السلطة السياسية المتسارع والقصير المدى، المنضبطة لمواعيده واستحقاقاته، المحكومة باتجاهات الجماهير وسلطة الرأي العام، أن تصبر على أهداف بسعة مواجهة الأعداء المزمنين؛ الجهل، والفقر، والفرقة.

فالنموذج الحضاري المجتمعي يعيد الاعتبار -بدأبٍ وإصرارٍ- لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع. لذا نجد أن أهدافًا كبرى بسعة نشر العلم مقابلاً للجهل، وتحقيق الكفاية مقابلاً للفقر، وإرساء أسس الحوار والتفاهم مقابلاً للفرقة والصراع، ظلت أهدافًا قارة لهذا النموذج، بل هي المؤهلة وحدها لتوجيه مساره في المستقبل المنظور كما يبدو، لأن المقاصد الكلية الحاكمة لها والكامنة في النموذج، واضحة ثابتة.

بكلمة؛ إذا كان نموذج السلطة السياسية معنيًّا بالفعل الآني ومدى تأثيره في رأي الجمهور، فإن النموذج المجتمعي مرتبط بمحددات ذلك الفعل وشروطه التاريخية والحضارية والمجتمعية، بما تقتضيه من تغيّرات دقيقة ومعقدة في منظومات القيم، ونمط التربية، والسلوك ومستويات المعرفة، ومؤشرات الفعالية الاجتماعية وتركيبة مؤسسات الاجتماع.

وسواء تعلق الأمر بشبكة علاقاته الداخلة أو مدى إدراكه التاريخي والحضاري وتدبيره لزمنه الخاص، فإن نموذج السلطة السياسية يظل غير قادر على تأسيس الفعالية المجتمعية في مستواها الحضاري بعيد المدى، والتي هي شرط الإصلاح العام وهو المعنى المجتمعي للسياسة، أو أنه على الأقل لا يتسع لها.

٤- صراع النماذج وصياغة التمثلات

من التجليات الأليمة لمفارقة الغايات ومرحليتها، أن النموذج المجتمعي حين لا يولي لأداة السلطة السياسية "وليس العمل العام والشأن السياسي"، ولا لهوية الماسك بها، أهميةً محددة لمساره العام، كتجلٍّ لرؤية متسقة مع وعيه بخصائص الدولة الحديثة التي لم تُبقِ للماسك بزمام السلطة السياسية الدورَ الأساس في الإصلاح العام بمعناه الأعمق والأبقى؛ فإن البعض يعد هذا موقفًا من هوية المجتمع وتعبيراته في السلطة، مع أن بين الأمر "بين هوية المجتمع وهوية السلطة" اختلافًا واضحًا، بل تقابلاً من حيث طبيعة محددات كل منهما. فالمجتمع تعبير عن الأصل الثابت الذي يمثل الاستمرارية، بينما السلطة تجسيد للمرحلي الآني، وليس المهم في ما يصدر عنها من فعل -آني بطبيعته كذلك- أن يكون صائبًا في ذاته أو

بمقاييسه دائمة التغيّر فحسب، بل الأهم أنه إن لم يخدم مقومات الاستمرارية وينميها، فلا أقل من أن ينسجم معها فلا يصادمها. والحقيقة أن ربط الهوية المجتمعية التي صاغها الإسلام في الأساس، بنموذج السلطة السياسية يثير آليات المقارنة المباشرة بين مكونين، أحدهما ثابت راسخ، والآخر مؤقت دائم التحول. وهو ربط سيؤدي إلى الإضرار بهما معًا؛ بالإسلام الذي هو لحمة المجتمع وسداه الراسخين بربطه بنموذج متحول، وبالنموذج ذاته بتحميله عبأ لا قِبَل له به، ومسؤولية لا طاقة له بها مهما ادعى أهليته لتمثيلها في مرحلة ما، لأنها في الواقع أعظم من أن تستوعبها قدراته.

ومن الواجب في هذا المقام، تأكيد مبدأ واضح في ذاته أولاً وفي علاقاته بالسياقات الراهنة كذلك، وهو أن سلامة المجتمع وأمانه الداخلي مقصد تقتضيه رؤية التغيير في النموذج الحضاري المجتمعي اقتضاء ملحًا، ذلك أن هذا النموذج يولي الأهمية الشديدة للمجتمع باعتباره مقصد التغيير ومادته الأساس، وما يستتبعه ذلك من أهمية الاستقرار والسلم الاجتماعيين والحفاظ عليهما في هذه الرؤية، واعتبار ذلك أولوية تقتضي التضحية بالمنجز الخاص أو المرحلي، كما هو واضح في أمثلة حية من تجربتها لا يتسع المجال للتفصيل فيها.

ولأن المنح تأتي دومًا في طي المحن، فإن الحال الراهنة فرصة هامة لإدراك أدق لمعالم النموذجين وأهم الفروق المميزة لكل منهما، فالتمايزات تكون آنئذٍ أكثر وضوحًا، وأظهر في لحظات الأزمة، بما يصاحبها من ردود فعل وتمثلات جماعية ومواقف ينتجها كلا النموذجين في تفاعله مع الواقع.

ولعلنا نقف عند أهم الدروس المتأتية إلى الآن، من واقع تلك الأزمة التي آن لها أن تُقرأ بأعمق من المستوى الظاهر الذي تطغى فيه الشخوص والأحداث وردود الأفعال... خاصة بالنسبة لنموذج حي وفاعل استطاع أن ينجز على الصعيد الإنساني في المجالات الأدق المتصلة ببناء الإنسان من خلال التربية والتعليم، وبحفظ حيوية بنيات المجتمع، بوصفها ضرورة حاسمة للحفاظ عليه، وضمان أكبر قدر من الاستقلالية له، في تجربة تعيد تعريف السياسة والعمل العام، بما يتجاوز سقف التنافس على السلطة.

ويبدو أن تناول النموذج الإصلاحي للأستاذ "فتح الله كولن"، بوصفه نموذجًا مجتمعيًا، لا يتجلى في أبعاده الكاملة إلا من خلال المقارنة بين رؤيتين مركبتين للعالم وللتغيير فيه، ومقومات هذا التغيير ومداه وأولوياته. وهما الرؤيتان اللتان تجملان أكثر محاولات التغيير والإصلاح الجادة في عالم المسلمين اليوم، وهذا هو مكمن الأهمية في مجمل ما نشهده في عالمنا خلال هذه المرحلة من تجليات. أما الأمل من هذه الكلمات، فهو أن تكون ثمرتها هدية لكثير من ذوي النهى، المعانين واقعًا أليمًا؛ ثمرة قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور، والفعل من مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق. ■

الخدمة
بين الرؤية والطاقة والحركة

محمد جكيب

أ.د. محمد جكيب، أستاذ بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، حصل على دكتوراه الدولة في الآداب سنة ٢٠٠٢م. عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنة ١٩٩٤م. عضو مؤسس لمنتدى الحوار الأدبي. مؤلف كتاب "أشواق النهضة والانبعاث.. قراءة في مشروع الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي".
شارك في عديد من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية داخل المغرب وخارجه.

ما الإضافة التي يقدمها مشروع الخدمة فكريًا وعمليًا؟ كيف قدمت مدرسة الخدمة حلولا عملية للمشاكل الكبرى التي تعاني منها الأمة؟ عندما يعود الإنسان إلى ذاته، ويسأل إلى أين نتجه؟ البعض يوجههم إلى ساحات الموت، فالجهاد يتحول إلى عملية قتل وموت، لكن عندما تسأل هذا السؤال للأستاذ أو مدرسة الأستاذ ما الجواب الذي يأتيك؟ تأثير الكلمة ليس سهلاً، كيف استطاعت كلمات الأستاذ أن تحول الأفكار إلى مشاريع؟ هناك تساؤل حول منهج الأستاذ كولن في التحرك؟ لماذا لم يؤسس حزبا؟ لماذا لم يؤسس طريقة صوفية؟ ما تصور الأستاذ في الإصلاح على النحو الذي يسير عليه الآن؟ الدولة أم المجتمع؟ هل المجتمع المدني هذا بديل للدولة؟ خطر على الدولة؟ ما المقاربة التي يقدمها الأستاذ في هذا الصدد؟ إنسان الخدمة ما هي أهم سماته؟ مشروع الخدمة والأستاذ، كيف نصفهما بجمل قصيرة؟

كل هذه الأسئلة وغيرها طرحها الأستاذ نوزاد صواش على أستاذين أكاديميين بارزين في هذا الحوار.

نوزاد صواش: الأمة تعاني اليوم من مشاكل كبيرة، مشاكل اليوم سببُها مشاكل لم تحل البارحة. وإذا لم نحلها اليوم، فستبقى مشاكل الغد. وستحاسبنا أجيال الغد قائلة: "لماذا لم تحلوا هذه المشاكل؟ لماذا صدرتم لنا مشاكلكم ولم تحلُّوها؟ حضراتكم تتابعون حركات الإصلاح الموجودة في العالم العربي والإسلامي وتدرسونها، فأنتم خبراء في هذا الميدان. في العقود الأخيرة برز اسم الأستاذ فتح الله كولن ومشروع الخدمة على الساحة، ليس محليًا فحسب، بل في العالم أجمع. تجربة "الخدمة" التي نشاهد تجلياتها الميدانية في مواقع عديدة من العالم تبدو خارج المألوف وملهمة بما تطرحه من أفكار ومشاريع. برأيكم ما الإضافة التي يقدمها هذا المشروع فكريًا وعمليًا؟

سمير بودينار: يمكننا أن نقول إن الرؤية الفكرية والمشروع العملي الذي قدمه -ولا زال يقدمه- الأستاذ فتح الله كولن سواء من خلال تراثه الفكري المكتوب أو نموذجه العملي الممارَس اليوم على امتداد أقطار كثيرة من العالم مشروع مهم غاية الأهمية في اتجاهين أساسيين على الأقل.

أولهما: أننا اليوم نعيش مشكلات معقدة للغاية، معقدة على مستوى تراكمها التاريخي، لأن بعضها يأخذ برقاب بعض، ولأن بعضها يفضي إلى البعض الآخر. وهي مشكلات معقدة في نفسها، لأنها تحيل إلى مداخل متعددة الجوانب، وهي مركبة مع غيرها. فهي تحتاج إلى مقاربة فكرية مركبة، إذ لم تعد الأجوبة

nesemat.com نسمات nesemat.com

ربما لا توجد تجربة كتجربة الخدمة مفتحة أبوابها للجميع، يأتيها زوار من كل أنحاء العالم، من كل الثقافات.والأديان، تفتح لهم أبواب مؤسساتها على مصاريعها.. تعالوا انظروا اسألوا، قيّموا.

البسيطة أو التبسيطية أو المتسرعة أو العاطفية أو المباشرة تُسعِف في الإجابة على الأسئلة المركبة التي نعيشها اليوم. هذه المشكلات تحتاج إلى مشروع فكري متكامل على امتداد رقعة الفكر ومساحات الفعل الإنساني، وملكات الإنسان وشروطه الاجتماعية وآفاقه الإنسانية والحضارية إلى غير ذلك. فالبعد الأول من أبعاد أهمية المشروع الفكري للأستاذ فتح الله كولن أنه يقدم مشروعًا فكريًا مركبًا يتعامل مع مشكلات معيّنة وقضايا محددة، يقدم رؤية حضارية واسعة.

نوزاد صواش: هل تعتقد أن هناك وعيًا بطبيعة الإشكال الذي نعيشه وإجابة تناسب هذا الإشكال؟

سمير بودينار: نعم، هنا تكمن أهمية رؤية الأستاذ كولن، لأنها عبارة عن جواب مركب لسؤال أو أسئلة معقدة. فأنت عندما ترى بعض ملامح المشروع الفكري في العمق الحضاري مثلاً للمسلمين في العودة إلى إحياء ذاكرتهم التاريخية، والعودة بهم إلى أصولهم في محاولة توصيل أفق الرؤية إلى العالم من حولهم، تدرك أن المشروع ليس مشروعًا بسيطًا لأن الرؤية مركبة تركيبًا يسعف في الجواب على أسئلة مركبة على مشكلة معقدة، هذا الأمر الأول.

القضية الثانية، أن المشكلات التي تدهمنا اليوم

جميعًا في أخص خصائصنا اليومية، في تركيبات واقعنا الاجتماعي، في أزماتنا الفكرية، في مؤسسات التنشئة الاجتماعية وفي منظومات القيم الحاكمة لهذه المجتمعات كلها تؤكد أننا في أمس الحاجة ليس فقط إلى نموذج نظري فعَّال ولكن إلى نموذج عملي ناجح. المسلمون اليوم في أمس الحاجة إلى تحويل مقولتهم النظرية المتقدمة بالفعل إلى نموذج حي، في أمس الحاجة إلى الانتقال من مستوى الفكرة في الجواب إلى مستوى الممارسة العملية، إلى من يعطيهم نموذجًا حيًّا وقابلاً للحياة وقادرًا في ذات الوقت على الإجابة على أسئلتهم الملحة في الواقع. وأعتقد أن هذا هو البعد الثاني من أبعاد الفاعلية أو الأهمية في المشروع الذي يقدمه الأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو نموذج عملي ناجح من خلال مشروعات وبرامج الخدمة المنتشرة اليوم في عدد كبير من أقطار العالم.

لهذا السبب فإنه من المهم أن نضع مشروع الأستاذ محمد فتح الله كولن في سياقه المناسب، في إطار رصد حركة الإصلاح في عالم المسلمين، باعتباره خطوة متقدمة ضمن هذا السياق الإصلاحي الغني. إنه نتيجة استيعاب لتراكم حصل، لأننا نعرف التطور سواء كان الأمر تطورًا في الأفكار أو تطورًا في السياقات الاجتماعية. الاستيعاب هو شرط التجاوز، فلا يمكننا أن نتجاوز واقعًا ما لم نستوعب هذا الواقع بداية. ولقد استوعبت الروافد الفكرية للأستاذ كولن تاريخ الإصلاح عند المسلمين ويبدو هذا جليًّا في كتبه وفي دراساته وفيما يؤلفه في محاضراته، فذاكرته التاريخية والحضارية حادة، تحيل باستمرار على هذا التاريخ، وتستلهم منه؛ تعود باستمرار إلى عصر النبوة وعصر السعادة، وتحيل إلى مصادر الميراث الثقافي للأمة باعتبارها أسسًا عليها يكون بناء الحضارة إلى غير ذلك.

نوزاد صواش: حسنًا، ما المشاكل الكبرى التي نعاني منها وما زلنا، وبالتالي لم نستطع أن نحلها فجاء الأستاذ وقال مثلا: المخرج من هنا، أو قالت لك تجربته العملية المخرج من هنا إذا أردنا أن نقف وقفة مع هذه الأمور لكي نكون عمليين ماذا يمكن أن نقول يا دكتور جكيب؟

محمد جكيب: تجربة الخدمة هي تجربة متميزة؛ من زاوية أنها تقدم أجوبة عملية، أجوبة استجوبت إشكالات الواقع واستوعبت إلى حد بعيد أغلب -إن لم نقل كل- الثغرات التي وقعت فيها حركات النهضة في العالم الإسلامي، والعالم العربي جزء منها. إذا كنا نتحدث مثلا عن العالم العربي.

حركة النهضة في العصر الحديث كانت تعيش تجربة الرغبة في التحول، والتغيير نظريًا، وحتى أولئك الذين اشتغلوا في هذا الموضوع وكانوا يحملون همه -دون دراية منهم ودون نية الوقوع في ذلك- صعدوا إلى أبراج عالية، واعتبروا عملية التغيير مسألة يفكر فيها النخبة، وعلى باقي أفراد المجتمع الصعود إليهم ثم يقومون بتنزيل تلك الأفكار. وللأسف لا أفراد المجتمع صعدوا إلى من تموقعوا في أبراجهم، ولا أصحاب الأبراج وجدوا الطريق للنزول إلى الواقع وإلى من في الواقع؛ فظلت الهوة بينهما واسعة شاسعة. واليوم نكتشف ونحن نلاحظ الأحداث والتحولات أن هذا المشكل كان قائمًا بالفعل، لأن

الواقع أثبت أن الفرصة عندما أتيحت لبعض هذه التجارب أن تنزل إلى الواقع اكتشفنا ولاحظنا أنها فشلت فشلاً ذريعًا. لكن في هذه اللحظة بالذات عندما نتأمل ونمعن النظر نجد أنفسنا أمام تجربة أخرى مختلفة في طريقة طرحها وتناولها لعملية التغيير وعملية النهضة، وهنا تبرز تجربة الخدمة، وتبرز بشكل قوي تجربة الأستاذ فتح الله كولن حيث لم يحصر عملية التغيير وعملية النهضة والبناء والإصلاح فيما هو نظري، بل ربطها ربطًا مباشرًا بضرورة النزول إلى الواقع أي ممارسة الإصلاح والتغيير والبناء الحضاري داخل الواقع نفسه.

في هذا الإطار عندما نتأمل مثلا في تاريخه الحركي منذ بداياته الأولى في إزمير نلاحظ أن الأستاذ كان ذكيًا وكان على وعي تام أنه لا يمكن تغيير شيء ما لم تكن البنى التحتية التي تساعدك على التغيير في المستقبل جاهزة. وبطبيعة الحال هذا الأمر يتأتى من خلال وعي تام بحقيقة الواقع، ووعي تام كذلك بالماضي، ووعي تام أعمق وأدق بخصوصيات المستقبل، وماذا يريد؟ ولذلك عمل على إيجاد البنية التحتية، وهي في نظري الإطار البشري؛ إيجاد الإنسان الذي له القابلية الفكرية والثقافية والروحية والإيمانية ليحمل هذا المشروع، لأنه مهما نظّرت، ومهما كتبت أو ألفت إذا لم يوجد من يستوعب هذا الفكر وهذا التصور لا يمكن أن تنجح. وهنا مكمن التميز في مشروع الأستاذ كولن، فالأستاذ بقدر ما كان يؤلف نظريًا من الكتب إلى غير ذلك كان يؤلف شيئًا آخر وهو تأليف الرجال وتأليف المؤسسات التي ستقوم بهذه المهمة. وهنا كذلك يجب أن نضع أيدينا وأن نسطر على نقطة مهمة جدًا في هذا المشروع وهي أن الأستاذ فتح الله كولن وهو يتحرك في بناء هذا المشروع كان حريصًا على أن يجعل المجتمع يبني مؤسساته التي تخلق وتبني التغيير بعيدًا عن شخصية الأشخاص، بمعنى أن المؤسسة هي التي تتحرك بالإطار البشري لكنها غير مرتبطة بألف ولا بباء، ألف يأتي اليوم ليقوم بالعمل ثم ينصرف ليترك مجاله لباء، ولكن المؤسسة تُحدث تراكمات حضارية تغييرية وتذهب.

نوزاد صواش: إذن يمكن أن نقول إن الإشكال الأول هو الانفصام بين الفكر والعمل، وربما هنا هذه الهوة تقلصت.

محمد جكيب: أنا أرى أنها ذابت، لماذا؟ لأننا عندما نتأمل في هذا الفعل

سمير بودينار

أ.د. سمير بودينار، أكاديمي مغربي، عمل أستاذًا جامعيًا متخصصًا في مناهج وقضايا العلوم الاجتماعية، يتركز اهتمامه كباحث في مجالات الالتقاء بين القيم والنظريات الاجتماعية مع الحقلين الديني والسياسي. بدا اهتمامه البحثي بفكر الأستاذ فتح الله غولن والنموذج المجتمعي لحركة الخدمة خلال السنوات الماضية.

يشغل حاليًا رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة بالمغرب.

وفيما يحدث في الواقع من تحولات وتغيير نشعر بأن هناك عملاً دقيقًا، هناك من ينقش انطلاقًا من رؤية، وهذا لا يتأتى إلا لمن استوعب أولا هفوات سابقة، وكانت له دراية عميقة بالواقع. ولهذا أرى أن التجربة تحتاج اليوم إلى أن يُهتم بها، وأنا أوجه ندائي من هذا المنظار إلى من يحملون همَّ التغيير والنهضة والإصلاح أن ينصتوا إلى هذه التجربة.

نوزاد صواش: دكتور سمير تريد أن تواصل من هنا؟

سمير بودينار: نعم، أعتقد أن ما قيل يضعنا أمام قضيتين أساسيتين؛ القضية الأولى هي قضية النموذج الأخلاقي بالإضافة إلى قوة الفكرة، قوة الفكرة وفعاليتها شيء مهم في عالم الأفكار.. في عالم بناء الأطر النظرية للفعل.. وهي مسألة مهمة بالغة الأهمية. لكن أزمات واقعنا المستحكمة هي في جوهرها أزمات أخلاقية، المشكلة الإنسانية اليوم في إجمالها مشكلة ذات طابع أخلاقي.. التهديد الوجودي الذي يهدد الإنسان باعتباره إنسانًا كما يهدد المسلمين هو تهديد ذو طابع روحي معنوي أخلاقي.

نوزاد صواش: هذه نقطة في غاية الأهمية؛ لو انطلقت من هذا المنطلق، فالمشروع كله سيصطبغ بهذه الصبغة. إذا قلت المشكلة اقتصادية أو سياسية مثلاً، فمن المحتمل أن تنتظم المنظومة الفكرية والعملية كلها على هذا الأساس، لذا المنطلق في غاية الأهمية.

سمير بودينار: وهذا هو الذي يفسر فعالية النموذج، لأننا اليوم عندما نحاول أن نُقيِّم حركات التغيير أو حركات الإصلاح، يمكن أن نفاضل بينها على صعيد الأطر الفكرية، وهذا أمر واقع كتراث نقدي مهم لها من الحوار والجدل والنقاش والمناظرة إلى غير ذلك، لكن أعتقد أنه ينبغي أن ننتبه في ذات الآن، إلى مقياس أو إلى إطار معياري كما يقال عن القيم، لا يقل أهمية وهو المفاضلة بينها على مستوى النموذج الأخلاقي الذي تصنعه. هل هذه المشاريع التغييرية قادرة على التغيير هنا في هذه المساحة؟ بناء النموذج الإنساني المتخلق.. إشاعة ثقافة ذات طابع أخلاقي أو مسلكي بالنسبة للإنسان.. تحديد غايات كبرى تستوعب حياته وتجعل منه كائنًا رساليًّا ذا قضية ورسالة في حياته.. هل هي قادرة على أن تستمد مكنونات هذا الإنسان فتحفزه على العطاء والبذل واستفراغ الجهد والحركة وبذل ما يستطيع من مال وجهد وعلم وغير ذلك؟ هل هي قادرة على أن تجيب على المشكلة الأخلاقية المزمنة التي تواجهها مجتماعتنا بما في ذلك الأزمة الأخلاقية لدى المتصدين للإصلاح أنفسهم إلى غير ذلك؟ هذه أعتقد أنها قضية أساسية ينبغي أن نستحضرها باستمرار ونحن بصدد تقييم هذا المنجز الإصلاحي لدى الحركات الإصلاحية بشكل عام هنا أو هناك.

القضية الأخرى قد أشار إليها الدكتور جكيب قبل قليل عندما ذكر أن الإطار الفكري والإطار النظري هما شيئان متكاملان، وبالتالي فإن المساحة بين الفعل والقول ينبغي أن تضيق. أعتقد إذا أردنا أن نُلخص تراث الأستاذ محمد فتح الله كولن المكتوب وخاصة ما ترجم منه إلى العربية فيما عرفنا، فسيكون هو تحفيز الإنسان؛ بناء الإنسان.. إعادة ترتيب طاقات الإنسان وكفاءته لينتقل من مستوى النظر إلى مستوى العمل.. من مستوى الفكرة إلى مستوى الحياة بهذه الفكرة..

من مستوى إدراك الرسالة ومعرفتها فاستيعابها إلى مستوى تمثل هذه الرسالة وهذه الفكرة واقعًا حيًا. وهذا ليس أمرًا بسيطًا، لأن الأزمة المستحكمة اليوم في عالم المسلمين عندما تتبدى في شكل قصور في الفهم، أو اضطراب في تفسير النص، أو تفسير الوحي نفسه، عندما تتبدى في شكل عنيف مع حركات تفهم النص فهمًا حرفيًا أو سطحيًا، ولا تتعامل معه باعتباره رسالة حضارية إنسانية شاملة للتغيير الإنساني والمجتمعي، هذا في الواقع يدل على مشكلة في الفهم أولاً، ثم قصور في تحويل هذا الذي نفهمه إلى مشروع لخدمة الناس، ليكون رحمة للناس، ليتحول إلى عنصر إيجابي على الناس، كل الناس، كيفما كانوا حيثما وجدوا، وفي كل المستويات والمهن والتخصصات والكفاءات إلى غير ذلك. ما الذي يفسر اليوم أننا -للأسف- بتنا مجتمعات تنتج جيلاً ضائعًا، سواء كان هذا الضياع ضياعًا أخلاقيًا في متاهات الانحراف أو حتى ضياعًا في فكر الغلو والعنف؟ هذان الاتجاهان هما في الواقع وجهان لعملة واحدة، جوهرها -أولاً- عدم القدرة على أن يجد الإنسان نفسه في إطار دينه. ما هو موقعي الطبيعي؟ ما هي رسالتي بوصفي كذا؟ بوصفي إنسانًا عاديا.. بوصفي إنسانًا متعلمًا.. باعتباري مثقفًا.. باعتباري إنسانًا فنانًا مثقفًا عاملاً طالبًا معلمًا. ما موقفك في هذه الرسالة؟ ما المطلوب مني؟ وعندما يتمثل الإنسان هذه الفكرة تنفتح أمامه المجالات، كأننا خزنَّا الطاقات الإنسانية في الفعل. هذه هي الفكرة الأساسية التي أردت الإشارة إليها ونحن بصدد تقييم الحاجة إلى منهج بمثل هذه الأفكار، بوصفها

nesemat.com نسمات nesemat.com

الخدمة هي رؤية تأخذ بيد الناس إلى المستقبل ليعيشوا دينهم بمقتضى عصرهم وهذا هو الذي يفسر طاقتها وفعاليتها في كثير من البلاد.

قيمة مضافة لواقع الإصلاح في عالم المسلمين اليوم.

نوزاد صواش: عندما تجلس مع من ينشط في هذه المناشط، مثلا مع تاجر عنده إمكانات، يعقد مقارنة مادية بين حياته قبل أن يكتشف هذا الخير وحياته بعدها، كأنه اكتشاف جديد، يقول: ولدت من جديد.. أصبحت رؤيتي إلى العالم مختلفة.. إلى الكون مختلفة.. إلى المال الذي يملكه مختلفة.. ما الإكسير الذي يقدمه لنا الأستاذ؟ ما الأفق الذي يرسمه لنا؟

نحن نتجول في العالم العربي وحضراتكم تعرفون، الإنسان إما ضائع لا يعيش من أجل معنى مقدس؛ يعيش من أجل ذاته أو أسرته أو حول ملذاته، وعندما يريد أن يخرج عن الذات ويسأل إلى أين نتجه؟ البعض يوجههم إلى ساحات الموت، فالجهاد يتحول إلى عملية قتل وموت، لكن عندما تسأل هذا السؤال للأستاذ أو مدرسة الأستاذ ما الجواب الذي يأتيك؟ ها قد شعرتُ بالمسؤولية، ما العمل الآن؟ أين توجهونني؟ ماذا سأفعل؟ دكتور جكيب كتبتَ كتابا حول هذا الموضوع: "أشواق النهضة والانبعاث قراءات في فكر الأستاذ فتح الله كولن"، ماذا تقول في هذا الموضوع؟

محمد جكيب: أظن أن هذه المسألة في الأصل مرتبطة أولاً بشخصية الأستاذ نفسه، لأن أصعب شيء هو أن يكون لكلامك ولرؤيتك التربوية أثر

في من تتحدث إليهم؛ القيم الأخلاقية التي ينتمي إليها الأستاذ ويريد أن ينشرها بين الناس تفاعل هو معها تفاعلاً كاملاً بقلبه وجوارحه، وعاش التجربة الروحانية بكل معانيها، لكن ليس بوتيرة منعزلة عن الواقع، بل بوتيرة مرتبطة بالواقع. أظن أن الأستاذ عندما اكتسب هذه الروح وصار يتعامل معها بإخلاص وصار عنده شعور وهمٌّ نقْل هذه الروح إلى الناس أصبح لكلامه أثرٌ. لذلك فإن هذه الروح عندما ينصت إليها كافة الناس بشرائحهم المختلفة يجدون أن هناك صدقًا وإخلاصًا، وأن هناك كلامًا نابعًا من القلب. هذه الروح هي التي خاطب بها الرسول ﷺ من دعاهم في مراحل دعوته.

نوزاد صواش: أستاذ سمير، عندما يشعر الإنسان بمسؤولية ما ويُشحن يريد أن ينطلق، هذه أظنها لحظة خطيرة أيضًا، لأن البعض يشحنك فيرسلك إلى ساحة الموت كما قلت، لكن الأستاذ يوجه الطاقات توجيهًا عجيبًا، فينطلقون للبناء والإحياء ما سر هذه الحيوية؟

سمير بودينار: بداية، نتحدث عن ثلاثة عناصر أساسية للفعل عند الإنسان؛ الفكرة "الرؤية"، الطاقة المحركة "الروح"، ثم قوة الفعل "الحركة".

ما يقع الآن في عالم المسلمين هو خلل في أحد هذه المعايير الثلاثة. ما إن يصل الإنسان بحكم حالة الأوبة العامة للدين التي أصبحت سمة جماعية بل أصبحت سمة العالم الحديث، يقولون عن القرن الماضي كان قرن العدالة الاجتماعية، وأن هذا القرن هو عودة الناس إلى ذواتهم إلى معنى حياتهم، وهذا سؤال كبير سؤال خطير يواجه الإنسانية جميعًا كيف سنتعامل مع هؤلاء العائدين إلى ذواتهم؟ عندما يصل الإنسان إلى هذا المستوى نستطيع أن نقنعه أن نعطيه معالم الاهتداء، لكنه يسأل بعد ذلك ثم ماذا بعد؟ نحتاج إلى المكونين الثانيين؛ رؤية واضحة، مشروع لبناء العمران.. مشروع كبير يستوعب حياة الإنسان كلها ومناشطه وحياة أبنائه ومحيطه إلى غير ذلك، ثم يحتاج إلى قوة الدفع الروحية. المسألة مركبة تحتاج إلى جواب مركب، عالمنا الذي نعيش فيه -ونتحدث عن عالم المسلمين تحديدًا- جرب أجوبة كثيرة، حتى من لم يكن جزئيًا "كما يدعي"، لم يقتصر على الجانب الاقتصادي أو الجانب التربوي أو الأخلاقي أو السياسي أو غير ذلك، قال بأنه سيقدم مشروعًا يجمع هذه الأشياء كلها، لكن الخلطة التي قدمت كانت خلطة -للأسف- في كثير من الأحيان مدمرة، إما لأنها قزَّمت الأبعاد الأخرى في إطار بعد واحد مدعية أنها تشمله كما وقع مع الذين يشتغلون في المجال السياسي، أو أنها حولت الدين إلى طاقة سلبية عندما انكفأت على البعد الروحي وحده وأهملت الأشياء الأخرى، أو أنها حولت الإسلام إلى نظرية فلسفية محضة عندما تتحدث عن الفكرة الإسلامية بشكل تجريدي موغل في التجريد باعتبارها نسقًا فلسفيًا يُقدَّم للناس ويجيب على الأسئلة ثم تنتهي المسألة.

إذن نحن في حاجة ماسة إلى هذه التركيبة من هذه الأبعاد كلها. ما يقع الآن في إطار هذا المشروع العملي الذي قلنا في البداية إنه أثبت أنه مشروع ناجح في ساحات متعددة، مشروع استطاع أن يثبت فعاليته في تحقيق أهداف متعددة في بيئات مختلفة

للغاية.. أن يتعامل مع إنسانية الإنسان وهذه هي نقطة القوة. عندما ترى هذا المشروع في أي منطقة من مناطق العالم تجد أنه وضع لنفسه أهدافًا وبدأ يعمل فيها.. بناء الإنسان.. شحنه شحنًا روحيًا كافيًا.. طاقة السير ثم في مشروعه تُربِّي فكريًا بشكل متوازن يعصمه من الإفراط والتفريط أو الغلو أو التشدد أو التسيب أو غير ذلك، ثم هو ينضبط إلى مشروع فكري إلى فكرة ناضجة تستوعب حياته جميعًا.

القضية هنا في تقديري أن المسألة فيها أبعاد شخصية.. أبعاد مسلكية.. أبعاد القدوة.. هذه كلها أبعاد حاضرة، لكن في النهاية لا مفر من أن نقر ابتداء بأننا اليوم نعيش أزمة هذا المشروع المتكامل وهو السبب الأساسي في ضياع الأجيال الجديدة أو جزء كبير منها، لأنها إما أن تنكفئ إلى هذا المسار أو ذاك.. إما تشتط في هذا الاتجاه أو الاتجاه المعاكس.. إما لا تجد رؤية فكرية مجتمعية ناظمة إنسانية أو حضارية، أو إما أنها تعيش حالة من الخواء والفراغ على الصعيد الروحي، فلا طاقة لديها كافية لتسير في تحقيق الرسالة التي تؤمن بها، أو أنها مع كونها ذات رؤية قوية وطاقة روحية إلا أنها غير ممكَّنة من إمكانات الفعل ولا مجال لديها لتحقيق هذا النموذج الناجح الذي نتحدث عنه.

نوزاد صواش: المشكلة في الخلطة على ما يبدو، إذن كيف نشكل هذه الخلطة؟ دكتور محمد جكيب. تأثير الكلمة ليس سهلاً، هناك مفكرون ودعاة كثر، يقولون ويكتبون أفكارًا رائعة، قد يدخل الفكر القلب لكن ليس كل فكر يدخل القلب يحوله الناس

nesemat.com نسمات nesemat.com

أن تبني قاعدة التغيير الحقيقة يعني أن تبني الإنسان الذي ينجز عملية التغيير، مُراعيًا في ذلك ميراثك الحضاري.

إلى مشاريع. ما السر الذي لمسته أنت يا دكتور؟

محمد جكيب: نعم، في الحقيقة لاحظت أن الأستاذ يولي قضية الكلمة و البيان أهمية كبيرة جدًا، وهو يستقيها -كما يذكر في كتابه- من البيان القرآني، ومن البيان النبوي.

البيان في هذا المقام ضرورة؛ لا يمكن أن تصل إلى القلوب إذا لم تكن متمكنًا من قوة البيان، القرآن الكريم نفسه يقوم على هذا الأساس؛ عندما نتكلم عن جمال العبارة ورشاقتها.. عن صدقها وروحانيتها.. الأستاذ وظف هذه النقطة إلى أبعد حد، فإنسان العصور المتأخرة كأنه نسي فطرته، وقد عمل الأستاذ على إحياء هذه الفطرة فيه. لأن روح الدين التي انتقلت كما تنتقل الجينات في الأجيال اللاحقة قد أصابها الفتور، وبإدراك الأستاذ لهذا الجانب تغلب عليه من خلال إحياء فطرته؛ فروح الإسلام وروح المبادرة وروح الإنفاق وروح عمل الخير وروح التسامح إلى غير ذلك، كل هذه الأنسجة موجودة في المسلم، لكنها دخلت في أماكن معينة وأصبحت في حالة كمون، فجاء الأستاذ ليحييها بخطابه، يحييها بكثرة الإلحاح، وهو عبد واللهُ يحب العبد الملحاح، الأستاذ يلح في خطابه.. يخاطب تلك الفطرة.. يخاطب تلك المكنونات حتى تبرز إلى الواقع. يعرف أين يوجد الزر ومتى يضع أصبعه عليه، وعندما ينطلق -وهذا هو المهم- يوجهه.

فهذه الطاقة يجب أن توجَّه في الاتجاه الإيجابي، وهنا كذلك يتدخل الأستاذ لكي يلتقط هذه الطاقة، ويتم صرفها في الاتجاه الإيجابي الذي لا يعود بالخير على الذات وحدها، وإنما على الذات وعلى الجماعة وعلى العالم كله. وما حديثه عن الوعي الجمعي مثلاً إلا نوع من الإلحاح على هذه النقطة بالذات، يعني أن يكون العمل والرؤية والفكر متجهًا في اتجاه واحد، حتى يعطي نتائج إيجابية وطاقة إيجابية.

نوزاد صواش: هل يمكن أن نلخص هذا التوجيه في مقال للأستاذ بعنوان "رسالة الإحياء"؟ هل هذه الطاقات كلها أصلاً تتجه في اتجاه إحيائي؟ أن تذوب في خدمة الإنسان.. أن تبحث عن سعادتك في إسعاد الإنسان.. أن تعيش لكي تُحيي الإنسان. عندما أقرأ نصوص الأستاذ أو أستمع إليه كأنه يلخص الإسلام كله؛ الإسلام أن تعيش من أجل الآخرين.. أن تذوب في الآخرين، ألَّا تعيش لذاتك.. أن تعيش من أجل الإنسان أينما كان.. أن تُحييه، وكلمات مثل "البعث" "الانبعاث" "نفخ الروح" هذه إذا قرأنا مقال الأستاذ سنجدها بكثرة، فعملية الإحياء هي محورية في نصوص الأستاذ.

سمير بودينار: حقيقة هذا النوع من الإلحاح في الدعوة ليس أمرًا بسيطًا، قضية الإحياء والبعث هي استلهام متقدم لتراث روحي وفكري عميق عند المسلمين، ومحاولة استثمار هذا التراث العميق في إنجاز المرحلة الأخطر في مراحل الإصلاح التي نتحدث عنها، وهي نقل هذه القيم والمعارف من دائرة الأفكار المجزأة إلى انتظامها في رؤية متكاملة، لنهضة الأمة وإعادة بناء الإنسان، ليكون جديرًا بمقامات الاستخلاف والعمران التي طُوّق بها بوصفه كائنًا مسؤولاً متحملاً لأمانة الوجود الإنسانية. عندما نتحدث عن خدمة الناس وإسعاد الناس والعيش من أجل الناس، هذا استلهام لتراث في التزكية عند المسلمين عميق للغاية، الاستمداد من الحق وخدمة الخلق.. العيش من أجل الآخرين.. الوجود ينفعل بالجود حسب الشعارات الكثيرة.

نوزاد صواش: هل تعني أننا ضيعنا هذه القيم؟

سمير بودينار: للأسف هذا ما وقع في الاتجاهات الإصلاحية الحديثة بشكل خاص، لأنها تعاملت مع هذه الأطر بوصفها مسارات متوازية لا علاقة بينها؛ فاعتبرت التراث العرفاني أو التزكوي عند المسلمين تراثًا روحيًا محضًا، يصلح للتزكية ولتربية الناس وتزكية نفوسهم وتخليصها وتطهيرها، وهنا ينتهي كل شيء. ثم اعتبرتْ التراث الفقهي تراثًا لتنظيم العمران والعلاقات بين الناس وتحديد الحلال والحرام وتخليصهم من أن يقعوا في المخالف في أمور معاملاتهم ثم ينتهي الأمر هنا. وكذلك تم التعامل مع التراث الكلامي بوصفه تنظيمًا لعلاقات الإنسان بالمعتقد وتحديد المقولات الكلامية الكبرى، ثم ينتهي الموضوع وهكذا. فقضية استثمار أو استلهام التراث الروحي عند المسلمين وتحويله إلى طاقة دافعة أمر ليس سهلاً.

نوزاد صواش: ربما هذه الطاقة الروحية لا تُفعَّل عند البعض، بل تخزَّن وتبقى مخزنة، وهناك من يتحركون ولكن ما عندهم طاقة روحية...

سمير بودينار: ولهذا السبب تعطلت عملية الإحياء لأن الإحياء ليس أمرًا مقتصرًا بأن تدل الناس

على الفكرة وأن تقودهم إليها؛ النبي ﷺ في نموذج رسالي عظيم عرفته الإنسانية ربّى خلال بضع عشرة سنة جيلاً من الناس، ربَّاهم بحيث كان الواحد منهم يندفع إلى تحقيق الرسالة بأقصى طاقة ممكنة في أعلى مستويات الإجابة.

نوزاد صواش: ربَّاهم؟! هل هذه إشارة إلى خلل؟ يعني نحن -على ما يبدو- لا نربِّي؟

سمير بودينار: صحيح، لهذا السبب التربية في النهاية هي هذه الأبعاد كلها، التراث الروحي.. العناية بالإنسان.. بدقائق تربية الإنسان؛ الإنسان نقش رباني بديع .. بناء إلهي رباني محكم؛ عندما تفرط في أحد مكونات هذا الإنسان تنتج نموذجًا مشوهًا.. إنسانًا في الظاهر، لكنه ليس في أحسن تقويم كما أراده الخالق ﷻ، ولذلك يركز الأستاذ على قضية "أحسن تقويم" حيث يقول إن هذه القضية مقتضاها أن تستجيب لملكات الإنسان وتنميها جميعًا في نفس الوقت، فرسالة الإحياء بهذا المعنى هي خدمة للإنسان كما هي بناء للإنسان.. هي بناء للعمران كما هي سعي للإنسان نحو الكمال الإنساني.. هي إسهامه في بناء حضارته كما هي استقلاله في بناء نموذجه الحضاري الخاص. "ونحن نبني حضارتنا" "نحن" باعتبارها حضارة شاهدة على غيرها، ثم أن تكون نموذجًا شاهدًا، يعني أن تكون جذابًا قابلاً لأن تستلهمه الإنسانية، هذا كله ليس أمرًا بسيطًا، هذا نقش مُحْكم.. استلهامٌ لتراث حضاري عميق.. سعيٌ لاستثمار هذا التراث في مشروع.. استثمارٌ روافد هذا التراث كلها في مشروع حضاري معاصر اليوم.. في بناء الإنسان بالتربية الإنسانية.

النموذج الإنساني الكامن في حركة الخدمة نموذج فعال قادر على التحديات والأسئلة في كل بيئة مع اختلاف البيئات وأسئلتها وقضاياها الشائكة.

nesemat.com نسمات nesemat.com

نوزاد صواش: يبدو أن وضع النموذج ليس سهلاً، كم من فكر يخطر بالبال، نكتبه أو نسجله ثم نتركه، في حين أن الأفكار تحتاج إلى البذل في سبيل رعايتها هل هناك تقصير في هذا البذل، ما المشكلة؟ وماذا يفعل الأستاذ كولن إزاء هذه المشكلة؟

محمد جكيب: أظن أن جواب هذه النقطة يكمن في تراثنا كما قال الأستاذ سمير بودينار، في التراث النبوي على وجه الخصوص؛ الرسول ﷺ وهو يربي ويُعد جيل الصحابة الذين سيتحملون المسؤولية لتبليغ هذه الروح للعالم كله، كان يتعهدهم بالتوجيه والمراقبة بما ينقذف منه من نور إلى قلوبهم، لا يتركهم، وأظن أن أهم شيء حرص عليه الرسول ﷺ في هذه النقطة بالذات هو أنه ربط ما يقوم به الصحابة -وهم يبلغون الدعوة- بالله ﷻ، لم يربطهم بالنتائج، لم يقل لهم: تبنوا هذه الرؤية الحضارية.. هذه الروح.. هذه المنظومة وستحصلون على الحضارة وعلى كذا. الأستاذ فتح الله كولن انتبه إلى هذه النقطة واستوعبها؛ عندما نتأمل في كثير من المواقف نجده يوجه من يربيهم إلى العمل والحركة والتفاعل من أجل الغير، لا من أجل مصالح ذاتية خاصة، ولهذا تعجبني عبارة جميلة جدًا لديه، أعدُّها رقيقة من الرقائق، وهي "تصفير النفس"، فإذا

قلتَ: "أنا" فعلتُ فقد خسرتَ أو فشلتَ أو سقطتَ في أول الطريق، وعندما نقول "نحن" فقد سقطنا وخسرنا في وسط الطريق، لكن ينبغي أن نقول: هو ﷺ فعل، وهنا نصفِّر الذات، الأستاذ انتبه إلى هذا وحوله إلى قيمة حضارية أخلاقية. لسنا مسؤولين عن النتائج، الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى النتائج.. هو الذي يكافئ ويقدر قيمة العمل. الأستاذ نجح في هذه النقطة بالذات، وحولها إلى قيمة حضارية؛ الناس مطالبون بأن يعملوا وأن يحققوا العبودية في هذه النقطة. ولهذا أنا أفهم لماذا يترك أحدهم الأهل والوطن والمال وكل شيء ويهاجر من أجل هذه الفكرة بالذات وهذه قيمة أخلاقية، ليس هذا فقط بل إنني أرى أن وجوده الآن في أمريكا ربما يدخل في هذا الإطار، لأنها هجرة من نوع آخر، بمستوى آخر، ببعد آخر، ربما سيكون لها ما بعدها في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى.

نوزاد صواش: الأستاذ حيثما حلَّ اخضرَّت الأرض. دكتور سمير، بما أنك متخصص في العلوم السياسية ربما هناك من يرى الأستاذ كولن مفكرًا، وهناك من يراه مفكرًا استطاع أن يحرك أفكاره، ويضعها حيز التنفيذ، لكن في المقابل هناك تساؤل يراود الكثيرين حول المنهج الذي رجحه الأستاذ كولن في التحرك، لماذا رجح العمل على هذا النحو؟ لماذا لم يؤسس حزبا؟ ولو أراد لفعل وحقق نجاحات، لماذا لم يؤسس طريقة صوفية ويسير على المنهج السائد وينطلق؟ كما تعلمون القضية السياسية الآن مشكلة كبيرة في العالم الإسلامي، وما يعانيه بعض الناشطين في العمل الإسلامي وما يتعرضون له من ضغوطات سياسية يمثل ظاهرة العصر، هؤلاء الناشطون يجعلون العمل السياسي أولوية، أو يقولون لك: اشتغل في المجال الاجتماعي إلى جانب المجال السياسي، لكن الأستاذ يختار طريقًا آخر، برأيك لماذا لم يجعل الأستاذ أولويته العمل السياسي؟ أو لماذا لم يؤسس حزبًا؟ ما تصور الأستاذ هنا؟

سمير بودينار: أستاذ نوزاد هذا سؤال كبير جدًا، فالحديث عن سبب اختيار الأستاذ هذا المنهج ظل يراودني باستمرار وأنا أقرأ للأستاذ تراثه المكتوب، وألتقي ببعض الشخصيات من الخدمة. القضية هنا ينبغي أن لا تبتعد ونحن نحللها عن الوعي التاريخي الذي ذكرته في البداية؛ ما يقع اليوم في العمل السياسي هو نتيجة، لأن هذا العمل تحول بشكل مختصر -وأنا هنا أعبر عن فكرتي في الإطار الذي نعيش فيه الآن وهو الدولة الحديثة- تحول العمل السياسي من عنصر حل إلى عنصر أزمة. طبعًا أنا هنا لا أدين العمل السياسي لأنه ضرورة، ولأن السياسة في التكليف عند المسلمين هي القيام على الأمر بما يصلحه؛ فهي عملية إصلاح في النهاية، إصلاح للشأن العام، أو تدبير للشأن العام على شرط الإصلاح لكن هذا ليس واقعًا الآن؛ مشكلة الدولة الحديثة الموجودة الآن، أن السياسة فيها بدلا من أن تصير عنصرًا في اتجاه مشروع الإصلاح صارت عنصر تجزئة وتفكيك وتشتيت. الذي نعيشه الآن في عالم المسلمين -حتى على مستوى العنف- ينبغي أن ننتبه إلى أنه أحد تجليات عملية التحديث التي

تمت بشكل أهوج. اندلاع الهويات الفرعية.. تصدر العصبيات.. الانتماءات الطائفية والعرقية والقومية والهوياتية والطائفية وإلى غير ذلك، كلها -بشكل عكسي- هي نتيجة لعملية التحديث التي شهدناها. عندما ظهرت هذه البؤر بهذا الشكل بدأنا ننتبه أخيرًا إلى أن المسألة تمت في ظل الدولة الحديثة؛ تجاوزُ ما يقع الآن على عالم المسلمين من أنواع الفرقة والخلاف والتناحر الطائفي والهوياتي يحتاج إلى أدوات خارج نطاق التحديث، من خارج إطار الدولة الحديثة، وبالتالي ينبغي أن نبحث لأنفسنا عن أدوات في الفعل أشد تأثيرًا وأعمق أثرًا وأكثر قدرة على تحقيق الأهداف من وسائل الدولة الحديثة.

نوزاد صواش: أستاذي عندما نقول "الدولة الحديثة" ماذا تعنون؟ أو ما وسائلها؟وكيف نعرفها؟ لأن كثيرين لا يعرفونها.

سمير بودينار: عندما نتحدث عن الدولة الحديثة نتحدث عن دولة تسير بمقتضى محاولة الضبط، أكبر قدر ممكن من ضبط الأفراد والمجتمع أولاً، ثم العمل العام فيها تتلخص رسالته في الصراع من أجل الوصول إلى السلطة؛ صراع الأطراف المختلفة لبلوغ مرتبة السلطة، لأن السلطة السياسية في الدولة الحديثة تُعتبر هي الإمام.. هي الحكم.. هي قاطرة التغيير في المجتمع، وبالتالي فإن الناس يتنافسون ويتصارعون لبلوغ هذه القاطرة التي تجر المجتمع. أما النموذج الذي يقترحه الأستاذ -وهو جواب على سؤالكم، لماذا لم يختر منذ البداية أن ينحاز إلى العمل السياسي؟- فهو وَعْيٌ بأن المسألة

تجربة الخدمة تحتاج اليوم إلى أن يُهتم بها، وأنا أوجه ندائي من هذا المنظار إلى من يحملون همَّ التغيير والنهضة والإصلاح أن ينتصوا إلى هذه التجربة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

عندنا ليست كذلك، التطور التاريخي في بلداننا.. سياقنا الحضاري والثقافي ليس قائمًا على هذه الترتيبة؛ السلطة السياسية فيه ليست القاطرة، القاطرة فيه هي الأمة.. هي الناس؛ فكرة المجتمع الأهلي هي فكرة عميقة الامتداد في ميراثنا الحضاري والثقافي. بالإضافة إلى أن وسائل التغيير في الدولة الحديثة كانت -كما هو معروف وكما ضربتُ بعض الأمثلة- محدودة، بل مثيرة للأزمات أكثر من قدرتها على إنتاج الأجوبة والحلول، كما أن القدرة الحقيقية لمن يستلم السلطة السياسية محدودة للغاية في هذه الدولة.

وأنا أتصور أن تراث العمل السياسي في البلدان الإسلامية في النصف الأخير من القرن الماضي يؤكد هذه النتيجة اليوم بشكل واضح، ليس لأن هذه التجارب ضُرِبَتْ في أكثر من مرة فحسب؛ حيث لم تكن قد أنضجت الشرط الموضوعي أو الشرط المجتمعي اللازم حتى تنجح وبالتالي ضُرِبَتْ، ولكن لأن من استطاع منها أن يصمت ولم يُضرب اعترف في الأخير بأن الأدوات التي يعتمد عليها هي مخالفة لطبيعة الغاية التي يتوخاها، من هنا نفهم رفض الأستاذ في الستينات عرضًا قدمَّه بعض قيادات العمل السياسي الإسلامي حينما قالوا له: انضم معنا.. نحن بصدد إنشاء حزب.. سنتسلم السلطة.. سنغير..

فأجابهم: هؤلاء الأولاد الذين أهتم بهم بالنسبة لي مشروع أهم من مشروعكم.

هذا رهان على أن نبدأ من حيث ينبغي البدء، لأنَّ كل الوسائل الأخرى ستؤول بنا إلى ذات الأزمة، وترجعنا إلى نقطة البداية مرة أخرى، ضيعنا في ذلك جيلاً أو جيلين لا يهم، لأن سنن الله جارية لا تحابي أحدًا، قوانين التغيير الاجتماعي هي نفسها لا يمكنك أن تبدأها من المرحلة الخامسة أو السادسة، ينبغي أن تبدأها من المرحلة الأولى، أن تبني قاعدة التغيير الحقيقية، يعني أن تبني الإنسان الذي ينجز عملية التغيير، مُراعيًا في ذلك ميراثك الحضاري؛ أنت لا تشتغل في المريخ.. أنت تعمل في منطقة عندها خصائصها الحضارية والثقافية وأسسها الاجتماعية وروابطها إلى غير ذلك. هذا الأسلوب في الأخير استطاع أن يُفعّل الإنسان.. أن يعيد الفاعلية الاجتماعية للأسرة والمدرسة، ويشتغل على الاقتصاد ويُفعّله من الداخل، ويعطي نموذجًا أخلاقيًا آخر يستعيد فيه عافية المجتمع وقدرته على المبادرة. كل هذه الأشياء لا يمكن أن تصل إليها وأن تنجزها من خلال الإطار الحزبي.

أنا هنا لا أريد أن أبخس من قيمة العمل السياسي عندما يكون مستوعبًا لهذه الأبعاد كلها قادرًا فكريًا على العمل، لكن ينبغي أن نكون واضحين، لأن العمل السياسي أو السلطوي -خصوصًا الحزبي في الشرق الذي نعيشه اليوم في عالم المسلمين- ينبغي أن لا نكون مسرفين في توقع الأهداف والنتائج منه، لأنه يرتبط بشروط مجتمعية وحضارية في الأمة أكبر بكثير من أن تنجز من خلال العمل السياسي.

نوزاد صواش: دكتور جكيب هل تود أن تضيف شيئًا؟

محمد جكيب: نعم، السؤال الذي ينبغي أن يطرح في هذا الباب هو، إلى أي حد يمكن أن نقول إن الأستاذ قد أعاد صياغة مفهوم السياسة أو الممارسة السياسية؟ لأن وضع الدولة الحديثة جعل من السياسة ممارسة مرتبطة إلى حد بعيد بالوصول إلى الحكم، وهذا بعد ضيق، لكن رؤية السياسة عند الأستاذ ذات بعد أوسع، يستقيه في الأصل من عمق الحضارة الإسلامية، فالذي صنع الحضارة على مر التاريخ المجتمع المدني؛ أي الناس، عموم الناس هم الذين أقاموا المدارس.. هم الذين أقاموا أشياء كثيرة مرتبطة بالحضارة؛ مثلا عندنا جامعة القرويين في المغرب، بنتها امرأة، وهي تنتمي إلى المجتمع.. لم تكن لها أية مسؤولية سياسية. وأظن أن الأستاذ كأنه يريد أن ينبه إلى هذه النقطة، السياسة أن يعيش الناس للمجتمع.. أن يبنوا حضارتهم ليس فقط حتى يعودوا بالفائدة على الناس أو على الوطن في حدوده الضيقة بمفهومه، وإنما ليعودوا بالفائدة على الإنسانية ككل، باعتبار الإنسان مخلوقًا من مخلوقات الله ﷻ.

هذه المسألة دقيقة جدًا، وأظن أن الحركات السياسية التي تنطلق من رؤية إسلامية عليها أن تعيد النظر في هذه النقطة بالذات، لأن الحركات الإسلامية التي تبنت السياسة جمعت كل بيضها في سَلَّة واحدة وهي سَلَّة السياسة. لذلك عندما تقع

الأزمة يتكسر كل البيض. وللأستاذ مقولة جميلة جدًا تعجبني كثيرًا قرأتها له يقول: "عندما تتأمل في مجموع المنظومة الإسلامية تجد أن الجانب السياسي فيها لا يتعدى نسبة ٥٪". والباقي كله أخلاق ومعاملات، فالتركيز على الجانب الفارغ من الكأس وترك ثلثيه أو ثلاثة أرباعه فيه نوع من العيب.

نوزاد صواش: الأغلبية في البلد، في كل بلد هي المجتمعات،ما نسبة الذين يشتغلون في الدولة؟ الأغلبية الساحقة هي المجتمع فمَن لهذا المجتمع؟ من سيهتم به؟ من سيحل مشاكله إذا لم يستطع المجتمع أن يحل مشاكله؟

محمد جكيب: نعم صحيح، من يرعاه في حاضره وفي مستقبله.

نوزاد صواش: نعم الدولة لا تستطيع وحدها أن تفعل هذا، دكتور لدَيَّ سؤال مهم، الأستاذ فتح الله كولن فعّل طاقة المجتمع الكامنة -كما قلنا- في إطار المشاريع المدنية والعمرانية التي تخدم المجتمع، وحصل ازدهار -لا شك في ذلك- من خلال مئات من المدارس.. العمل الإعلامي.. الانفتاح على العالم، هذه كلها إنجازات مجتمعية، المجتمع استخدم هنا طاقاته المالية.. طاقاته البشرية.. لم يستعن بأحد.. بقوة ذاتية خدم نفسه، وخدم مجتمعه، لكن هناك دائما هذه المعادلة؛ الدولة أم المجتمع؟ هل المجتمع المدني هذا بديل للدولة؟ خطر على الدولة؟ ما المقاربة التي يقدمها الأستاذ في هذا الصدد؟

سمير بودينار: طبعًا لا يمكن بحال أن يكون المجتمع بديلاً للدولة أو خطرًا عليها لسبب بسيط،

مشكلة الدولة الحديثة الموجودة الآن، أن السياسة فيها بدلا من أن تصير عنصرًا في اتجاه مشروع الإصلاح صارت عنصر تجزئة وتفكيك وتشتيت.

nesemat.com نسمات nesemat.com

هو أن الإنسان عندما يُسيّر مؤسسة أو شركة مثلا، هل يمكن القول: إن فعالية الأفراد داخل هذه الشركة من مهندسين وأطر، وارتفاع مستوى كفاءتهم، وارتفاع منسوب إنتاجهم، وسعيهم لرفع مستوى الشركة ومبيعاتها، وتحقيقهم أرباحًا أعلى أيمكن أن يمثل ذلك خطرًا على مدير الشركة؟ أم أن هذه الفعالية تخدم جسم الشركة كله؟

فالقضية هنا هي قضية تكامل في الأدوار، ولذلك في أوربا اليوم تجد أفكار الفلاسفة الكبار في الدول الغربية وخاصة في أوروبا تميل إلى هذا؛ يعني مثلاً نحن نرى اليوم إيمانا أكبر بدور المجتمع المدني.. وفتح مجالات جديدة له، الدولة في أوروبا اليوم تفتح مجالات جديدة أمام المجتمع المدني، وتدعوه أن يتقدم إليها، وأن يقوم بمهام جديدة فيها، تؤمن بالديمقراطية التشاركية بدل الديمقراطية التمثيلية، الديمقراطية التصالحية التي تؤمن بأن المؤسسات، حتى المنتخبة منها ليست جديرة وحدها بأن تحدد السياسة في كل شيء، وأنها بحاجة إلى أن تنتمي بها إلى الناس، وبالتالي أن تدخل في إطار شراكة معهم. هذه نحن نراها عند عديد من الفلاسفة وهي امتداد لفكر حديث يؤمن بأن فعالية المجتمع شرط لنجاح الدولة، لا يمكن للدولة أن تكون دولة

ناجحة، بمعنى معايير التدبير السياسي إذا لم تتعامل مع مجتمع حي ناضج إيجابي فعّال مشارك، يضطلع بجزء من مسؤوليته ومن أدواره التي ينبغي أن يقوم بها. و أعتقد أن هذا ما يفسر بأن حركة الخدمة في كثير من البلدان الديمقراطية الكبرى، حتى في الدول الصناعية الكبرى عندها حضور مرحَّب به، لأن هذه الدول.. هذه المجتمعات.. هذه الديمقراطيات المستقرة تؤمن بفاعليتها في الإدراة المدنية.

نوزاد صواش: حسب علمي في الغرب، الدولة نفسها عندما تجد المجتمع يُسهم معها في مشروع ما، المجتمع يموله لكن ينجح في النهاية، الدولة تقول للمجتمع: لا تموله، أنا سأموله، أنا سأساعدك، لأنه حمل جزءًا كبيرًا من الأعباء عنها.

سمير بودينار: فكرة الديمقراطية التشاركية الآن هكذا عمومًا، المجتمع المدني صارت الدولة تأخذ بيده ليكون إلى جانبها، لأن عبء إدراة جزء كبير من الملفات والقضايا في الدولة لا يمكن أن تقوم به الدولة وحدها؛ كيف يمكن أن نحارب الظواهر الاجتماعية الخطرة، المخدرات، العنف، التطرف، الانتماء إلى العصابات، حماية الشباب من الانخراط إلى الانحرافات الفكرية وهكذا.

نوزاد صواش: دكتور جكيب إنسان الخدمة ما هي أهم سماته؟ لأن كل مؤسسة لها مخرجاتها، هل يمكن أن تذكر بعض الخصائص التي لاحظتها من خلال رصدك؟

محمد جكيب: الذي ألمسه هو أن هذه المخرجات هي مخرجات تتمثل في إنسان فعَّال، إنسان له قدرة كبيرة على الإبداع، إنسان له قدرة على إبداع طرق للتفاعل مع الآخر.. للتفاعل مع محيطه.. مع مجتمعه.. مع عالمه بشكل إيجابي.

مخرجات متسامحة مسالمة لكنها ليست سلبية.. متسامحة مسالمة لكنها فعَّالة وإيجابية في خلق واقع يتعايش داخله الجميع.. في خلق واقع يتجاوز الأزمات.. لا يقحم نفسه فيها .. يشتغل من أجل عالم يسوده التفاهم والمحبة وتقديم الخدمة. وحتى مصطلح الخدمة هذا يحمل في عمقه هذا البعد.. تقديم خدمة للإنسان.. تقديم خدمة للوطن.. تقديم خدمة للعالم، وأظن أن هذه النقطة بالذات هي التي ستخلق أو يجب أن تخلق الاطمئنان لدى الغير. ومن يختزل الخدمة في منافس سياسي أو شيء من هذا القبيل يخسر أشياء كثيرة، لأنك عندما تختزلها في هذه النقطة تُلغي جوانب أخرى ومجالات كثيرة فيها حضور قوي لمخرجات هذه الخدمة. في أماكن كثيرة أتيحت لنا الفرصة لزيارة مؤسسات الخدمة، رأينا أن هناك مخرجات إنسانية مهمة جدًا؛ إنسان واعٍ بواقعه.. واعٍ بأهمية المعرفة.. واعٍ بدوره في خدمة الإنسان.. واعٍ بضرورة أن نعيش جميعًا في إطار عالم يسوده السلم والسلام والتسامح والحوار.. واعٍ كذلك بأهمية أن يكون عونًا للسلطة السياسية في صناعة الأوطان. فكل هذه مخرجات مهمة، بالإضافة إلى مخرج مهم جدًا وهو أن تُوجِد نموذجًا بشريًا متصالحًا مع الوجود ككل.

نحن نعلم اليوم أن حقيقة الإنسان مع التطور العلمي في بعض الاتجاهات سارت مسارًا غير سليم؛ هناك بعض الجهات تصنع أسلحة الدمار الشامل،

هذه تؤذي الإنسان، لكن عندما تُوجِد نموذجًا بشريًا يعرف حقيقة المعرفة العلمية ويضبطها ومتقدم فيها لكن يربطها بما لا يفسد، وبما لا يعود بالنفع على الإنسان هذا مُخرج مهم، يمكن أن نرى أثر ذلك في المستقبل. إذا كانت هناك أسلحة الدمار الشامل اليوم فغدًا ربما سنتحدث عن علم سعادة الإنسان الشامل.

نوزاد صواش: ما دمنا نتحدث عن الغد، دكتور سمير، رأيت التجربة في مناطق مختلفة؛ في أفريقيا في أستراليا وأوروبا وما إلى ذلك، الخدمة في خطاباتها.. في تحركها.. إسهامها في الساحة العالمية، إذا واصلت على هذا الشكل واحتضنتها البشرية، ما رسالتها؟ كيف ترى المستقبل؟

سمير بودينار: القضية هنا هي قضية النموذج الخاص من الإنسان الذي ننشده، عندما نرى الآن نموذج الخدمة أو مؤسساتها عبر العالم سنراها في بيئةٍ ما يقال عنها "إنها أكثر تقدمًا" تعمل بوتيرة أسرع، وفي بيئة أخرى يقال "إنها تمضي بشكل بطيء" تختلف وتيرتها في العمل، في بيئة أخرى يقال عنها "إنها منفتحة جدًا" لها مستوى من الأداء وفي بيئة أخرى ينظر إليها البعض على أنها محافظة لها مستوى آخر من الأداء، ما معنى هذا؟ معناه أن هنالك نموذجًا كامنًا.. نواة، وهذه النواة فيها نفس السمات والخصائص التي لهذا الإنسان الذي يشعر بالهمِّ، عنده رؤية تتسم حركته بالاعتدال.. يراعي سمات الواقع ويمضي في كل بيئة من البيئات بحسب الشروط والمتطلبات التي تحتاجها هذه البيئة. أن تكون عندك هذه القدرة على أن تستلهم ذات

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الخدمة بالنسبة لي هي "المنظومة الإسلامية كما عاشها الرسول ﷺ والصحابة ﷺ في مرحلة من المراحل بروحها في الوقت الراهن.

القيم ونفس الرؤية بنفس الوتيرة وتتحرك بها في بيئات مختلفة، هذا ليس له إلا تفسير واحد وهو أن النموذج الإنساني الكامن نموذج فعال قادر على التحديات والأسئلة في كل بيئة مع اختلاف البيئات وأسئلتها وقضاياها الشائكة.

نوزاد صواش: هذه التجربة ليست مشروعًا تركيًا.

سمير بودينار: هي طبعًا ليست كذلك؛ هذه الرؤية هي رصيد مهم في الإصلاحية الإسلامية الحديثة، وهي في ذات الوقت خطاب موجه للإنسان في كل مكان، تستلهم ميراث مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول: "حيثما كنت تعال ولو ذهبت أكثر من مرة ارجع تعال نحن هنا"، يعني تفتح دائرة التواصل والتعارف مع أكبر قدر ممكن من بني الإنسان في كل مكان. هذه قيمة يحتاجها المسلمون اليوم كما لم يحتاجوا إليها سابقًا، ولذلك أنا أعتبر أن هذا الميراث الحضاري المهم ينبغي أن لا يُنظر إليه باعتباره ملكًا لدولة أو قُطر؛ المسألة ليست كذلك، ولا أن ينظر إليها بمنطق المحازبة والمحاصصة والطائفية وهذا في مقابل ذاك؛ هذه قيم وهذا نموذج إصلاحي متقدم هو في ملك الأمة لصالح الإنسانية وينبغي أن يتعامل معه كذلك. وحتى الذين قد ينظرون إليه نظرة قاصرة في مرحلة من المراحل عندما تمتد

التجربة -كما يحصل اليوم- في بلدان كثيرة في العالم، داخل الوطن العربي، داخل عالم المسلمين في العالم يصحصون نظرتهم، عندها ينظرون إليه باعتباره يدًا إيجابية ممدودة جاء لصالح الناس؛ ليس له مشروع سري أو وهمي، ليترك هذا أو يلحق الآخر بثقافته الشخصية أو يصبغ الناس جميعًا بصبغة واحدة، أو يحولهم إلى أجزاء، ليست القضية شيئًا من ذلك أبدًا.

نوزاد صواش: ونحن أمام واقع، يمكن أن نرصده في كل مكان.

سمير بودينار: بالتاكيد، ثم إن غاياته وأهدافه، هذه الأشياء كلها تبدو إلى جانبه صغيرة جدًا. الفكرة هنا هي إعادة بناء حضارة كامنة.. إعادة بعث إنسان جديد رسالته رحمة للعالمين في كل مكان. أين هذه الغايات والأهداف الكبرى من هذه الأشياء التي لا أريد أن أصفها بأوصاف لا تليق.

إذن القضية جوهرها تعالوا انظروا.. قوّموا فكروا.. انقدوا ليس مهمًا.. لكن المهم أن نعرف المشروع على حقيقته.. أن نفهم هذا النموذج فهمًا سليمًا، لأنه فعلاً يمثل عنصرًا أساسيًا في الاجابة على أسئلة المستقبل؛ ليس بالنسبة للإنسان في هذه المنطقة أو في عالم المسلمين فحسب، ولكن في أن تصل الإنسانية جميعًا إلى بر الأمان.

نوزاد صواش: ربما لا توجد تجربة كتجربة الخدمة تفتح أبوابها للجميع، يأتيها زوار من كل أنحاء العالم.. من كل الثقافات.. من كل الأديان.. تفتح لهم أبواب مؤسساتها على مصارعها.. تعالوا انظروا اسألوا، قيّموا. سؤال أخير بجمل قصيرة دكتور جكيب ما الخدمة والأستاذ في جملة واحدة؟

محمد جكيب: الخدمة بالنسبة لي هي "المنظومة الإسلامية كما عاشها الرسول ﷺ والصحابة ﷺ في مرحلة من المراحل بروحها في الوقت الراهن. والأستاذ هو ذلك الربان الذي له دراية بخبايا القيادة وهو يعرف متى يلتف يمينًا ومتى يلتف في هذا الاتجاه ومتى يتوقف ومتى يسير وله عين ثاقبة ترى الأفق بنظرة. هذه الروح يستمدها من هذه المنظومة التي يتفاعل معها قلبيًا.

نوزاد صواش: نعم، دكتور سمير.

سمير بودينار: طبعًا الأجوبة المختصرة ليست سهلة؛ الخدمة هي من تجليات بركة الوحي في حياة الأمة "القرآن" العابر للزمان والمكان في بركاته، هي استجابة هذه الأمة لدعوة أدركت بفطرتها ووعيها التاريخي أنها دعوة صادقة، وأنها رؤية تأخذ بيد الناس إلى المستقبل ليعيشوا دينهم بمقتضى عصرهم وهذا هو الذي يفسر طاقتها وفعاليتها في كثير من البلاد. الأستاذ فتح الله كولن رجل استثنائي، يتحمل مسؤوليته وحظه من ميراث النبوة، الذي هو ميراث العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، ويقوم بمسؤوليته في تحمل هذا الميراث وهذه الأمانة في حدودها القصوى. ولذلك كان رجلاً بهذا القدر من التأثير والفعالية والاقتداء بالنسبة للناس في كثير من أنحاء العالم.

نوزاد صواش: شكرًا جزيلًا، كان لقاء طيبًا دسمًا يحب الإنسان أن يمتد به لكن نكتفي بهذا القدر الآن. أشكركما على هذه الأفكار النيِّرة التي نثرتموها بين أيدينا بمنتهى السخاء. ■

مقومات وشروط البناء الحضاري في فكر فتح الله كولن

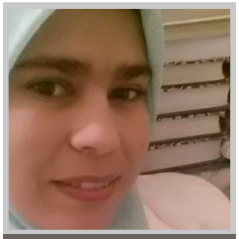

نادية لوطفي

ذ. نادية لوطفي باحثة بمركز دكتوراه المعرفة والحضارة، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال المغرب، حاصلة على ماجستير في الدراسات الإسلامية تخصص الحوار الديني والثقافي وقضايا التجديد في الثقافة الإسلامية، أستاذة التعليم الثانوي والإعدادي مادة التربية الإسلامية، تحضر رسالة أطروحة دكتوراه بموضوع الفكر النقدي في الرؤية القرآنية "دراسة في الأسس المنهجية و التصورية للفكر النقدي".

يقع الإنسان -بوصفه خليفة الله في هذه الأرض- في لبِّ المشروع الحضاري الذي يسعى الأستاذ كولن -عبر أفكاره المبثوثة في كتبه، وعبر مشاريع الخدمة التي يرودها- إلى إنضاج المنهج الذي يُمكِّن من إعادة بناء هذا الإنسان وصياغته بشكل يؤهله لمسؤوليات هذا الاستخلاف. وقد أجملت الكاتبة معالم وأسس هذه الرؤية المتكاملة للأستاذ كولن في العناصر الآتية:

١- التربية أساس بناء الإنسان، حيث يعتقد الأستاذ كولن أن الرؤية التربوية هي خطة العمل الاستراتيجية لعملية بناء الإنسان، ويعتبر التوبة أول خطوات التربية.

٢- تأصيل الثقافة لتشييد الحضارة، إذ لا سبيل لبناء حضارة الأمة دون تأصيل الثقافة الإسلامية.

٣- منهج البناء من الداخل، الذي يبني منطق الأمة من داخل مقوماتها الذاتية وليس من خارجها.

٤- روح المسؤولية، فأخلاق المسؤولية -كما عبر عنها الأستاذ كولن- أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وخيالنا.

يتميز الخطاب الفكري للأستاذ فتح الله كولن بكونه خطابًا إصلاحيًا ذا طابع قيميٍّ أخلاقيٍّ تربويٍّ مركزُه الإنسان، فمشروعه الفكري عبارة عن محاولات جادة لإنضاج المنهج الذي يمكِّن من إعادة بناء وصياغة الإنسان، بشكل يؤهله لمسؤولياته في الحياة، فيتحدث كولن عن الإنسان الجديد وخاصياته، الإنسان الذي يوازن ويدقق ويستفيد من التجارب ويرغب في الوصول للكمال، الإنسان الذي يستحضر البعد الأخروي في حياته اليومية ويوازي بين الدنيا والآخرة في سعيه، الإنسان الذي يسعى للحرية ويقدّرها، ويهتم بتحقيق وحدة المسلمين، ويتخذ القيم والأخلاق أسسًا لحياته. الأخلاق التي تتأسس على الدين باعتبار راهنية دوره وأثره اليوم في التغيرات العالمية، وقدرته على الإجابة عن أسئلة الإنسان بناءً على السمة التجاوزية والاستيعابية للدين، كأحد أبرز مقومات البناء والبعث الحضاري. ذلك أن قدرة الدين الإسلامي التجاوزية والاستيعابية، تُمكِّنه من التجاوب مع قضايا الإنسان والانفتاح على الآخر من غير ذوبان في ثقافته، باعتبار الدين كلاً لا يتجزأ.

و يركز كولن على التعامل مع مجريات الواقع، وعدم التعالي على العصر، وقد وضع تحقيبًا لمراحل النهضة يستبشر من خلاله بالمستقبل، يقول "لقد كان القرن الثامن عشر قرن التقليد الأعمى وكان القرن التاسع عشر قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفنتازيات واصطدموا بماضيهم وبمقوماتهم التاريخية. وكان القرن العشرون قرن الذين اغتربوا عن أنفسهم وذواتهم، ينقبون عن من يرشدهم وينير لهم الطريق في عالم غير عالمهم، ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق تبشر بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبثاق نهضتنا من جديد"[1]، ومن هنا تأتي دعوته إلى التعامل مع العصر الراهن بأسئلته وإشكالاته وكذلك بفرصه التي يمنحها. إن رؤية فتح الله كولن تقوم على أسس متكاملة نُجملها في ما يلي:

١- التربية أساس بناء الإنسان

يعتقد كولن أن الرؤية التربوية هي خطة العمل الاستراتيجية لعملية بناء الإنسان، بحيث يركز على النموذج الأخلاقي، لأن الأخلاق في نظره كفيلة ببناء الإنسان "إن إصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحقة. وعندما تُبذر البذور المقدسة التي هي عبارة عن خليط من الشعور الديني والتاريخي والأعراف في أرجاء الوطن، فستُرى نبْتات وشتلات عدة وهي تنبت في موضع كل شر محته"[2].

ويعتبر التوبة أول خطوات التربية:

توبة الأشخاص، ويقصد بها توبة كل فرد، يقول: "أول منزل للسالك وأول مقام للطالب هوالتوبة"[3].

توبة مؤسسات الدولة: "إنَّ على كل مؤسسة تمثل المجتمع أن تتوب، وتكون توبتها بفهم أنواع الأخطاء التي اقترفتها وأنهكتها وأفلستها، والقيام من

ثم بتلافيها. وتكون توبة الكادر الإداري بفهم وفحص جرائمه وأخطائه وذنوبه، ثم اتخاذ موقف آخر مضادٍّ تجاهه ومعاكس، وتجديد نفسه وإحيائها. وإلا فإن عُقَد خمسين ألفًا من مراسيم الندامة وشعائرها لا تفيد. ولا تقطع بها خطوة واحدة إلى الأمام. فتبًّا وألف تبٍّ لمن يرى الداء دواء، وتبًّا وألف تبٍّ لمن خُدع بهذا مرارًا وتكرارًا! تتسامى أفراد المؤسسات العدلية والقضائية بقراراتها الصائبة والصحيحة التي ابتغت بها وجه الحق والعدل، وتكون مرشحة لأسمى المراتب الأخروية. وكل ساعة عدل منها تعد أعواما من عمل الخير في حقها لدى الحق تعالى. ولا تقل عن درجتها هذه عندما تندم وترجع إلى نفسها بعد أي قرار خاطئ. ولكنها عندما لا تبالي بالحق، وعندما ترى أن الحق للقوة وللقوي، وتضحِّي بالحق على مذبح القوة لا تستحق حينذاك أي عفو أو توبة"[٤].

توبة مؤسسات التربية والتعليم: باعتبار هذه المؤسسات حاضنة لفكر الأفراد وثقافتهم فقد خصها كولن بالتوبة "فما دامت هذه المؤسسات محافظة على مشاعر الأمة وأفكارها ومقدساتها، ومدافعة عنها وصائنة لها، استحقت كل تبجيل وتقدير. فإن رَوَّجت للأفكار المنحرفة والمشوهة سقطت إلى درك أسفل من درك اللصوص والمجرمين. وما لم تعد إلى رشدها وتتخذ موقفًا حازمًا تجاه الأفكار الأجنبية والمخربة، فلا تُقبل منها توبة، ولا مغفرة لها"[٥].

لقد جعل فتح الله كولن التوبة بداية طريق نحو البناء الحضاري الإنساني، إذ جعلها فرضًا على

الخطاب عند محمد فتح الله كولن تميز بحضور كبير للوجدان والجمالية، من خلال تركيزه على الروح والقلب والتوبة والمحبة... وعلى الرغم من الطابع الوجداني الذي يغلب عليه إلا أنه لا يخلو من الخصائص العقلية.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كل فرد "على جميع من لهم علاقة بمصير هذه الأمة وقدرها من الناحية المادية أو المعنوية، وعلى جميع أصحاب الأرواح المخلصة الذين نذروا أنفسهم لهذه الأمة أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا. أجل! فعلى جميع هذه المؤسسات والأفراد أن يراقبوا أنفسهم مرة أخرى عن كثب، فيروا نصيبهم من الإهمال والأخطاء والآثام. وعلى الذين يسعون لاهثين وراء المناصب، الذين على أعينهم غشاوة من حبهم المحصور على حزبهم، وفي آذانهم صمم، الذين تركوا بأفكارهم الشاذة الأجيال الصاعدة دون قلب ولا روح، الذين يرون بطغيانهم وجبروتهم أن الحق للقوة، والذين أعلنوا الحرب على كل ما يخالف أفكارهم حتى وإن كان من مصدر إلهي، الذين لا يرون ولا يدافعون إلا عن مصالحهم ومنافعهم، الذين لا يرون بأسًا من أي تزوير أو كذب أو خداع وتدليس، الذين يرون كلَّ وسيلة مشروعةً من أجل الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم، الذين يتقلبون ويتلونون مع كل عهد.. على كل هؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يعلنوا وللمرة الأخيرة عن توبتهم باسم الإنسانية وأن يجددوا قسمهم ويمينهم عليها"[٦].

لقد ركز فتح الله كولن على التوبة كأول طريق نحو التربية الإيمانية التي يعتقد أنها السبيل الأهم للنهوض الحضاري. وهذا الخطاب التربوي عند كولن غالبًا ما يعتمد على إثارة الحماس والتأثر الوجداني لدى الأفراد للتعلق بالقيم الدينية، وإذا كان هذا النوع من الخطاب له نتائج محمودة فإنها غالبًا ما تكون محكومة بالظرفية المكانية والزمنية، إذ سرعان ما يصيبها الفتور ما لم تتحول هذه القيم إلى قناعات راسخة لدى الأفراد. وقياسًا على التجربة النبوية في صياغة الإنسان المسلم الملتزم بتعاليم دينه، نجد أن الخطاب التربوي كان خطابًا عمليًا أكثرَ منه نظريًا، مما أسهم في جعل القيم الإسلامية تنعكس على تعاملات الأفراد وتترجم إلى ممارسات عملية. ولعل ما جعل كولن يركز في خطابه على التربية بهذا المفهوم، أي التربية على قيم الأمانة والعدل والصدق والإتقان، هو غياب كل هذه القيم في الإنسان واعتماد القوانين الزجرية بدلها؛ ومن هنا يركز اهتمامه على غرس هذه القيم الأخلاقية والتربوية كفكر مرجعي وسلوك عملي لدى الأفراد، وكقانون منهجي تعمل به المؤسسات والهيئات المختصة بالتسيير والتدبير.

٢- تأصيل الثقافة لتشييد الحضارة

الثقافة والحضارة مفهومان متلازمان في فكر فتح الله كولن؛ فلا سبيل لبناء حضارة الأمة دون تأصيل الثقافة الإسلامية، وذلك لا يتم إلا بتجاوز منهج التقليد والتبعية سواء منها الداخلي "الثراث" أو الخارجي من الحضارات الأخرى. وقد اعتبر أن الثقافة كلٌّ لا يتجزأ، وهو منهج الإسلام الشمولي في نظرته للكون والإنسان، ولعلاقة الإنسان بمحيطه وبذاته وبكل شيء "فالاستعارة لا تزيد الأمة إلا تبعية بل ينبغي أن نبني ذاتنا من ذاتنا، إن رؤية كولن للثقافة تنطلق من اعتبارها مفهومًا مستوعبًا لكل الخصوصيات التربوية والدينية والعادات والتقاليد والفنون والأعراف. وكل ممارسة لها تعبير في الثقافة فهي ليست مجرد ممارسات سطحية، بل أعمق من ذلك باعتبارها تعبيرًا عن الدين الذي هو ملازم للإنسان في كل جوانبه الفنية والعادات والعلوم وكل شيء، وتعبيرًا عن العادات والأعراف التي دأب على ممارستها الإنسان.

فالإنسان عند كولن هو صانع الحضارة ومركزها، ولذلك فبناء الحضارة لا يتأتى إلا ببناء الثقافة على أسس قيادية قوية قادرة على التدافع الكوني، وتقديم رؤية أخلاقية كونية للدين والفكر والإنسان، تُصالح الإنسان مع فطرته، وتُوجهه نحو مهمته الحقيقة، يقول كولن: "تتشكل الثقافة الحقيقية من خلال التمازج والتفاعل بين الدين الحقيقي وبين الخلق السامي والفضيلة في بوتقة العلوم المهضومة جيدًا، ووصول هذا المزيج إلى المستوى المطلوب من النضج. لذا لا يمكن الحديث عن الثقافة الحقيقية في أي جو من اللادينية والهبوط الأخلاقي والجهل، ولا يمكن لأي إنسان أن يعيش في مثل هذا الجو دون الاستفادة من هذا المنبع"[٧].

فالثقافة عند فتح الله كولن "تظهر وتولد

وتنمو من طبيعة الأمة والمجتمع. والثقافة بالنسبة للمجتمع بمثابة الزهور والثمار بالنسبة للشجرة. والأمم التي لم تنجح في إنضاج ثقافتها أو الأمم التي فقدت ثقافتها تشبه الأشجار العقيمة التي لا تعطي أثمارًا، وكل ثقافة امتزجت مع ماضي الأمة وارتبطتْ بجذور روحها تستطيع إنارة طريق الحياة والتقدم أمامها. وعلى النقيض من هذا فإن قيام الأمة بتسليم نفسها إلى أحضان فكر وثقافة أجنبية والسير متذبذبة ذات اليمين وذات اليسار سيؤدي إلى اضمحلال تلك الأمة وتفسخها. إن رقي أي أمة وتقدمها مرتبط بمدى التربية التي تلقاها أفرادها من الناحية العاطفية والفكرية.

٣- منهج البناء من الداخل

يقترح فتح الله كولن لزوم المنهج البنائي الذاتي الذي يبني منطق الأمة من داخل مقومات الأمة الذاتية وليس من خارجها، ويكون بذلك تجاوز أيضًا منهج التوفيق أو التلفيق أو التركيب معتبرًا هذه المنهجية ثبتت من خلال عدة تجارب مثلها في تاريخ الأمة. ويقوم منهج البناء الذاتي لديه على خصائص منها:

تلازم الحركية والفكر: لأن الفكر وحده لا يستطيع النهوض بالأمة من مزالقها يقول: "يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا بوجهه الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر. حركية وفكر يغيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة

المسؤولية عند كولن أساس تربوي تنبني عليه النهضة باعتبار أن "أخلاق المسؤولية أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وخيالنا. ...لذا يرى كولن أنه لا مفر من ضبط تصرفاتنا بالمسؤولية. بل ينبغي شد كل جهد لنا بهذه المسؤولية،

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة. وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات، الحركية المستمرة والفكر المستمر. ومهما ضحينا في هذا السبيل، فإن لم نتحرك نحن فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم"[٨].

التحذير من تغريب الأمة: لقد حذر فتح الله كولن بقوة من تغريب الأمة وتفكيك عوامل تماسكها "إن إبعاد أمة كاملة عن ذاتها وعن هويتها، وزرع أدمغتها بأفكار غريبة عنها، وهدم محرابها، وتحويل منبرها، ليست من الآثام التي يمكن أن يغفرها التاريخ ولا المحكمة الإلهية يوم الحساب"[٩]. ولا يلقي باللوم على حاملي مشاريع التغريب، بل يلقي كل اللوم على أبناء الأمة الواعين بمرجعيتها الصحيحة يقول: "أجل! إن على الأسرة والمجتمع والوطن أن يحذر جدًّا من أصحاب الأرواح الفجة التي لم تتهذب

إن إصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة وبتثقيفها ثقافة صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحقة.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

بالتوحيد؛ فأصحاب هذه الأرواح المنكودة التي اسودّت بالدخان، وصدِئتْ حتى فقدت شفافيتها، وحل السواد محل البياض الناصع في العالم الداخلي لهم لا يتورعون -إن لم يكن اليوم فغدًا- من حرق الوطن وكل شيء. ولا يمكن أبدًا التهوين من مقدار الخيانات التي اقترفها هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم ووضع عليها غشاوة فيما مضى من الزمن وفي هذا الزمن.

ولكن يجب التنويه بأننا -في المطاف الأخير- نحن المسئولون عن الذين باعوا الوطن لهذا أو لذاك، وحولوا الغابات والبساتين إلى صحاري جرداء، ونحن المسؤولون عن هؤلاء الجهَّال عديمي الإيمان والضمير من الدمى بأيدي الآخرين الذين اقترفوا كل هذه الإساءات. أجل! نحن الذين أهملنا ونحن الذين أفسدنا، نحن الذين جعلنا عديمي الإيمان هؤلاء لا يبالون بأي شيء، ونحن الذين سندفع الحساب، سندفع الحساب اليوم ونحن في القبضة الحديدية للحوادث والبلايا، وسندفع غدا أمام التاريخ، ثم سندفعه يوم المحكمة الكبرى، يوم لا يعزب عن ربك مثقال حبة من خردل"[١٠].

٤- روح المسؤولية

المسؤولية عند كولن أساس تربوي تنبني عليه النهضة باعتبار أن "أخلاق المسؤولية أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وخيالنا. ولما كان السكون والجمود موتًا وانحلالاً واللامسؤولية في الحركة فوضى ولغطًا، فلا مفر من ضبط تصرفاتنا بالمسؤولية. فينبغي شد كل جهد لنا بالمسؤولية، طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحق، وغايتنا تحري رضاء الله في كل رّفة عين، والأصل أن هذه صَدَقة كينونة الإنسان وحكمة وجود الإرادة. نحن نحسب أنفسنا مضطرين إلى التحري عن غاية الحياة في حياتنا، والتوصل إلى العشق في أرواحنا، والوعي بشعور المسؤولية في وجداننا، وإرشاد المستيقظين على منبع نظام أساسه وأصوله الإيمان، ومصدر قوته العشق، ونوره العلم والفن والأخلاق والحكمة. فنحتسب أنفسنا عبيدًا لهذه الرسالة عبودية لا انعتاق منها، وستكون بداية لنهضة عالمية ثانية، هذه الجهود التي نرجو انتشارها وتطورها في استقامة وروحانية جميع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين منذ البداية إلى اليوم"[١١].

إن الخطاب الفكري لفتح الله كولن على الرغم من الطابع الوجداني الذي يغلب عليه إلا أنه لا يخلو من الخصائص العقلية، "فمن العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمرر التجربة من مصفاة العقل، ومالم يُسلِّم العقل نفسه للفطنة العظمى (النبوة)، فبهذا النظر يكون العلم بُعدًا من أبعاد

الدين وخادمًا له، والعقل طيف نور يصل به الإلهام أينما يشاء والمكتسبات التجريبية منشورًا يعكس روح الوجود.ويصدح كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني. ويربط كولن بين القلب والروح لأجل حياة ذات آفاق عالية يقول: "والحقيقة أن هذا هو السبيل لربط الحياة وجعلها تحت إمرة القلب والروح. وهكذا فإنْ قام الإنسان -باعتبار هذا المستوى أفقًا حياته- بالتعامل مع الأفكار السامية في كل حال من أحواله، ووجَّه حياته لواهبها ورأى أن الإحياء أعمق شيء في الحياة، ورنا بنظره نحو الذرى على الدوام تحول -أراد ذلك أم لم يرد- إلى شخص يطبِّق برمجة سامية، لذا يقوم بلجم أهوائه وبتضييق أذواقه الشخصية ولكن ضمن إطار معين.

إن الإنسان في هذا العصر أحوج ما يكون إلى المحبة والكلمة الطيبة، والنظرة الحانية، لتعود إليه آدميته، ويرجع إلى فطرته، وإنسانيته التي تخلصه كم الشرور والاضطرابات التي ضاق ذرعا منها.

و خلاصة القول: إن الخطاب عند محمد فتح الله كولن تميز بحضور كبير للوجدان والجمالية، من خلال تركيزه على الروح والقلب والتوبة والمحبة، وهي عبارات تنتمي لنفس الحقل الوجداني، وهو طابع غلب على خطابه، بل هو سمة مميِّزة للرجل؛ فهو رجل مرهف الإحساس، كثير البكاء، سريع التأثر، فلا تجد صعوبة في ملاحظة ذلك في أغلب خطبه وتواصلاته مع الناس. وهي سمة لم تميزه فقط، وإنما ركَّز عليها في حركته ودعا إلى تربية الأجيال عليها، فهل يمكن اعتبار هذا الطابع المميز في خطاب كولن، مدخلاً مهمًّا من مداخل الإصلاح والبناء الحضاري، وهل التجربة التركية بهذه المقومات والاقتراحات يمكنها أن تخرج من المحلية إلى العالمية وتصلح لكل البيئات والثقافات؟ ■

الهوامش

(١) مجلة حراء، العدد:١١، مقال فتح الله كولن «الإنسان الجديد».

(٢) ٧٧، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر-مصر، ط٣، ٢٠٠٧م.

(٣) ٣٧، التلال الزمردية، فتح الله كولن، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للنشر-مصر، ط٣، ٢٠٠٧م.

(٤) جيل الحداثة "التوبة" صفحة الأستاذ كولن الرسمية.

(٥) جيل الحداثة "التوبة" صفحة الأستاذ كولن الرسمية.

(٦) جيل الحداثة "التوبة" صفحة الأستاذ كولن الرسمية.

(٧) ٨٠، الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر-مصر، ط٣، ٢٠٠٦م.

(٨) ٥٧، ونحن نقيم صرح الروح ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل للنشر-مصر، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٩) ١٢٢، ترانيم قلب وأشجان روح، فتح الله كولن، ترجمة أورخان محمد على، دار النيل للنشر-مصر، ط٤، ٢٠٠٨م.

(١٠) ١٢٢، المصدر السابق.

(١١) ٩٤، ونحن نقيم صرح الروح، "الشعور بالمشؤولية".

المصادر و المراجع

١- و نحن نبني حضارتنا، ط٤ ٢٠٠٨م، دار النيل -مصر.
٢- ونحن نقيم صرح الروح، ط٤، ٢٠٠٨م، دار النيل-مصر.
٣- الموازين أو أضواء على الطريق، ط٣ ٢٠٠٧م، دار النيل-مصر.
٤- روح الجهاد و حقيقته في الإسلام، ط٥، ٢٠٠٨م، دار النيل-مصر.
٥- طرق الإرشاد في الفكر و الحياة، ط٤، ٢٠٠٨م، دار النيل-مصر.
٦- التلال الزمردية، ط٣ ٢٠٠٧م، دار النيل للطباعة و النشر-مصر.
٧- مجلة حراء "مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول، (سابقا)، القاهرة حاليًا".

الإسلام والعالم
قراءة في ظلال النور الخالد

إبراهيم البيومي غانم

أ.د. إبراهيم البيومي غانم، أستاذ العلوم السياسية، ومستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة.
عضو منتدى الحوار العربي الأوروبي الأمريكي، وعضو اللجنة الاستشارية العليا لإصدار كتب الفكر النهضوي الإسلامي بمكتبة الإسكندرية.
من مؤلفاته : مقاصد الخير وفقه المصلحة، ومقاصد العمل الخيري والأصول الإسلامية للمشاركة الاجتماعية.
له باللغة الإنجليزية بحوث ومؤلفات منشورة.

في إطار فقرة من فقرات كتاب "النور الخالد محمدﷺ مفخرة الإنسانية"، للأستاذ فتح الله كولن، حاول الكاتب أن يعرض معالم رؤية الإسلام للعالم من منظور فكر فتح الله كولن.

بدأ الكاتب دراسته بتقديم لمحة تعريفية معرفية عن الأستاذ كولن مبينًا أنه مجدد للخطاب الإسلامي من الطراز الأول، فضلاً عن أنه قارئ متعمق ومستوعب للنظريات الفلسفية وغيرها التي أنتجها العقل البشري، ثم اهتداءً بالفقرة المختارة من كتاب "النور الخالد" قدَّم الكاتب الأصول الإسلامية لرؤية العالم، كما ألقى الضوء على أهم مظاهر اختلال وافتراق الواقع العالمي الراهن عن الأصول الإسلامية من منظور تلك الرؤية، وعرض الكاتب الملامح الرئيسية التي اتَّسمت بها العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب في التاريخ المعاصر، ليصل بعد ذلك إلى سؤال المستقبل والآفاق التي تفتحها هذه الرؤية أمامنا من أجل عالم أكثر سعادة، وأكثر أمنًا، وأكثر عدالة، وأكثر تسامحًا. ثم خُتمتْ الدراسة ببيان محاور العلاج الذي يقدمه الأستاذ كولن للخروج من هذا الواقع والوصول إلى حالة التوازن بمعايير المرجعية الإسلامية.

قصدت بـ"النور الخالد" نور سيدنا محمد ﷺ. واقتبست هذا الوصف من عنوان كتاب الشيخ محمد فتح الله كولن "النور الخالد: محمد مفخرة الإنسانية". وقد اخترت -عند استعدادي لكتابة هذا البحث- أن أكتب عن رؤية "الإسلام للعالم" كما تراءت لي في كتابات الشيخ محمد فتح الله كولن ونشاطات "الخدمة" هكذا جملة واحدة، ولكنني سرعان ما أدركت أن اختياري بالغ الاتساع، وأنني لو مضيت فيه فإنه سيصرفني فقط إلى القراءة في كتابات الشيخ، دون الكتابة عما أقرأ. وتأكدت أنني قد لا أجد يومًا أتفرغ فيه للكتابة بعد أن وجدتُني أقرأ للشيخ فأكتشف كنوزًا من أبكار الأفكار في كل كتاب من كتبه؛ بما يحتاج إلى بحث مستقل. فعدلت عن خطتي وغيرت وجهتي، وقلت لنفسي سأكتفي بكتابين أو ثلاثة من كتبه التي فاقت الستين كتابًا؛ كي أستبين منها تصوره وفهمه لرؤية العالم من منظور أصول الإسلام ومبادئه وأحكامه. ولكنني وجدت أن الأمر لا يختلف كثيرًا عن اختياري الأول، فعدلت عن ذلك وقلت: إذن سأكتفي بكتاب واحد من كتبه وليكن "النور الخالد" في سيرة سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ. وشمرت لذلك عن ساعد الجد، وواصلت ساعات النهار بزلف من الليل لعلني أمسك بأطراف الموضوع الذي تهيأت له، وأستوعب كل ما له صلة به بين دفتي النور الخالد. ولكنني للمرة الثالثة وجدتُني غارقًا في محيط من الأفكار، غير قادر على تنفيذ خطتي هذه، ولا الوصول -في وقت معقول- إلى منتهى غايتي منها. ولم أجد في نهاية المطاف إلا القنوع بشرح فقرة واحدة وردت في "النور الخالد". نعم فقرة واحدة وردت ضمن حديثه عن صفات الأنبياء في هذا الكتاب قال فيها الشيخ مخاطبًا من سماهم حينًا "الضاربين في الأرض"، وحينًا " براعم الأمل":

"أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيمن حولكم، إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. فإذا كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشئون الدولية المهمة، ونلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك؛ فيجب أن نكون ممثلين للحق والعدالة وللاستقامة وللأمن"[1].

مهمتي هي قراءة ما أراد أن يقوله الشيخ فتح الله في هذه الفقرة وفي أمثالها من العبارات والفقرات المبثوثة في كتبه ومقالاته. ما أقدمه ليس أكثر من قراءة. ثم بعد بيان المعالم التي تنطوي عليها رؤيته للعالم؛ سأبين أهم مظاهر اختلال الواقع العالمي

إن الإسلام يصنع السلام أولًا في ضمير الفرد، ثم في محيط الأسرة، ثم في وسط الجماعة، وأخيرًا يصنعه في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الراهن من منظور تلك الرؤية، وضمن هذا السياق أعرض الملامح الرئيسية التي اتسمت بها العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب في التاريخ الحديث والمعاصر، لأصل بعد ذلك إلى سؤال المستقبل والآفاق التي تفتحها هذه الرؤية أمامنا من أجل عالم أكثر سعادة، وأكثر أمنًا، وأكثر عدالة، وأكثر تسامحًا.

سأبدأ في البند "أولًا" بتقديم لمحة تعريفية معرفية عن الشيخ محمد فتح الله، ثم أقدم شرح الفقرة المختارة في البند "ثانيًا" لنتعرف منها على الأصول الإسلامية لرؤية العالم، وفي البند "ثالثًا" أوضح ملامح افتراق الواقع عن تلك الأصول، ثم أختتم ببيان محاور العلاج الذي يقدمه الشيخ فتح الله للخروج من هذا الواقع والوصول إلى حالة التوازن بمعايير المرجعية الإسلامية.

أولًا: التعريف بالشيخ فتح الله معرفيًا

إن سِيَرَ كثير من المصلحين والعلماء المجددين -وكبار القادة والزعماء عامة- تدلنا على أن الأفكار التي يدعون إليها والمشروعات التي ينجزونها، تؤدي دورًا مهما في توجيه مسار تطور مجتمعاتهم، وأيضًا في رسم ملامح العلاقات والصور المتبادلة بين شعوبهم والشعوب الأخرى. ومن هنا يغدو التعريف بهؤلاء أمرًا بالغ الأهمية؛ ليس فقط للوصول إلى فهم أفضل لأفكارهم واجتهاداتهم -وفق ما يوصي به علم اجتماع المعرفة- وإنما أيضًا في تقدير دورهم في تكوين الصور المتبادلة بين تلك الشعوب.

تدلنا سيرة حياة "الشيخ فتح الله كولن" -أو الشيخ محمد فتح الله "البسَّام" كما أحب أن أسميه بالعربية- على أنه سار على درب واحد من مبتدأ حياته إلى اليوم؛ فكان ولا يزال داعيًا من دعاة الإسلام، ومجددًا من الطراز الأول للخطاب الإسلامي في العصر الحاضر. ولم يكن يومًا غير ذلك، ولم يؤمن بتوجه غير إسلامي، رغم كثرة التيارات الفكرية والفلسفية التي ماج بها عهد الجمهورية التركية، منذ بدايته إلى مطلع القرن الحالي. ومع ذلك؛ نجد الشيخ مطلعًا بتوسع على نظريات ورؤى وأفكار التيارات والفلسفات الأخرى؛ ما كان منها في بلده وما كان خارجه، من الاتجاهات اليمينية واليسارية، الدينية والإلحادية، الليبرالية، والاشتراكية/الشيوعية، والقومية.

قراءاته المتعمقة والمستوعبة للنظريات الفلسفية والاجتماعية والعلمية الوضعية التي أنتجها العقل الغربي الحديث، جعلته يعي أهم المشكلات الوجودية والإيمانية التي يعاني منها الإنسان المعاصر، وجعلته أيضًا يلم بتيارات ونظريات الفكر الغربي الحديث، ومكنته من معرفة الحجج والأدلة والشبهات التي تستند إليها هذه النظريات وهي تشكك في حقائق الإيمان، وقصة خلق الإنسان، ووجود الخالق سبحانه، ومن ثم تُلقِي بالأجيال الجديدة في غياهب الإلحاد وضلالات الوجودية/العدمية. ومن أهم مؤلفاته التي تشهد له بتضلعه في تلك النظريات، وبراعته في مناقشتها، والإفادة منها أحيانًا، ودحضها والرد عليها بأدلة عقلية ونقلية أحيانا أخرى: كتاب "أسئلة العصر المحيرة" ويقع في مجلدين كبيرين، وكتاب "حقيقة

الخلق ونظرية التطور"، وهو عبارة عن مسامرات ومحاضرات ألقاها في نهاية الستينيات من القرن الماضي. وفي هذا الكتاب تفنيد منطقي، وعلمي، وديني لهذه النظرية التي شغلت العالم ردحًا من الزمن. وجرى توظيفها لأغراض سياسية وفلسفية مختلفة، حتى غدت "أيديولوجية" لتبرير النزعات العنصرية حينًا، والإلحاد حينًا، واستغلال الدول الاستعمارية للشعوب الضعيفة ونهب ثرواتها حينًا آخر. وتبين بعد ذلك أنها لم تكن صحيحة في أطروحتها الأساسية حول قصة أصل الأنواع وخلق الإنسان. وله في هذا الميدان أيضًا كتب أخرى منها كتاب "العصر الميتافيزيقي للوجود"، وكتاب "في ظلال الإيمان"، وكتاب "الإنسان في تيار الأزمات" إلخ.

تحديات العصر وقضاياه الكبرى

اتسمت المرحلة التي عاصرها "خوجة أفندي" -منذ تفتح وعيه في الخمسينيات من القرن الماضي، وما تلاها إلى مطلع هذا القرن العشرين- بعدم الاستقرار وكثرة الأزمات الفكرية والفلسفية والسياسية على المستوى العالمي في مناخ الحرب الباردة، والصراع بين الشرق (الذي بات -في أثناء الحرب الباردة- يرمز إلى الكتلة السوفيتية والإيديولوجية الماركسية) والغرب (الذي بات يرمز إلى الكتلة الغربية والإيديولوجية الليبرالية). وعانت تركيا كثيرًا من ويلات هذا الصراع وعدم الاستقرار؛ التي ما كادت تتنفس بعض نسمات الحرية وتسترد شيئًا من هويتها الإسلامية عقب وصول عدنان مندريس إلى السلطة في انتخابات سنة

قراءات الأستاذ كولن المتعمقة والمستوعبة للنظريات الفلسفية والاجتماعية والعلمية الوضعية التي أنتجها العقل الغربي الحديث، جعلته يعي أهم المشكلات الوجودية والإيمانية التي يعاني منها الإنسان المعاصر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

١٩٥٠م، حتى دخلت البلاد في سلسلة من الانقلابات العسكرية (١٩٦٠،١٩٧٠، ١٩٨٠،١٩٩٧)، وكان "تعرض النظام العلماني للخطر" حجة أساسية من الحجج التي استند إليها الانقلابيون في كل مرة.

يمكن القول إن استيعاب الشيخ لروح العصر ومعرفة قضاياه وتحدياته، هو من أهم أسرار نجاحه في إعادة الحيوية والفاعلية إلى "فن الخطابة والإرشاد العام"، وإزاحة الانطباع السلبي الذي كان سائدًا عن "الخطب والمواعظ" في الزمن الحاضر باعتبارها عملًا روتينيا شكليًا لا أثر له، وما كان له أن ينجح في هذه المهمة الصعبة لولا إيمانه العميق بأن الداعية والمبلغ في هذا العصر لا بدَّ أن يكون محيطًا بمجريات عصره، وإلا فمثل هذا الداعية كما يقول: "كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثًا يحاول أن يبلغ شيئًا عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث ستفقده التأثير إن عاجلاً أو آجلاً، ومن هنا فعلى المؤمن أن يُفهِّم ويبلّغ ما ينبغي أن يُفهِّم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي والثقافي لعصره، ولعلى أجزم أن مرشدًا وداعية -في يومنا هذا- إذا ما تمكن من تطبيق هذه النقطة المذكورة يسبق الأولياء والأقطاب في الآخرة، إذ يقف خلف الأنبياء

nesemat.com نسيمات nesemat.com

إذا كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة، ونلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك؛ فيجب أن نكون ممثلين للحق والعدالة وللاستقامة وللأمن.

عليهم السلام. نعم إن هذه النقطة سامية جليلة إلى هذا الحد.علمًا أن التمسك بها وتنفيذها صعب أيضًا مثلما أنها ضرورية جدًّا"[٢] ويقول أيضًا: "إن من لا يعرف عصره لا يختلف عنْ مَنْ يعيش تحت الأرض، بينما المبلِّغ أو الداعية يجوب في الفضاء، وعندما يجول بين النجوم بعقله، يعاين بقلبه وبلطائفه الأخرى رياض الجنان؛ أي عندما يحجزه عقله في المختبر بجوار (باستور)، ويسيّره برفقة (أينشتاين) في أعماق الوجود، تراه واقفًا بروحه بكل إجلال وتوقير أمام الله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ، فينصبغ بصبغة الله مرات ومرات في اليوم الواحد. وأعتقد أن المرشد الحقيقي هو هذا"[٣].

على أساس هذه الرؤية، انهمك الأستاذ كولن في مناقشة قضايا العصر التي انتقلت مع موجات التغريب والعلمنة، إلى الشباب التركي وفئاته المثقفة، وكان في مقدمة تلك القضايا التي حاضر فيها وكتب المقالات، وألف الكتب، وخاض المناظرات العلمية: نظرية دارون، وأطروحات سارتر وكامو عن الإلحاد والوجودية، ونظرية الليبدو لفرويد، والنظرية الماركسية. ودعمت جهوده الدعوية والإرشادية -بهذا المعنى المتقدم الذي مارسه- الجهود التي كانت ترمي لوقف موجات التغريب، وإنقاذ الشباب من هوة الاغتراب، والإلحاد، والانحلال الأخلاقي، والنزعات العرقية والقومية المتطرفة، التي قادتهم إلى الانقسام والتمزق بين إيديولوجيات متناحرة، وأدت بهم إلى أعمال عنف دموية راح ضحيتها الآلاف منهم خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات.

لم يكن همُّه أن يقوض فقط أركان أطروحات "التغريب"، و"الإلحاد"، و"الشوفينية القومية"، "والداروينية الاجتماعية"، وإنما صرف قسطًا كبيرًا من جهده في التصدي للمهمة البنائية الأكبر، وهي مهمة استعادة الذات الحضارية، ووضع لبنات البناء من أجل النهضة الجديدة انطلاقًا من العمق الإسلامي، وعلى أساس مرجعيته العليا من القرآن والسنة الشريفة، وإنجازات الحضارة الإسلامية عبر القرون الماضية، و"تجديد الاستماع إلى روح الإسلام ومعناه"[٤]، واتخاذ القرآن والسنة محورًا للطريق الموصلة إلى الهدف"[٥]. ولم تكن هذه اللبنات سوى جيل جديد أطلق عليه اسم " ورثة الأرض". وهو تعبير قرآني أصيل يؤكد على أن ورثة الأرض هم "العباد الصالحون". وأسهب خوجة أفندي في شرح هذا المفهوم، وحدد سبع صفات عملية لجيل "ورثة الأرض". وأضحى هذا المفهوم السحري مركز جذب وتعبئة لعشرات الآلاف من شباب الجامعات، ومن الأوساط الفنية والثقافية والعلمية والأدبية، ورجال الأعمال والأصناف، الذين اندرجوا في "نطاق الخدمة".

مع زوال الاستقطاب الدولي بانهيار الاتحاد

السوفييتي مطلع التسعينيات من القرن الماضي، هدأت الصراعات الفكرية والتناحرات الإيديولوجية التي كانت محتدمة إبان الحرب الباردة، وبدأت صراعات أخرى تغذيها أطروحات تتحدث عن "نهاية التاريخ"، و"صدام الحضارات"، و"العولمة". وواصل الشيخ انشغاله بهذه القضايا المستجدة، وانخرط في النقاشات الدائرة حولها. وردًا على تلك الأطروحات، بادر بفكرة "حوار الحضارات" في مطلع التسعينيات عقب زوال الكتلة السوفيتية، وحث أنصاره من أجل تنشيط دوائر هذا الحوار، محليًا وعالميًا؛ بديلًا عن استخدام العنف والشدة في معاملة الخصوم، والدعوة للحب والتسامح، بديلًا عن الكراهية والتعصب للذات ونبذ الآخر.

وبعد انتقاله للإقامة في الولايات المتحدة ابتداءً من سنة ١٩٩٩م، شعر أن الحوار بين الحضارات وأتباع الديانات؛ الذي سبق أن نادى به منذ مطلع التسعينيات، بات ضرورة لا تحتمل التأخير، وأيقن أن دعوة الإخاء العالمي والتسامح والحب لا بدَّ أن تشكل أساس "العولمة الجديدة"، وليس العنف والإرهاب، ولا ممارسة الظلم والعدوان وغطرسة القوة التي يمارسها الأقوياء ضد الضعفاء والمستضعفين، وترسخ اقتناعه بهذه التوجهات العالمية بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها من أعمال عدوانية باسم "الحرب على الإرهاب" عبر العالم.

كان الشيخ قد غادر بلاده إلى أمريكا بعد أن بلغ الستين من عمره. ولهذا كانت أغلب قراءاته في المشكلات العالمية عبارة عن متابعات وتأملات. وأصدر

الأستاذ كولن مجددٌ من الطراز الأول للخطاب الإسلامي في العصر الحاضر. ولم يؤمن بتوجه غير إسلامي، رغم كثرة التيارات الفكرية والفلسفية التي ماج بها عهد الجمهورية التركية منذ بدايته وحتى مطلع القرن الحالي.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كتابًا رصينًا عالج فيه مشكلات العولمة، والعنف، والإرهاب، والظلم الدولي، وناقش قضايا الحب الإنساني، والرحمة، والتسامح، والحوار، وألقى بنظرات صوفية في هذه القضايا. كما طرح رؤية تجديدية عن علاقة: الجهاد، بحقوق الإنسان، وبالإرهاب، وكيف يمكن بناء نظام عالمي جديد على أسس الحب والتسامح. وسرعان ما حول أنصارُه تأملاته وتوجيهاته إلى إجراءات عملية في حدود طاقتهم، ومن خلال مؤسساتهم التعليمية والإعلامية والفنية. وكثف منتدى "أبانت" حواراته، وانطلق بها إلى خارج تركيا، في أوربا وأمريكا، وآسيا، وأفريقيا، والعالم العربي.

ولا يزال الشيخ مستمرًا إلى اليوم في متابعة تلك القضايا التي انشغل بها منذ مطلع حياته وهو في قريته الصغيرة "كوروجك" بعمق الأناضول، وقد كبرت واتسعت تلك القضايا حتى استوعبت المشكلات العالمية التي تهم الإنسانية كلها. لا يزال "خوجة أفندي" يوالي الاهتمام بهذا العبء الثقيل، رغم اجتماع كثير من الأسقام على جسده، وهذا يعني أنَّ "تكوينه الفكري والثقافي" لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وأن شغفه للقراءة والمعرفة لا يزال غضًا كما كان في ريعان شبابه، ولا يزال يستزيد

علمًا ومعرفة، في الوقت الذي ينتظر الكثيرون رأيه وينصتون إلى نصائحه، ويحولون توجيهاته المقتضبة إلى برامج عمل تفصيلية، وإنجازات مبهرة في مجالات "الخدمة" المتعددة عبر العالم.

ثانيًا: الأصول الإسلامية لرؤية العالم

أكرر مرة أخرى ما قاله الشيخ -نفع الله بعلمه-: "أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم، إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. فإذا كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة، ونلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي حيث إننا مضطرون أن نكون كذلك؛ فيجب أن نكون ممثلين للحق والعدالة وللاستقامة وللأمن"[٦].

وهذا القول وردت فيه كلمات "الأمن"، و"الطمأنينة"، و"الاستقامة"، و"الإنسانية جمعاء"، و"الشئون الدولية"، و"الحق" و"العدالة". وفي ظلال هذه المفاهيم المركزية أقول وبالله التوفيق:

١- يقول أهل اللغة: إن " السلام" يدل على الصحة والعافية والبراءة من النقص والعيب. وأقول إن السلام دليل على الحق والخير والجمال؛ فبالسلام تهدأ النفس وتطمئن وتمتلئ بنور الحق. وبالسلام تترسخ علاقات الود والتعاون وتميل كل الأنفس لعمل الخير والتنافس فيه. وبالسلام تفرغ أقطار النفس وتصفو بحار الروح للتأمل والإبداع وإظهار آيات الجمال في النفس وفي الكون.

السلام اسم من أسماء الله تعالى؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء. ومن لفظ السلام أيضًا اشتق لفظ الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع. والسلام غاية كل عاقل.

وقد ورد لفظ "السلام" في الكتاب العزيز في مئة وأربعين موضعًا؛ بصيغ متنوعة. ورد في مئة واثني عشر موضعًا منها بصيغة الاسم، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء:٩٤)، وورد في ثمانية وعشرين موضعًا بصيغة الفعل، منها قوله ﷺ: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾(النور:٢٧). وقد دار معنى السلام في القرآن على سبع دلالات رئيسة، هي: ١- اسم من أسماء الله. ٢- الإسلام. ٣- التحية المعروفة. ٤- السلامة من الشر. ٥- الثناء الحسن. ٦- الخير. ٧- خلوص الشيء من كل شائبة.

٢- في الأصل كان السلام. وفي المنتهى سيكون السلام. هذان هما مبتدأ وخبر الرؤية الإسلامية للعالم. في الإشارة إلى المبتدأ، قال الله ﷻ:

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ ﴾(الحشر: ٢٣). وفي الإشارة إلى الخبر والمنتهى، قال ﷻ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(الأنعام: ١٢٧). وقال ﷺ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾(الحجر: ٤٦).

ومن مقاصد عالمية الإسلام أن يعم السلام؛ وفي هذا خاطب رب العزة رسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف:١٥٨).

وثمة آيات أخرى عديدة تركز على المعنى نفسه الذي تشير إليه هذه الآية، وهو أن الإسلام رسالة عالمية، ليست لجنس دون جنس، ولا لأمة دون أخرى، وأن غايته هي الوصول للعالم بأسره دون إكراه أو إجبار، ليدخل الجميع في السلام؛ بالحوار، وبالحكمة، والموعظة الحسنة. وإذا لم يستجب بعضهم -قلَّ هذا البعض أو كثر- فلهم مطلق الحرية وكامل الحق في اختيار ما تطمئن إليه قلوبهم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وعند الله تجتمع الخصوم.

٣- من أصول الرؤية العالمية للإسلام أن البشرية بمختلف شعوبها وأممها صائرة -لا محالة- إلى التجمع في وحدة إنسانية واحدة يظللها "السلام"، وأنه لا بد من السعي للوصول إلى هذه الوحدة التي لا تلغي خصوصيات وفضائل التنوع والتعدد الثقافي والاجتماعي الذي تمثله الأمم والشعوب داخلها.

إن "الوحدة العالمية" من منظور إسلامي لا تقوم على أساس اقتصادي أو سياسي أو ديني بالمعنى الضيق لكلمة دين، وإنما تقوم على أصول اجتماعية مغروسة في فطرة الإنسان، وأهمها: الآدمية والمساواة؛ الآدمية التي تنسب البشر جميعًا إلى أب واحد، وأم واحدة (آدم وحواء)، والمساواة التي تعني أن كل إنسان يقف على قدم المساواة مع أخيه الإنسان بغض النظر عن اختلاف الوطن، أو العرق، أو المذهب.

تلك هي الأصول العامة التي يأمر الإسلام أتباعه أن يبنوا عليها رؤيتهم للعالم، ويمكننا أن نوجزها في أربع كلمات هي: عالمية الرسالة، والوحدة العالمية،

إن استيعاب الشيخ محمد فتح الله لروح العصر ومعرفته بقضاياه الكبرى وتحدياته الصعبة، هو من أهم أسباب نجاح دعوته واتساع دائرتها على المستوى العالمي.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

والأخوة الإنسانية، والمساواة بين جميع البشر.

٤ـ أما بالنسبة لعلاقات المسلمين بغيرهم وبرؤيتهم للآخر المغاير لهم؛ فالأصل فيها هو السلام، والحرب حالة استثنائية هدفها استعادة السلام. ويجب إنهاء الحرب في أقرب فرصة وبأقل كلفة. وثمة مجموعة من الأسس المنظمة لتلك العلاقة ومن أهمها:

• الدعوة للتعارف، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، والتعارف لا يكون من جانب واحد، وهو يتضمن الاعتراف المتبادل، وإقرار التعددية الاجتماعية، والدينية، والثقافية، وهو ما نطلق عليه بلغتنا المعاصرة "الحوار" والاعتراف بالآخر.

• التعاون، في كافة مجالات الحياة من أجل سعادة البشرية وخيرها، وتبادل المنافع والتعايش الحضاري الخلاق، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٢).

• السلام، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وأصل كبير من الأصول التي دعا إليها الإسلام لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، والوصول إلى "السلام"

"الإسلام" بشرى للعالمين. يعلمنا أننا يمكن أن نتشاور ونتحاور مع الآخرين لاكتشاف الحقول المشتركة بيننا، ولتعميق إدراكنا للمثل العليا، وللإسهام في إعمار الأرض، وإسعاد الناس، وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

-أيضًا- هو غاية من غايات الدعوة الإسلامية، أما الحرب فلم تشرع في الإسلام إلا لرد العدوان.

• التسامح، وإعلاء الكرامة الإنسانية وصيانتها، فالإسلام يأمر أتباعه بأن يعاملوا غيرهم على أساس أنهم إخوة في الإنسانية، ولا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

• الوفاء بالعقود والمعاهدات، وهذه قاعدة عامة أمر بها الإسلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة:١)، ولا تقتصر هذه القاعدة فقط على الجوانب القانونية، وإنما تمتد لتصبح أداة من أدوات بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون على المستوى العالمي فضلًا عن المستويات المحلية والإقليمية.

٥ـ إن النظرة المتفحصة في أصول الرؤية الإسلامية للعالم، وفي تلك الأسس التي تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، تكشف لنا عن منظومة متكاملة من القيم الرفيعة، وإنها ليست قيمًا "إسلامية" فقط، بل إنسانية عامة كذلك تجد جذورها في عمق الفطرة البشرية، ولذلك فنحن لا ندعي أنها فقط إسلامية، بل نرى أنها من مكونات التراث الحضاري العالمي، وأنها من أعظم القواسم المشتركة بين الشعوب والأمم كافة، وليس فقط بين العالم الإسلامي مثلًا والغرب، ولذلك فيجب أن يتعاون الجميع من أجل إقراراها والعمل بمقتضاها.

ثالثًا: مظاهر الاختلال العالمي بمعايير الرؤية الإسلامية

إذا انتقلنا من مستوى الأصول المعرفية والأسس النظرية تلك التي تراءت لنا من قراءتنا في ظلال كلمات الشيخ فتح الله إلى مستوى الواقع والممارسات الفعلية التي تجري من خلالها العلاقات بين الأمم والشعوب على مختلف المستويات؛ سنجد أن ثمة فجوة كبيرة تفصل هذا الواقع عن تلك القيم الإسلامية-الإنسانية، التي تحدثنا عنها.

إن وجود فجوة بين "الواقع والمثال" أو بين "النص والممارسة" أمر طبيعي إذا كانت تلك الفجوة في حدود معقولة ومقبولة، أما الفجوة التي نتحدث عنها هنا فهي كبيرة جدًا، وآخذة في الاتساع؛ الأمر الذي يزيد الأوضاع العالمية اختلالًا من منظورنا الإسلامي.

فبدلًا من أن يتم توظيف الثورة الهائلة في نظم الاتصالات ونقل المعلومات في تعميق التعارف بين الشعوب والأمم، نجد أن هناك عدم اكتراث بهذا الأمر، وغالبًا ما يتم تسخير هذا "التقدم" في خدمة أغراض سياسية، ومصالح أنانية، وفرض المعرفة بطرف وتجاهل التعرف على الأطراف الأخرى من الشعوب والأمم.

وعوضًا عن تنمية علاقات التعاون وتبادل المنافع بالقسط والعدل، ولا زالت أشكال الاستغلال ونزعات الاحتكار والاستئثار هي الغالبة؛ نشهدها على مستويات

مختلفة عالمية بين الشمال والجنوب، وإقليمية بين القوي والضعيف، ومحلية بين الغني والفقير.

وبدلًا من أن ينعم العالم بالسلام والأمن والتسامح؛ نجد الحروب مشتعلة، والصراعات متفجرة، والمنازعات الدولية والإقليمية محتدمة؛ تغذيها نزعات أنانية، وانقسامات عرقية ودينية، وطموحات سياسية لا تنتمي إلى عصرنا الراهن وإنما لعصور بائدة، كما تغذيها نزعات للسيطرة والهيمنة الثقافية تحت شعارات متعددة من قبيل النظام العالمي الجديد والعولمة؛ والتي هي ليست أكثر من اتجاه نحو نوع من الاختزال الثقافي وفرض هيمنة القوي على الضعيف.

أما بخصوص مبدأ الوفاء بالعقود والمعاهدات، والاستفادة من ذلك في بناء وترسيخ ثقافة السلم والتعاون، فالفجوة هائلة بين المبدأ والتطبيق، وقد شهد عالمنا طيلة هذا القرن -ولا يزال يشهد- كثيرًا من الانتهاكات، والنكث بالعهود، والمواثيق، بدافع من شهوة عدوانية، أو ممارسة لغطرسة القوة.

وبنظرة سريعة على أوضاع العلاقات المتبادلة بين العالم الإسلامي والغرب في التاريخ المعاصر، نجد أنه في إطار الجدل الدائر حاليًا حول أهمية "الإسلام" كعامل أساسي في إمكانية حدوث التوافق -أو الصدام- بين عالمنا الإسلامي وأوروبا والغرب بصفة عامة، فإنه لا بد من تجاوز الأسباب التاريخية التي أدت في السابق إلى المآسي، وجرَّت إلى الحروب والمنازعات المتبادلة، وذلك لأننا نرى -كمسلمين-

إن الخطوات نحو مستقبل أفضل تبدأ ببلورة القيم الإنسانية المشتركة، والإقرار بالتعددية الثقافية والدينية، والتعاون على إزالة مصادر الصراع، و بناء ثقافة عالمية مشتركة، بعيدة عن هيمنة القوة العارية من الأخلاق.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

أن التحولات العالمية التي اجتاحت كافة المجالات العلمية والسياسية والفكرية، وأسقطت كثيرًا من البنى التقليدية وأدت إلى تراجع مفاهيم كثيرة تنتمي إلى الماضي؛ كل ذلك يعني أنه يجب أن تتجدد العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، على نحوٍ يدفع هذه التحولات العالمية نحو مزيد من الارتقاء بالإنسان وبالقيم النبيلة، وبتحسين نوعية الحياة لكافة الشعوب والأمم.

إن قيم الإسلام ومبادئه تحض -كما سبق أن ذكرنا- على المضي في إقامة علاقات السلام، والتعاون، وتبادل المنافع، والعمل لخير الإنسانية، وبناء ثقافة عالمية أساسها الاحترام المتبادل، وهناك في الواقع ما يدعو إلى هذا الاتجاه وما يؤيده في الوقت نفسه: هناك مشروعات ومبادرات فكرية وثقافية صدرت عن جهات رفيعة المستوى في الغرب تخدم الاتجاه الذي نؤمن به، ومن ذلك حديث ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في مركز الدراسات الإسلامية بجامعة إكسفورد قبل عدة سنوات، والمؤتمر الذي نظمه المعهد الملكي للشئون الدولية بمناسبة مرور ٧٥ عامًا على تأسيسه، ومبادرة حكومة السويد عام ١٩٩٥م، لتهيئة فرصة للحوار

بين أوروبا والعالم الإسلامي، إضافة إلى آراء ومواقف عديد من المفكرين والباحثين والمؤسسات الأكاديمية.

هناك -كذلك- المصالح الاقتصادية والسياسية المتبادلة، فالبلدان الإسلامية مصدر رئيسي من مصادر الثروة التي لا يستغني عنها الغرب كالبترول والمواد الأولية التي تعتمد عليها الصناعات الغربية، وكمثال على ذلك نجد أن السوق الأوروبية المشتركة هي شريك أساسي لمجلس تعاون دول الخليج العربي؛ إذ يصدِّر إليها المجلس نحو ٢٢٪ من جملة صادراته من النفط والمنتجات البتروكيماوية، ويستثمر لديها ما يفيض عنه من بترودولارات، ويستورد منها نسبة كبيرة من منتجاتها من السلع والخدمات بما يقدر بحوالي ١٥ مليار دولار سنويًا، وفي دول المجلس تعمل أكثر من ٤٠٠ شركة أوروبية في مختلف المجالات الاستثمارية والإنتاجية والخدمية، هذا فضلًا عن كثير من أوجه التعاون والمصالح المشتركة في المجالات السياسية، والثقافية، والبعثات التعليمية، التي تحتل فيها بريطانيا مكانة متميزة مع دول مجلس التعاون بصفة عامة، ومع دولة الكويت بصفة خاصة. واسمحوا لي أن أشير هنا إلى علاقة التعاون البناءة بين وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت وبين بعض المؤسسات الخيرية والتطوعية في بريطانيا، فضلًا عن دعمها لعديد من البعثات العلمية والطلبة بالدراسات العليا بعدد من الجامعات البريطانية.

خاتمة في استعادة التوازن العالمي

قلنا -فيما سبق- إن استيعاب الشيخ محمد فتح الله لروح العصر ومعرفته بقضاياه الكبرى وتحدياته الصعبة، هو من أهم أسباب نجاح دعوته واتساع دائرتها على المستوى العالمي. وبناء على ما استقرأناه بشأن أصول رؤيته للعالم في ضوء المرجعية الإسلامية؛ كان من اليسير عليه أن يرفض أطروحة "صدام الحضارات"، وأن يشدد على أطروحة "الحوار" على مختلف المستويات. وهو إذ يدعو إلى الحوار ويشدد عليه، نجده يتمتع بنزعة شديدة التفاؤل بمستقبل أفضل للبشرية، فهو من ناحية يدين ويدحض كافة أطروحات الانقسام، والعنف، والقبح، والظلم وكل ما يؤدي إلى شقاء الإنسان، ومن ناحية أخرى يدعو بإلحاح لاحترام كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، ولمد جسور التعارف والتعاون والمحبة والسلام والأمن والرخاء والحرية، والعدالة لبني البشر جميعًا، وفيما بينهم.

فكرة "صدام الحضارات"؛ التي يطرحها البعض من الأوساط الغربية يراها الشيخ فتح الله لا تخدم السعي المشترك نحو مستقبل أفضل للبشرية، ويؤكد في كتاباته على أنها -في حقيقة الأمر- تعبير عن أن الغرب في حضارته المعاصرة ليست لديه سوى قابلية محدودة للتعامل مع القيم الإنسانية "الجماعية"، وليست لديه قابلية للاعتراف بحقائق "التعددية الثقافية"، ولا هو مقتنع بثراء تلك القيم والحقائق وفائدتها في بناء مستقبل أفضل للعالم، ومن حسن الحظ أن هناك من يطرح -في المقابل- فكرة "حوار الحضارات"، "وتعايش الثقافات" وعلى رأسهم الشيخ فتح الله نفسه.

ولعل من الأسئلة الكبرى التي تستحق مزيدًا من الجهد والتعاون للإجابة عليها هو: كيف يمكن إيجاد أرضية صلبة يقف عليها الحوار بين مختلف الثقافات والحضارات في العالم بصفة عامة، وبين العالم الإسلامي والغرب بصفة خاصة؟ وكيف نضمن لهذا الحوار أن يسهم في إيجاد مساحة جديدة للتعايش الحضاري الخلاق؟

إن هذا التحدي يتطلب جهودًا مكثفة ومخلصة من كافة الأطراف، وعلى كافة المستويات ابتداء من أن يكف الإعلام الغربي عن رسم "إسلام كاريكاتوري" لا صلة له بالإسلام الحقيقي، وأن نؤكد نحن في العالم الإسلامي على عالمية الإسلام، وقيمته الخاصة بالعدالة والتراحم، والتسامح، وصولًا إلى وضع استراتيجيات جماعية، وتصورات مستقبلية للانطلاق بها نحو القرن المقبل في إطار فكري يعتمد على الحوار والتعددية، والنقد البناء، والقبول بالآخر من أجل اكتشاف المبادئ الحضارية المشتركة بين بني الإنسان أينما كانوا في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب.

إن الخطوات نحو مستقبل أفضل لا بد -من المنظور الإسلامي الذي يتبناه الشيخ فتح الله ويدعو إليه- أن تبدأ ببلورة القيم الإنسانية المشتركة، والإقرار بالتعددية الثقافية والدينية، والتعاون على إزالة مصادر الصراع، والقضاء على أسباب التوتر والعنف واختلال أوضاع السلم والعدالة، ولا بد أن تقوم -كذلك- على بناء ثقافة عالمية مشتركة، وبعيدة عن هيمنة القوة العارية من الأخلاق.

إن الإسلام يصنع السلام أولًا في ضمير الفرد، ثم في محيط الأسرة، ثم في وسط الجماعة، وأخيرًا يصنعه في الميدان الدولي بين الأمم والشعوب، إنه ينشد السلام في علاقة الفرد بربه وفي علاقة الفرد بنفسه وفي علاقة الفرد بالجماعة، ثم ينشده في علاقة الطائفة بالطوائف، وعلاقة الأفراد بالحكومة، ثم ينشده في علاقة الدولة بالدول بعد تلك الخطوات، وإنه ليسير في تحقيق هذه الغاية الأخيرة في طريق طويل يعبر فيه من سلام الضمير إلى سلام البيت، إلى سلام المجتمع، إلى سلام العالم في نهاية المطاف.

وأخيرًا فإن "الإسلام" بشرى للعالمين. والإسلام يعلمنا أن بوسعنا -دومًا- أن نتشاور ونتحاور مع الآخرين من أجل اكتشاف الحقول المشتركة بيننا، ومن أجل تعميق إدراكنا للمثل العليا، ومن أجل الإسهام في إعمار الأرض، وإسعاد الناس، وإرضاء الله سبحانه وتعالى.

هذا ما تبين لي بعد القراءة والتأمل والله تعالى أعلى وأعلم. ■

الهوامش

(١) ١٣٧، النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) ٩٥/٩٤، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، دار النيل للطباعة والنشر، ط٤، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨.

(٣) ٩٥، المصدر السابق.

(٤) ٣٠، ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل للطباعة والنشر، ط٤، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨.

(٥) ٣٣، المصدر السابق.

(٥) ١٣٧، النور الخالد.

أفكار كولن داخل السياق
الأكثر رحابة للحركة الإنسانية

جيل كارول

أ. د. جيل كارول، كاتبة أكاديمية تعمل بجامعة "رايس" الأمريكية خبيرةً ومحاضرةً متخصصةً في مجال الدين والسياسة، الدين والمجتمع، فلسفة الحياة. عملت مديرةً لمركز بحث وتطوير التسامح الديني بالجامعة نفسها حتى ٢٠٠٩م، تُقدِّم محاضرات في شتى المراكز العلمية والخدمية. حاز الأصل الإنكليزي لكتابها (A Dialogue of Civilizations) لقب الكتب الأكثر مبيعًا على موقع الأمازون عام ٢٠٠٧م، كما تُرجم إلى ١٢ لغة عالمية.

هذه الدراسة مُلخصٌ لأحد أجزاء كتابٍ عنوانه بالإنجليزية: (A Dialogue of Civilizations)، وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان: "محاورات حضارية.. حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني". والدراسة من إعداد صاحبة الكتاب ذاته وتعرض فيه الفرضية الأساسية للكتاب، وما توصَّلتْ إليه من التحليلات في فصلين من أبرز فصوله.

توضح الكاتبة أن مهمتها في هذا الكتاب أن تضع أفكار الأستاذ كولن داخل السياق الأكثر رحابةً للحركة الإنسانية؛ فهي تسعى إلى إقامة حوارٍ نصيٍّ بين بعض المختارات من مقالات وخطاباتٍ وكلماتٍ الأستاذ كولن، وبين بعض نصوص مفكرين أو كُتَّابٍ أو فلاسفةٍ أو مُنظِّرين ينتمون إلى الخطاب العام للحركة الإنسانية، مثل: كونفوشيوس وأفلاطون وإيمانويل كانط وجون ستيوارت ميل وجان بول سارتر.

وقناعة الكاتبة أن أعمال كلٍّ من الأستاذ كولن وهؤلاء المفكرين الإنسانيين تدور حول القضايا المركزية للوجود الإنساني. فهم منشغلون بالأسئلة الرئيسية التي تتناول الحياة البشرية والدولة والأخلاق.

يُدرِج عددٌ متزايدٌ من البحوث التي أُجريت مؤخرًا أفكارَ الأستاذ كولن ضمن سياقات التصوف والحركة النورسية والإسلام التركي والدين الإسلامي عمومًا، وضمن البيئة والمناخ الفكريَّيْن للحوار بين الأديان. لكن ما لم تقم به هذه البحوث حتى الآن هو إدراج أفكاره ضمن السياق الأكثر رحابة للخطاب الإنساني العام.

والإنسانية هي –من بين أمور أخرى– كلُّ فلسفةٍ أو عقيدةٍ أو وجهةِ نظرٍ تُعطي الأولوية لازدهار الإنسان وتقدمه وإنجازاته وجَماله ومسؤوليته وقيمه؛ وثَمَّة أشكالٌ متعددةٌ منها قد تواجدت لآلاف السنين في جميع أنحاء العالم؛ من ذلك –مثلًا لا حصرًا– أفكار وكتابات: كونفوشيوس، وقُدامى الإغريق كسقراط وأفلاطون وأرسطو، وكثرةٍ من لاهوتيِّي وفلاسفة العصور الوسطى، ومُفكري عصر التنوير مثل لوك وكانط وهيوم، ومفكرين حداثيين كنيتشه وميل، وأعلام وجوديين كجان بول سارتر، وغيرهم.

ورغم أن أيًّا من هؤلاء الكُتَّاب لا يُقارب منتوجَه الإنساني من منظورٍ إسلامي، إلا أن النظرة الفاحصة لأعمالهم ولأفكار الأستاذ كولن تكشف عن وجود خطوط عريضةٍ من التجاوب بين أعمالهم وفكره. لا سيما أنه وعديدًا من هؤلاء المفكرين الإنسانيين الآخرين في المقابل يُعنون أنفسهم بأهمية التعليم في كلا جانبيه المهاراتي والقيمي، وحاجة الضمير للحرية، وما تُمثله الكرامة البشرية من قيمةٍ أخلاقيةٍ لكل المجتمعات العادلة الكريمة، وغرس الفضيلة

nesemat.com نسيمات nesemat.com

يُعدُّ تمتع الإنسان بالحرية غورًا مهمًّا من أغوار قوة إرادته، وبابًا خفيًّا قد يدلف منه كثيرون إلى أسرار الذات. ومَن لا يستطع بلوغَ هذا الغور والمرورَ من خلال هذا الباب لا يُمكن تسميته إنسانًا"

في نفوس الأفراد باعتبارها عنصرًا ضروريًّا للحياة السعيدة ولخلق مجتمعٍ مدنيٍّ بحقٍّ في آن، والاضطلاع بمسؤوليةِ (واعتقادِ إمكانيةِ) إقامةِ مجتمعٍ بشريٍّ مُطردِ الرُقيِّ من أجل المستقبل.

وستَعرِض هذه الدراسة بإيجازٍ لموضوعين من هذه الموضوعات كما يتبدَّيان في أعمال كولن وكانط وميل؛ بُغيةَ توسيع معالم "الحوار" الذي أصبح الأستاذ كولن بسببه ذائعَ الصيت؛ فهذه الدراسة مُلخصٌ لأحد أجزاء كتابٍ يحمل العنوان نفسه وهدفي من ورائها هو عرض الفرضية الأساسية للكتاب، ومن ثَمَّ إيضاح ما توصَّلتُ إليه من التحليلات في فصلين من أبرز فصوله.

وأنا أشد على أيدي القراء لقراءة الكتاب بأكمله؛ للاطلاع على مُقتطفاتٍ أكثر إسهابًا وأدق عمقًا في معالجةٍ للتحليلات المعروضة ها هنا؛ إذ ستكتفي هذه الدراسة بمجرد استعراض النقاط الرئيسية لقسمين من أقسام الكتاب، وكذا مُؤدَّى الوجهة العامة للأطروحات التي تناولتُها.

ومهمتي في هذا الكتاب أن أضع أفكار الأستاذ فتح الله كولن داخل السياق الأكثر رحابةً للحركة الإنسانية؛ وعلى وجه التحديد، فأنا أسعى إلى إقامة حوارٍ نصيٍّ

بين نصوصٍ مطبوعةٍ من بعض المقالات المختارة، وخطاباتٍ وكلماتٍ ألقاها الأستاذ كولن من جهة، وبين بعض نصوص مفكرين أو كُتَّابٍ أو فلاسفةٍ أو مُنظِّرين ينتمون إلى الخطاب العام للحركة الإنسانية من جهةٍ أخرى، مثل: كونفوشيوس وأفلاطون وإيمانويل كانط وجون ستيوارت ميل وجان بول سارتر.

وقناعتي في الكتاب أن أعمال كلٍّ من الأستاذ كولن وهؤلاء المفكرين الإنسانيين إنما تدور حول القضايا المركزية للوجود الإنساني. وبعبارةٍ أخرى، فإنهم منشغلون بالأسئلة الرئيسية التي تتناول الحياة البشرية والدولة والأخلاق. أضفْ إلى ذلك أنهم يصلون إلى استنتاجاتٍ متشابهةٍ فيما يتعلق بكثيرٍ من هذه القضايا والأسئلة بعد استقصائها من داخل تقاليدهم وسياقاتهم الثقافية الخاصة.

وفي قولي بالتشابه بين النتائج هنا، لا أقصد إلى تأكيد "التطابق"؛ فهؤلاء المفكرون ينتمون إلى خلفياتٍ وفتراتٍ زمنيةٍ وسياقاتٍ ثقافيةٍ/قوميةٍ وتقاليد دينيةٍ/روحيةٍ -وغير ذلك- بالغةِ التعدد، وهم مختلفون عن بعضهم البعض في مناحٍ بارزةٍ، إلى حدٍّ أنه في مقاطع معينةٍ من أعمال كلٍّ منهم ينتقد بعضهم بعضًا (في حالة الكُتَّاب الأكثر معاصرة)، أو قد يُخال إلى المرء أنهم سيعيبون على بعضهم البعض كثيرًا من المسائل حالَ انخراطهم في حوارٍ فعلي "وليس في مجرد حوارٍ مُختلَق"؛ فالأستاذ كولن ينتقد سارتر والوجوديين وغيرهم من "الملحدين" انتقادًا صريحًا عدة مراتٍ في جميع أعماله، وميل يدافع عن نوعٍ من الحرية كان أفلاطون ليعتبره مقيتًا في مدينته الفاضلة، وعلى النقيض، ربما نظر ميل إلى جمهورية أفلاطون المثالية على أنها دكتاتوريةٌ قمعيةٌ في أغلب مناحيها. وسارتر ينسف كل تصورٍ يقول بوجود "عالمٍ للمُثُل" شاملٍ ومُتعالٍ، سواءٌ عبَّر عنه أفلاطون أو كانط أو كولن. أما أفكار كونفوشيوس الذي يصدُر عن منظورٍ صينيٍّ يعود إلى القرن السادس فليس ثَمَّ قواسمٌ مشتركةٌ بينها وبين تصورات المفكرين التنويريين أو ما بعد التنويريين الغربيين مثل كانط وميل إلا القليل.

بيد أن ما يُثير اهتمامي هو الحوار بين الأشخاص ذوي الرؤى بالغة التباين. وكذلك فإنني أعتقد بضرورة مثل هذا الحوار في عالم اليوم الذي دفعت العولمةُ ووسائلُ الاتصالات والتكنولوجيا أفرادَه وجماعاتِه معًا إلى ارتياد طرقٍ لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل؛ فالأشخاص الذين يعيشون في القرن الحادي والعشرين يتفاعلون مع غيرهم من الجماعات والأشخاص المختلفين عنهم ويتأثرون بهم أكثر من أي وقتٍ مضى، ونحن نقابل بشكلٍ متزايدٍ أفرادًا وجماعاتٍ تختلف رؤاهم عن رؤانا بصورةٍ كاملةٍ، وهم يُشكِّلون دائرةَ جيراننا وزملائنا في العمل ورفاق أطفالنا في المدارس وأصهارنا وعملائنا وأرباب أعمالنا وغير ذلك.

ونحن غالبًا ما نحاول الحد من اتصالنا بأولئك "الأغيار"؛ مخافةَ اضطرارنا إلى الشعور بما يُحتِّمه علينا وجودُهم من ضرورة "الانبساط"؛ فقد نعزل أنفسنا ونَقْصُر حياتنا على ما نألفه من دوائر الأشخاص الذين

يدينون ويفكرون ويتحدثون ويؤمنون ويُصَلُّون بنفس طريقتنا. غير أن مثل هذه العزلة أو تحجيم الاختلاف لن يُجدي نفعًا بمرور الوقت، أعني ليس في هذا العصر، بما فيه من أسلحة الدمار الشامل، ومع قدرتنا المطردة ليس على إنهاء حياة الملايين فحسب، بل وعلى إفناء الحياة ذاتها، أو الحياة كما نعرفها.

إن مما يجب علينا في عالم اليوم فعلُه أن نُنمِّي من قابليتنا للحوار وأن نعقد أواصرَ بيننا وبين الأشخاص المختلفين عنا إلى حدٍّ كبير. ولعل جانبًا من هذا الطرح يتمثل في إيجاد الأفكار والمعتقدات والغايات والأهداف. إلخ التي يُمكننا أن نحقق بصددها التجاوب بعضنا مع بعض.

وليس التطابق ما أقصد إليه، بل التجاوب؛ أي ما يكفي من التجانس بحيث يُمكننا -عند نقطةٍ معينةٍ في الطريق- أن تتشابك الأيدي كمسافرين رفقاء في هذه الحياة، واعين أبدًا بما بيننا من اختلافاتٍ تفوق الحصر.

لقد نافح الأستاذ كولن عن الحوار بوصفه التزامًا وحراكًا ضروريًّا لعالمنا المعاصر، وذلك خلال مسيرته كإمامٍ رسمي في تركيا وكعالِمٍ ومُعلِّمٍ ألهم نحو جيلٍ بأكمله من الشباب في جميع أرجاء البلاد وخارجها. ومن ثَمَّ فإنه من المناسب أن نُدخِله -من خلال نصوصه- "في حوارٍ" مع غيره من مفكرين وكُتَّاب شربوا من معين مختلف عن معينه؛ علَّنا -كقراء- نتأسى بهذا الطرح فنصبح أكثر استيعابًا للاختلاف.

لكنَّ الأهم من ذلك أن من شأن مثل هذا الحوار بين أفرادٍ يشتهرون بالمعرفة والموهبة أن يساعد

إن مما يجب علينا في عالم اليوم فعلُه أن نُنمِّي من قابليتنا للحوار وأن نعقد أواصرَ بيننا مع الأشخاص المختلفين عنا إلى حدٍّ كبير.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

كلَّ واحدٍ منا من المهتمين بمثل هذه الأمور على أن يُركز بشكلٍ أكثر عمقًا على القضايا الكبرى الخالدة في الحياة البشرية؛ فبينما تختلف حياة الإنسان في سماتها من عصرٍ إلى عصر، فإن طبيعتها العميقة -وما تثيره من قلقٍ وتساؤلاتٍ- لم تتغير؛ فنحن نطرح اليوم نفس الأسئلة التي طرحها أسلافنا عن معنى الوجود وقيمته وكيفية إقامة المجتمعات وحدود الحرية.

وأنا آمل أن يُمثِّل هذا الحوار المتخيل بين الأستاذ كولن والمذكورين أعلاه فرصةً لأولئك الذين يقوم على أكتافهم المستقبلُ من بيننا اليوم لتحمُّلهم الجاد لمسؤولية صوغ أنفسنا والمجتمع والعالَم وفقًا للمُثُل الأكثر سموًّا، وعلى أفضل نحوٍ ممكن.

وقد أقمتُ الحوار بين الأستاذ كولن وغيره من المفكرين الإنسانيين حول خمس مباحث بارزةٍ تتناول مسائل وقضايا جوهريةً تخصُّ وجود الإنسان في العالم[1]، ألا وهي:

- القيمة الإنسانية المتأصلة والكرامة الأخلاقية
- حرية الفكر
- غرس الفضيلة في الأفراد
- أهمية التعليم
- المسؤولية الإنسانية

وهذه المباحث يعرفها كافة دارسي الخطاب

الإنساني العام، سواءٌ من العصور القديمة أو المعاصرة، من أوروبا أو آسيا أو إفريقيا، سواء أكان ذلك من منظور ديني أو منظورٍ علماني.

وخلال كل مبحث، حددتُ مفكرًا رئيسيًّا أدخلتُه مع الأستاذ كولن في حوارٍ نصي، وقد اخترت هؤلاء المفكرين الرئيسيين على أساس ما بين أطروحاتهم المتعلقة بالموضوع المحدد من تجاوبٍ مع طرح الأستاذ كولن المتعلق بنفس الموضوع، لكن بمنظورٍ إسلامي. وقد كان بوسعي انتقاء مفكرين إنسانيين آخرين، لكنني آثرتُ المذكورين أدناه لأنني شعرتُ ببراعتهم الخاصة في التعبير، وكذا -لأكون صادقًة- نظرًا لإعجابي وتقديري العميقَين لِنتاجاتهم، بعد عكوفي على تدريس أفكارهم داخل قاعات الجامعة لمدة خمسة عشر عامًا حتى الآن.

وخلال الصفحات المتبقية من هذه الدراسة أعالج المبحثين الأولين المذكورَين أعلاه كما يتناولهما كولن وكانط وميل في أعمال كلٍّ منهم. وكما أشرتُ سابقًا، تُمثِّل هذه الفقرات نصوصًا مختصرةً لفصول الكتاب؛ بيد أنها -بصورتها المختزلة تلك- تمدنا بأمثلةٍ لنوع "المحاورات" التي أرغب في عقدها بين الأستاذ كولن وغيره من المفكرين الإنسانيين. وعلاوةً على ذلك، فإنها تتناول بالنقاش موضوعاتٍ أعتقد بأهميتها القصوى لبحوثنا الأكاديمية والمدنية.

المبحث الأول: القيمة الإنسانية المتأصلة والكرامة الأخلاقية

إن الحركة "الإنسانية" تضع الإنسان -فردًا وجماعةً ونوعًا وشكلًا من أشكال الوجود- في مركز اهتماماتها؛ ولذا كان أكثر ما نادت به هو أن الحياة البشرية عمومًا، وحياة كل إنسانٍ بشكلٍ أخص، تتمتع -على نحوٍ ما- بقيمةٍ إنسانيةٍ متأصلة. وإلى جانب ذلك فإن احترام هذه القيمة المتأصلة إنما يُمثِّل -في كثيرٍ من المناهج الإنسانية- نقطة البدء أو الأساس الذي ترتكز إليه منظومة الأخلاق الرئيسية.

وفي رأيي، فإن أحدًا لا يُعبِّر عن هذه الحقيقة على نحوٍ يتسم بالقوة والتماسك مثلما يُعبِّر عنها فيلسوف القرن الثامن عشر، الألماني إيمانويل كانط؛ ففي كتابه "أساس ميتافيزيقا الأخلاق"، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٧٨٥، يسعى كانط إلى توضيح "المبدأ الأسمى للأخلاق"[٢]، وهو يقصد إلى إيضاحه على أساسٍ عقلانيٍّ -لا إمبريقي (تجريبي)- بحتٍ؛ حتى لا يخضع الفعل الأخلاقي للملابسات أو المشاعر البشرية أو الأهواء أو الظروف.

ولعل المساحة المتاحة ها هنا لا تكفي لاستعراض خصائص منهج كانط أو استنتاجاته، أو لإيجاز مُجمل نقاشاته في ذلك الكتاب إيجازًا ملائمًا. ولذا؛ سأكتفي بتلخيص النقاط وثيقة الصلة بنقاشه حول الإنسان كغايةٍ في ذاته، ومن ثَمَّ ككائنٍ ذي قيمةٍ مُتأصلةٍ لا ينبغي لها أن تُعاب.

لقد ارتكز الطرح الكانطي في "التأسيس" إلى ثلاثة مفاهيم أساسية، هي: العقل والإرادة والواجب. وباختصار، فإنه يقول إن الإنسان يختلف عن الحيوان في تمتعه بصفة العقل.

وقد حبَتنا الطبيعة بهذا العقل؛ لا لتجلبَ لنا السعادة أو لتساعدَنا في تأمين الرفاهية أو البقاء، بل بالأحرى تتكفل الغريزة التي بداخلنا -فيما يذهب كانط- بمثل هذه الأمور أفضل كثيرًا من العقل، مثلما هي الحال في حالة الحيوانات. وبدلًا من ذلك، يختص العقل فينا بتنمية الإرادة، التي لا غنى عنها -لا سيما الخيِّر منها- لأي مفهومٍ عن الأخلاق.

إن الأشياء الخيِّرة لا يُمكن أن تتأتَّى دون الإرادة الخيِّرة، وذلك بغض النظر عن غيرها من المواهب أو القدرات التي قد يتمتع بها الفرد؛ فهي خيرٌ في ذاتها وضروريةٌ للفعل الأخلاقي. ويُضيف كانط أن الإرادة الخيِّرة إنما تُتَلمَّس بالأساس في القدرة على التصرف صدورًا عن الواجب وحده، لا وفقًا للظروف والمشاعر. وهو يُكرس أغلب أطروحته لتوضيح هذه المفاهيم الأساسية الثلاث للعقل والإرادة والواجب وعملها داخل ميتافيزيقا أخلاقيةٍ يُمكن للإنسان أن يصوغ من خلالها مبدأً أسمىً للأخلاق يُوجِّه كافةَ تفكُّراته وأفعاله. هذا المبدأ الأسمى يُسميه كانط بـ "الأمر المطلق"، وهو يتخذ عدة أشكالٍ في أطروحته، أكثرها شيوعًا هو: "لا ينبغي لي التصرفُ مُطلقًا إلا بالطريقة التي يُمكنني معها أن أريد لمبدئي أن يصبح قانونًا عامًّا"[٣].

يرى كانط -إذن- أن الإنسان يمتلك العقل لِيُنمِّيَ داخل نفسه الإرادةَ الخيِّرة التي تصدُر في أفعالها عن الشعور بالواجب تجاه القانون الأخلاقي، بغض النظر عن الظروف أو المشاعر أو الأهواء أو المنفعة الشخصية. وهكذا تشتمل طبيعته، ككائنٍ عقلاني،

لقد نافح الأستاذ كولن، خلال مسيرته كإمامٍ رسمي في تركيا وكعالِمٍ ومُعلِّمٍ ألهم نحوً جيلٍ بأكمله من الشباب في جميع أرجاء البلاد وخارجها، عن الحوار بوصفه التزامًا وحراكًا ضروريًّا لعالمنا المعاصر.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

على أسس الأخلاق ذاتها، ويتسم -من ثَمَّ- بقيمةٍ مُتأصلة. أما خارج الإنسان، الذي هو كائنٌ عقلاني، فلا يوجد مفهومٌ واقعيٌّ للخير الأخلاقي؛ إذ ليس ثمة شيءٌ يُمكنه تحديد ما هو خيِّرٌ أخلاقيًّا بصورةٍ عقلانيةٍ وإكسابُه صفةَ العموم سوى الإنسان ذاته.

ويضيف كانط بأن الإنسان -من حيث هو كذلك- يمتلك قيمةً متأصلةً، لا قيمةً سوقية؛ فقيمته لا تقبل المساومة، وهي ليست شيئًا يُمكن بيعه أو شراؤه، أو شيئًا ذا قيمةٍ نسبيةٍ يتوقف على مُعطيات السوق.

وبذا تُسوِّغ رؤيته تلك "النظرَ إلى الحالة الإنسانية بوصفها مرادفًا للكرامة وتضعها بشكلٍ مطلقٍ فوق كل ثمن، ما يعني عدم إمكانية وضعها موضع المنافسة أو المقارنة البتة دون انتهاك ما لها من قداسةٍ، إذا جاز التعبير"[٤].

ثم ينتقل إلى القول بأن "الطبيعة العاقلة تتميز عن باقي أشكال الطبيعة بحقيقة أنها تجعل من نفسها غاية"[٥]. وبذا يكون بعدٌ آخر من أبعاد "الأمر المطلق" هو أنه "يَلزمُ للكائنِ العاقلِ ذاتِه أن يكون الأساسَ الذي تصدُر عنه كافةُ مباديء السلوك، وبالتالي لا يجب التعامل معه مطلقًا على أنه وسيلةٌ محضة، بل على أنه الشرط الأسمى الذي يُحكِم استخدام جميع

الوسائل، أي أنه دائمًا ما يكون غايةً في الوقت نفسه"[٦].

إن الإنسان غايةٌ في ذاته، لا محض وسيلةٍ لغايةِ شخصٍ آخر. ولذا لا يُمكن استخدامه كأداةٍ لتحقيق أهداف غيره أو أجنداتهم أو أيديولوجياتهم وحسب؛ فرغم أنه قد يُوظَّف في سبيل هذه المساعي، إلا أنه لا يُمكن اعتباره مجرد أو محض خادمٍ لأيٍّ من هذه المخططات؛ فهو دائمًا ما يكون غايةً في ذاته، حاملًا قيمةً وكرامةً متأصلتين، بغض النظر عن أي ميزةٍ أو منفعةٍ يقدمها لصالح أهداف وأجندات أي شخصٍ آخر.

لقد دافع التنوير الغربي، الذي كان كانط جزءًا منه، عن مفاهيم الكرامة الإنسانية المتأصلة تلك، ما أحدث تغيراتٍ جذريةً في المجتمع خلال القرن الثامن عشر وما تلاه. وبطبيعة الحال، فإن هذه الأفكار ليست حكرًا على حركة التنوير الغربية؛ فقد تناولها مفكرون وكُتَّاب من شتى أنحاء العالم في إطار مبادئهم الثقافية أو الدينية أو الفلسفية الخاصة. فعلى مدار قرون، ومن داخل أجزاء عديدةٍ من العالم، دأب العلماء المسلمون -مثلًا- على تأوُّل القرآن باعتباره مُعبِّرًا عن مثل هذه المفاهيم حول القيمة الإنسانية المتأصلة والكرامة الأخلاقية.

ولعل أعمال الأستاذ كولن أن تكون مثالًا للثقافة الإسلامية التي تُكرِّس لـ "النداء" القرآني الذي يؤكد على جمال الإنسان وقيمته البارزَين؛ إذ يُحيلنا إلى مثل هذه النصوص القرآنية ويوضحها بصورةٍ متكررةٍ لدى معالجته للتساؤلات حول الجهاد والعنف والإرهاب واحترام حياة الإنسان بصفةٍ عامة "لا حياة الإنسان المسلم وحده". وخلال هذه الأجزاء من أعماله، يظهر واضحًا تجاوبُه مع أفكار كانط، رغم أن كلًّا منهما يؤسس آراءه عن القيمة الإنسانية المتأصلة والكرامة الأخلاقية اعتمادًا على رؤىً مختلفةٍ تمامًا.

في قطعةٍ بعنوان "البشر وطبيعتهم الخاصة"، يتحدث الأستاذ كولن عن القيمة المتعالية للإنسان، فيبدأ القطعة بهذه العبارة النابضة بالحياة: "البشر، المرآة العظمى لأسماء وصفات وأفعال الله تعالى، مرايا وضاءة، ثمرةٌ مدهشةٌ من ثمار الحياة، ينبوعٌ للكون كله، بحرٌ يبدو كقطرةٍ صغيرة، شمسٌ تشكَّلت كبذرةٍ وديعة، لحنٌ جليلٌ رغم مكانتهم المادية المتدنية، ومصدر الوجود الذي يتجمَّع بكامله داخل جسمٍ ضئيل. إنهم يحملون سرًّا مقدَّسًا يجعلهم ندًّا للكون بأكمله، بكل ما لديهم من خصوبةِ الشخصية، خصوبةٍ يُمكن تعهدُها حتى تبلغ الكمال"[٧].

ويواصل قائلًا إن: "الوجود بأكمله يصبح كتابًا يُمكن قراءته بفضل الفهم والبصيرة الإنسانيَين وحدهما. إن البشر -بكل ما فيهم وما حولهم- شهودٌ مَلَكِيُّون على عظمة مَلكهم الله"[٨]. ثم يُنهي هذا الخط الفكري بقوله: "عندما يندمج هذا الكونُ اللامحدود جميعُه -بكل ما فيه من ثرواتٍ ومكوناتٍ وتاريخ- بالإنسانية تتضح غاية سمو قيمة النوع البشري على قيمة كل شيء. إن البشر أرفع مقامًا في الإسلام لمجرد كونهم بشرًا"[٩].

وهكذا يعزو الأستاذ كولن -في هذه المقتطفات- أعظم قيمةٍ وأسماها للإنسان؛ لِما يتمتع به من القدرة

على مشاهدة الكون وتفسيره؛ فكونه شاهدًا هذه صفتُه يجعله مرآةً تنعكس فيها صفات الله، وسطحًا عاكسًا للكتاب الإلهي المُتمثِّل في الكون؛ فبدون الإنسان، لا يُعرَف الكون، ولا يكون هناك من يدركه.

وفي قطعةٍ أخرى، يعيد الأستاذ كولن القول بأن البشر هم مركز الكون ومعناه، وأنهم -لذلك- يحوزون مرتبةً أعلى حتى من مرتبة الملائكة؛ فهم الذين يُضفون على الحياة -من خلال حراكهم وفهمهم- ماهيتها:

مع أخذنا بعين الاعتبار كل هذا التقدير الذي خُلع على الإنسانية، مقارنةً ببقية الخلائق كافة، فإنه ينبغي النظرُ إليها باعتبارها الصوت الذي يُعبِّر عن طبيعة الأشياء، وطبيعة الأحداث، وبالطبع طبيعة الواحد القدير الذي يُدبر الأمر كله، وفهمُها على أنها القلب الذي يشتمل على جميع الأكوان؛ فبوجود البشر، عثرت الخليقة على من يُفسرها، وقُطِّرت المادة من خلال مصفاة الإدراك البشري فتبيَّنتْ وجهَها الروحاني.

إن القدرةَ على رصد الأشياء خاصةٌ بالإنسان وحده، وأهليتَه لقراءةِ كتاب الكون وتفسيرِه امتيازٌ يختص به، ونسبتَه كل شيءٍ إلى الخالق نعمةٌ هائلة، وتفكُّرَه الذاتي المطْمئن تأمُّل، وكلامَه حكمة، وتفسيرَه النهائي لكافة الأشياء محبة.[١٠]

إذن، ففي حين يذهب كانط إلى أن القيمة المتأصلة في الإنسان إنما تستند إلى كونه كائنًا عقلانيًّا يخرج القانون الأخلاقي من خلاله إلى حيز الوجود

ألا عسانا -بتوجيهِ كولن وكانط- نُجدد أنفسنا وفقًا لأطروحاتهم؛ تجنبًا لارتكاب مزيدٍ من الفظاعات التي قد تكون أكثر بشاعة مما ارتكبناه سابقًا في حق أسرتنا الإنسانية؟

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الواقعي في العالم، يُدافع الأستاذ كولن عن قيمةٍ إنسانيةٍ تنبع من مكانة البشر بوصفهم الكائناتِ الوحيدةَ التي يُمكن من خلالها معرفةُ كتاب الله من الخلائق والتعبيرُ عن عجائب الوجود.ما يعني -في كلتا الحالتين- أن البشر -كأفرادٍ وجماعاتٍ- لا غنى عنهم بالنسبة للمقومات الأساسية للوجود، والتي تتمثل -في إحدى الحالتين- في الأخلاق، وفي الأخرى في كلٍّ من المعرفة والحكمة والمحبة.

وفوق ذلك، فإن الأستاذ كولن -شأنه في ذلك شأن كانط- ينظر إلى القيمة والكرامة الإنسانيتين باعتبارهما أساسَ تحديد السلوك المشروع من غير المشروع تجاه الآخرين داخل المجتمع؛ ففي إحدى كتاباته التي تتناول حقوق الإنسان في الإسلام، يذهب الأستاذ كولن إلى أن الدين الإسلامي يتضمن التصور الأمثل للحقوق العامة للإنسان، وأنه ليس ثمة دينٌ أو نظامٌ أو جهةٌ أخرى تفوقه في هذا المضمار. يقول: "يَعتبر الإسلام أن مَن قتل نفسًا واحدةً فكأنما قتل الناس جميعًا؛ ذلك أن قتل شخصٍ واحدٍ يُعدُّ مدخلًا لفكرة إمكانية قتل أي إنسان"[١١]. وفي موضعٍ آخر يقول إنه من وجهة النظر الإسلامية: "يتمتع كل إنسان، رجلًا كان أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا، أبيض

أو أسود، بالاحترام والحماية وصون الحرمة؛ بحيث إنه لا يجوز نزع ممتلكاته، ولا المساس بعِرضه، ولا إخراجه من موطنه، ولا جحود استقلاليته، ولا الحيلولة -كذلك- بينه وبين أن يحيا وفقًا لمبادئه. وفوق ذلك، يُحظر عليه ارتكاب مثل هذه الجرائم بحق الآخرين بالمثل؛ فلا يحق له إلحاق الأذى بهذه العطية الربانية [أي الإنسانية] التي لا يحوزها إلا بشكلٍ مؤقت؛ فالله وحده مالك كل شيءٍ على وجه الحقيقة. ويجب على الإنسان الدفاع عن هذه العطية والحفاظ على سلامتها؛ فهي عطيته المقدسة التي لن يضر بها ولن يسمح بوقوع الأذى عليها، وعليه -إذا لزم الأمر- أن يقاتل ويموت من أجلها"[١٢].

وكما هو واضح، يتردد صدى روح التحليل الكانطي لدى الأستاذ كولن رغم صدور هذا الأخير عن إطارٍ فكريٍّ مُغايرٍ بالكُليِّة، أي عن نظرة الإسلام الدينية الفلسفية إلى العالم. وهكذا نجد أن القيمة -أو حتى القداسة- المتأصلة في البشر تتطلب حماية الإنسانية حمايةً شاملةً وتحظر انتهاكها بشكلٍ قاطع. كما نجد أنه بالنسبة إلى كلٍّ من كانط وكولن، فإن الإنسانيةَ -كشكلٍ من أشكال الوجود- وأفرادَ النوع البشري وكائناتِه مُذهلون بحق.

لقد اكتسبت مختلف الآراء حول القيمة المتأصلة للكرامة الأخلاقية للإنسان -سواء قال بها مفكرو التنوير الغربي أم علماء إسلاميون يتأوَّلون القرآن أم غيرُهم من أي خلفيةٍ ثقافيةٍ كانت- أهميةً بارزةً في عالم اليوم. بيد أن الآراء في ذاتها لا تُحقق شيئًا، وإنما تصبح الثقافات والمجتمعات أقل همجيةً ودمويةً ووحشيةً ساعةَ يُلزِم الإنسانُ نفسَه بهذه الآراء ويجعلها أساسًا لسلوكه.

ونحن نتعلم من التاريخ أن المجتمعات التي تُبقي على القيمة الإنسانية المتأصلة في صميم وجودها السياسي والثقافي تُتيح لكافة أبنائها وساكنيها قدرًا من الاستقرار والسلام، لكنها حين تنزلق إلى مستنقع الاضطهاد والإبادة الجماعية يكون ذلك في الأغلب بسبب تخليها عن مبدَأي القيمة المتأصلة والكرامة الأخلاقية.

وفي الأخير، ألا عسانا -بتوجيهِ كولن وكانط- نُجدد أنفسنا وفقًا لهذه الأطروحات؛ تجنبًا لارتكاب مزيدٍ من الفظاعات التي قد تكون أكثر بشاعة مما ارتكبناه سابقًا في حق أسرتنا الإنسانية؟

المبحث الثاني: حرية الفكر

يضع التفكير الإنساني، وبخاصةٍ في أنماطه الحديثة، حريةَ الفكرِ والتعبيرِ عن التصوراتِ موضعَ الصدارة من أطروحاته، سواء من الناحية الفلسفية أو من الناحية الاجتماعية السياسية؛ حيث تمخضت فكرةُ الحرية التي نصت عليها الأشكال الحديثة من النزعة الإنسانية عن كافة صور حرية الصحافة وحرية التظاهر السلمي العلني والحق في التجمع وغيرها من الصيغ المماثلة. ومن الوجهة الفلسفية، تعود فكرة الحرية بجذورها إلى العالم القديم حين جابه الفلاسفةُ أنفسَهم والآخرين بكل تجليات الفكر وأخذوا على عواتقهم تفنيدها في الأسواق بحضرة

كل الراغبين في الإنصات. وهكذا انحدرت بعضُ أعظم معارفنا الكلاسيكية في الغرب عن هؤلاء الفلاسفة الذين أباحوا لأنفسهم حريةَ التأمل والبَوْح، ولو أوردهم ذلك -في نهاية المطاف- موارد الهَلَكَة أو النفي، رافضين تكبيل عقولهم وأصواتهم، حتى وإن صدر ذلك عن الدولة.

أما في الغرب المعاصر، فإن فلاسفةً وكُتَّابًا عديدين يوضحون مفهوم الحرية هذا بكل ما أُوتوا من قوة، وإن لم يُعبِّر أحدٌ -فيما أرى- عن هذا المفهوم بشكلٍ أكثر تحديدًا وجذريةً من المُنظِّر الاجتماعي السياسي البريطاني جون ستيوارت ميل الذي عاش في القرن التاسع عشر.

وفي هذا القسم من أقسام البحث، أعقد حوارًا بينه وبين الأستاذ كولن حول مفهوم حرية الفكر رغم ما بينهما من بونٍ شاسعٍ في نواحٍ بارزة؛ فأنماط الحريات التي يُجيزها ميل داخل المجتمع ربما تفوق كثيرًا تلك التي يُقرها الأستاذ كولن، لدرجة أن الرؤية الاجتماعية التي يُعبر عنها كلٌّ منهما ستتمخض عن مجتمعٍ يُباين مجتمع الآخر في مناحٍ متعددة. لكن من الناحية الأخرى، سيتسم كلا المجتمعَين -ولو من الناحية النظرية- بالتسامح في مسائل العقيدة والممارسة الدينية، وسيُبيح كلاهما الخوض في التساؤلات والنقاشات الحيوية حول القضايا المتصلة بالحقيقة في معظم -إن لم يكن في كافة- المجالات. وقد يرجع السبب في وجود هذه التشابهات بين "تصورَيهما" للمجتمع إلى التزامهما المشترك بقيمة

أدعو القراء إلى قراءة الكتاب بأكمله؛ للاطلاع على مُقتطفاتٍ أكثر إسهابًا وأدق عمقًا في معالجةٍ للتحليلات المعروضة هنا؛ فهذه الدراسة تستعرض النقاط الرئيسية لقسمين من أقسام الكتاب فحسب.

nesemat.com نسمات nesemat.com

الحرية، وبخاصةٍ في مسائل الفكر والضمير.

ولعل أكثر ما يشتهر به ميل هو كتابه "النفعيّة" Utilitarianism الذي يتناول فيه فلسفة الأخلاق. ومع ذلك، أود لو أسلط الضوء على عملٍ آخر من أعماله المهمة، وأعني بذلك كتابه "عن الحرية" الذي نُشر عام ١٨٥٩؛ ففي هذا الكتاب، يحدد ميل مشروعه بوصفه إيضاحًا للحريات الاجتماعية أو المدنية، وبعبارةٍ أخرى "طبيعة السلطة المشروعة التي يُمكن للمجتمع فرضها على الأفراد وحدود هذه السلطة"[١٣].

يقول ميل: "إن جيلًا متأخرًا زمنيًّا من الأجيال السابقة في تاريخ الغرب قد انشغل بمسألة طغيان الحكام، فابتدع شكل الحكم النيابي الذي أطاح بالقوى الاستبدادية للملوك مُدَّعِي الحق الإلهي ومَن لفَّ لفَّهم". ولَمَّا كان ميل ومعاصروه قد أفادوا من هذا النضال السابق، فإنهم ما عادوا مضطرين -في الأغلب- إلى مقاومة هذا الشكل من أشكال الطغيان. بيد أنه يعود فيؤكد أنه يَلزم للجيل الحالي، أي معاصريه في بريطانيا القرن التاسع عشر، أن يناضلوا ضد نوعٍ آخر من الطغيان يتمثَّل في استبداد الأغلبية. يقول: "من ثَمَّ، لا تكفي حماية الأفراد من طغيان الحكام، بل يجب حمايتهم كذلك من

طغيان المشاعر والآراء السائدة، ومن مَيْل المجتمع إلى أن يفرض -بوسائل أخرى غير العقوبات المدنية- أفكارَه وعاداتِه بوصفها قواعدَ للسلوك على الذين يعارضونها، فيعوق بذلك نمو الشخصية الفردية التي لا تتوافق وأساليبَه، بل يحاول -لو أمكن- منع تكوُّنها من الأساس، ويُجبر جميع الأفراد على التقولب بقالبه؛ فهناك خط يرسم حدود التدخل المشروع للرأي الجمعي في استقلالية الفرد، وترسيمُ حدود هذا الخط وحمايتُه من الانتهاك مسألةٌ لا غنى عنها لصلاح الأحوال البشرية، تمامًا كما أنه لا غنى عن حماية الأفراد من الاستبداد السياسي"[١٤].

أي إن ميل يضع يده على تجلٍّ خفيٍّ من تجليات الاستبداد يوجد في المجتمع حتى مع تطبيق النظام النيابي في الحكم. هذا الاستبداد ذو طابعٍ اجتماعيٍّ أو مدني، وهو يبرز كضغطٍ يمارسه المجتمع على أفراده ليتوافقوا ومعتقداتِه وعاداتِه "الطبيعية" في كافة مجالات الحياة؛ لمجرد أن المجتمع يرى هذه المعتقدات والعادات بوصفها "طبائع الأمور"، ولمجرد أن أغلبية أفراده يتبنُّونها. وبذا ينبغي على كل فردٍ -تأسيسًا على هذا المنطق- أن "يفعل المتوقع منه" أو يتم إجباره على ذلك، وهو الشيء الذي يرفضه ميل فيشرع في إرساء المبدأ الذي يُمكننا من خلاله تحديد مدى مشروعية تدخل الدولة أو ممثلي المجتمع في حرية الأفراد؛ بما أن هذا التدخل لا يقوم إلا على أساس التفضيلات الشخصية أو العرف.

وهكذا يُفصح عن مبدئه الخاص بالحريات المدنية منذ مُفتتح كتابه فيقول: "إن الغاية الوحيدة التي تُبيح للبشر التعرضَ -بصفةٍ فرديةٍ أو جمعيةٍ- لحرية تصرف أي مجموعةٍ منهم هي حماية النفس؛ فالغرض الوحيد الذي يُمكن لأجله فرضُ السلطة بشكلٍ مشروعٍ على أي فردٍ من أفراد المجتمع المتمدن -ولو ضد رغبته- هو منع الضرر عن الآخرين؛ وليس يُسوِّغ فرضَ السلطة إنفاذُ ما ترى الدولة أو المجتمع أنه يصب في مصلحته الشخصية، ماديةً كانت أو معنوية؛ فالإنسان سيد نفسه وجسده وعقله"[١٥].

ذاك مبدأٌ راديكاليٌّ في الحرية؛ فهو يجعل من الضرر الجسيم المباشر الأساسَ الشرعي الوحيد تقريبًا الذي يُمكن للدولة أو السلطات المدنية أن تتدخل بمقتضاه في سلوك الأفراد. ورغم أن الأستاذ كولن سيجد هذا المبدأ بالغ الليبرالية بلا شك، إلا أن هناك تجاوبًا بين الرجلين فيما يتعلق بفكرة الحرية هذه، خصوصًا في مجال الفكر والنقاش، الذي يُكرِّس له ميل فصلًا كاملًا من كتابه[١٦].

بشكلٍ لا لبس فيه يُناصر ستيوارت ميل حرية الفكر والنقاش، حتى لو اتضح أن الأفكار التي يناقشها المجتمع ويُعبِّر عنها أفكارٌ خاطئة، ويذهب إلى أن المقولاتِ المؤكدةَ التي تُطرَح على المجتمع للتباحث بشأنها إما أن تكون صحيحةً أو خاطئةً أو بين بين أي صحيحة من جانبٍ وخاطئة من جانبٍ آخر. وأيًّا ما كان الأمر، فإن أسمى مصالح المجتمعات إنما تتحقق حين يُسمَح بحريةِ التعبير وتفنيدِ المفاهيم؛ فلو ثبتت صحة الفكرة، سيستشعر المواطنون تقديرًا متجددًا

تجاه أصالتها بعد أن ناقشوها وأعادوا النظر في الحجج الداعمة لها ودافعوا عنها ضد مُناوئيها. وبهذه الطريقة تظل الأفكار الصائبة حيةً نابضةً في أعين الأفراد، بدلًا من أن تُبتذل وتخمل جرَّاء قبولها المجرد كمُسلَّمةٍ على مدى أجيال. ولو ثبت خطؤها، يكون المجتمع قد أفاد من طرحها للنقاش العام بالمثل؛ إذ يُعاد النظر إلى أدلة بطلانها، أو تُصبح هذه الأدلة واضحةً أمام كل المعنيين؛ فيدينون بالحقيقة عن اقتناعٍ أكثر من ذي قبل. أما الأرجح -فيما يرى ميل- فأن تشتمل الفكرة المطروحة على مزيجٍ من الصواب والخطأ؛ فالواقع أن أحدًا لا يمتلك الحقيقة المطلقة عن أي شيء، وليس بوسع العقل البشري أن يتصور الحقيقة بتمامها عن أي شيء؛ لأننا لا نعرف الأشياء في ذاتها، بل مجرد تصوراتٍ تتوقف على موقعنا منها. لذلك، ينبغي التعبير عن كافة الأفكار بحريةٍ داخل المجتمع؛ ليتسنَّى للحقائق الجزئية أن تترسخ بمزيدٍ من اليقين عبر آليات المشاركة والنقاش المدنيَين.

إن الفوائد التي تعود على المجتمع جرَّاء حرية الفكر والنقاش واضحةٌ بما فيه الكفاية، غير أن ميل يزيد من تعمقه في دراسة تأثيراتها الفعلية على الأفراد المُكوِّنين للمجتمع؛ إذ تلجأ المجتمعات في الأغلب إلى حظر حرية الفكر والنقاش في سعيٍ منها إلى محاربة البِدَع، إلا أن مثل هذا الحظر لا يُصيب المُبتدع بقدر ما يُصيب كل مَن عداه. يقول ميل:

"لعل أفدح الأضرار هي تلك التي تلم بمَن ليسوا من المبتدعة، ومَن أعاق خوفُ التورط في البِدَع

nesemat.com نسمات nesemat.com

الديمقراطية نظامٌ يمنح كل مَن يدخل تحت مظلته فرصةَ أن يعيش ويُعبِّر عن مشاعره وأفكاره الخاصة؛ وكذلك التسامح يتضمن في ثناياه شيئًا من ذلك؛ ويُمكننا أن نزعم أن الديمقراطية لا توجد حيثما لا يوجد التسامح.

نضوجَهم العقلي بأكمله وشلَّ تفكيرَهم. فمن ذا الذي بوسعه حصر مقدار ما يخسره العالم من نتاجات قرائح المثقفين الواعدين ذوي الشخصيات الخائرة الذين يجبُنون عن تبنِّي كل فكرٍ جسورٍ حيويٍّ مستقلٍّ؛ مخافةَ التورط فيما قد يُعتَبر تجديفًا أو زندقة؟"[١٧].

وبيتُ القصيد في كلام ميل السابق هو أن الخوف المفرط من البِدَع لا يكبح المبتدعين وحدهم، بل وكذلك مَن بوسعهم طرح أفكارٍ جسورةٍ وجديدةٍ ومبتكَرةٍ حول أي شيء، بما في ذلك التقاليد الموروثة التي تنضوي هي الأخرى تحت لواء القداسة فلا يُسمح بالمساس بها.

وحين يكون التهديدُ بالعقوبة على الابتداع بالغَ الصرامة داخل أحد المجتمعات، أو حين يُهدد أحدُها بإنزال عقوباتٍ مدنيةٍ بأولئك الذين يُعبِّرون عن تصوراتٍ مُغايرةٍ لما تسمح به "السلطات" المدنية صراحةً، فإن هذا المجتمع يعاني برمته؛ إذ من شأن الحدة الذهنية ألا تتأتَّى إلا بالمِراس والمجابهة، ولذا يتحول المجتمع الذي يُضيِّق على الفكر والنقاش إلى مجتمعٍ ضعيفٍ وهزيل. ويُضيف ميل:

"ليس بوسع مَن لا يدرك أن أول واجباته كمُفكِّرٍ أن ينقاد وراء عقله وصولًا إلى ما قد يستشف من

نتائج، أيًّا كانت طبيعتها، لكي يكون مُفكِّرًا عظيمًا؛ إذ من شأن الحقيقة أن تفيد حتى من أخطاء أولئك الذين يُفكرون لأنفسهم، شريطة الدراسة والإعداد الوافيين، أكثر مما تفيد من الآراء الصحيحة لأولئك الذين يكتفون بتبنِّي هذه الآراء دون تكبدهم مشقة التفكير".[١٨]

وهكذا يُشير مرةً أخرى إلى أن الأفكار الصائبة تتحول إلى أفكارٍ جامدةٍ هزيلةٍ حين لا يُدفع بها على نحوٍ منتظمٍ إلى ساحة النقاش والجدل. كما أن التزام مُعتنقيها بها لن يصبح التزامًا حقيقيًّا حتى يسمحوا لأنفسهم بحرية التفكير، وهو ما قد يعني وضعَ الحقائق التي طالما اعتُقد صحتُها موضعَ المساءلة. إلا أنه يعود فيؤكد أن الغاية ليست مجرد إيجاد مفكرين آحاد، فيقول:

"على أني لا أقصد أن يكون الغرض الوحيد أو الأساسي من حرية الفكر هو إيجاد مفكرين عظماء؛ بل على النقيض من ذلك، فإن حرية الفكر ضروريةٌ بالمثل، أو حتى أكثر ضروريةً لتمكين الأفراد العاديين من بلوغ المستوى العقلي الذي يُمكنهم بلوغه. وقد ظهر فيما مضى، وربما سيظهر ثانيةً فيما بعد، مفكرون آحاد بارزون في جوٍّ عامٍّ من الاستعباد العقلي، بيد أنه لم يظهر قط، ولن يظهر أبدًا، في تلك الأجواء شعبٌ حيٌّ التفكير".[١٩]

وهنا نرى ميل يُوضِّح قيمة الحرية تأسيسًا على دوافع بالغة الإنسانية جنبًا إلى جنب دوافع منفعية. وهنا أيضًا يُمكننا استحضار الأستاذ كولن إلى ساحة النقاش؛ كَوْنه غالبًا ما يتحدث عن مفهوم الحرية من كلتا الوجهتين الإنسانية والمنفعية؛ إذ طالما تناول في كتاباته مسألة التحرر من الاستبداد، وفي غير ما سياقٍ يُشير إلى الطغاة الذين رزحت مجموعاتٌ مختلفةٌ من المسلمين تحت أنيارهم خلال السنوات الأخيرة في إطار قوى العلمانية والاستعمار. بيد أنه يتحدث بشكلٍ أكثر عمومية -في سياقاتٍ أخرى- عن الحرية التي يتمتع بها كل فردٍ بحكم كونه إنسانًا، لدرجة انعكاس مبدأ ميل عن الحرية "المذكور آنفًا" في تأكيده أن "الحرية تُتيح للأشخاص فعلَ ما يحلو لهم، شريطة ألا يؤذوا الآخرين، وأن يظلوا مخلصين للحقيقة بكُلِّيَّتهم".[٢٠]

وربما كانت هذه العبارة الأخيرة -"وأن يظلوا مخلصين للحقيقة بكُلِّيَّتهم"- ستستوقف ميل باديء الأمر، غير أنه قد يرد قائلًا إن مَن ضلُّوا طريقهم فوقعوا في الأباطيل أو آمنوا بها مخلصون بكُلِّيَّتهم للحقيقة كذلك، وإن أخطأوا فهمها فحسب؛ فأن تتحدث أو تتصرف بطريقةٍ لا تكون معها "مخلصًا للحقيقة بكُلِّيَّتك" يُمكن أن يعني -بالنسبة إلى ميل وكولن على حدٍّ سواء- أشياء من قبيل القذف والتشهير والصراخ داخل قاعةٍ مزدحمةٍ قائلاً: "حريق!" حين لا يكون ثمة حريقٌ بالفعل.

إن انتصار الأستاذ كولن للتسامح لا يُمكن تصوره دون الالتزام بحرية الفكر والنقاش؛ وذلك -في المقام الأول- لأنه يصبح غير ذي ضرورةٍ إذا لم يُفسَح المجال لحرية الفكر والنقاش والاختيار الشخصي وما أشبه، كما أنه لا يُعدُّ من الفضائل إلا لأن البشر أحرارٌ

وبمقدورهم اختيارُ معتقداتٍ وأديانٍ ونشاطاتٍ شتى، وهو ما يعاود الأستاذ كولن تأكيده غير مرة، غالبًا خلال مناقشته للديمقراطية وحدها، أو خلال مناقشته للديمقراطية والإسلام الذين لا يرى بينهما أي تعارضٍ على الإطلاق.

وفي إحدى كتاباته عن فضيلة العفو، يربط الأستاذ كولن بين التسامح والديمقراطية من خلال مفهوم الحرية، فيقول: "الديمقراطية نظامٌ يمنح كل مَن يدخل تحت مظلته فرصةَ أن يعيش ويُعبِّر عن مشاعره وأفكاره الخاصة؛ وكذلك التسامح، فإنه يتضمن في ثناياه شيئًا من ذلك؛ ففي الحقيقة، يُمكننا أن نزعم أن الديمقراطية لا توجد حيثما لا يوجد التسامح"[٢١].

إلا أن هذه العبارات لا تحمل الصرامة الراديكالية التي تحملها مقولات ميل عن ضرورة الحرية وعن الحماية التي يحتاجها المواطنون ضد استبدادية المجتمع. وفقط حين يستعرض الأستاذ كولن مفهومه عن البشر المثاليين، أو "ورثة الأرض" كما يُسميهم في أحد أعماله، يُمكننا أن نرى ليس فقط التزامَه العميق بالحرية، بل وكذلك الأساسَ المنطقيَّ الذي يقوم عليه مثلُ هذا الالتزام، وهو أساسٌ منطقيٌّ إنسانيٌّ بحق؛ ففي كتابه "ونحن نُقيم صرح الروح"، يطرح الأستاذ كولن رؤيةً شاملةً لمجتمعٍ -بل عالمٍ- يقوده أشخاصٌ متفوقون روحيًّا وأخلاقيًّا وفكريًّا، ويُسميهم "ورثة الأرض"، ثم يستطرد بعض الشيء في وصف شخصياتهم وصفاتهم[٢٢]. وأثناء تعداده لسماتهم الأساسية، يُحدِّد الخامسة منها على أنها

نسمات nesemat.com

علينا أن نجد طريقةً يُمكن من خلالها لذوي الآراء والديانات والمعتقدات ووجهات النظر المتباينة أن يعيشوا في سلام؛ فلن يحدث أبدًا أن تتفق الآراء على رؤية واحدة أو معتقد واحد أو أن يفكروا جميعًا بالطريقة نفسها.

"القدرة على التفكير بحريةٍ واحترام حرية الفكر"[٢٣]، ثم يُتابع قائلًا:

"يُعدُّ تمتع الإنسان بالحرية غورًا مهمًّا من أغوار قوة إرادته، وبابًا خفيًّا قد يدلف منه كثيرون إلى أسرار الذات. ومَن لا يستطع بلوغَ هذا الغور والمرورَ من خلال هذا الباب لا يُمكن تسميته إنسانًا"[٢٤].

وبذا تكون حرية الفكر أمرًا جوهريًّا لاكتساب الصفة الإنسانية كما للبشرية ذاتها؛ فبدون حرية الفكر، ليس فقط بوصفها مبدأً اجتماعيًّا أو سياسيًّا، بل أيضًا باعتبارها قدرةً داخل الفرد، لا يُمكن للمرء أن يُسمَّى إنسانًا بحق. أي أن إنسانيته لا تتحقق دون حرية الفكر. يقول الأستاذ كولن مُفصِّلًا:

"في بيئةٍ تُفرَض فيها القيودُ على القراءة والتفكير والشعور والحياة، يصبح من المستحيل على المرء أن يحتفظ بملكاته البشرية، ناهيك عن تحقيقه النهضةَ والتقدم. وفي مثل هذه الحالة، يكون من الصعب جدًّا الإبقاء ولو على مستوى الرجل العامي العادي، ناهيك عن تنشئة شخصياتٍ عظيمةٍ تتوثب بروح التجديد والإصلاح فيما تتطلَّع عيونهم صوب اللانهاية. وفي مثل هذه الظروف، لا يكون ثمة وجودٌ لغير النفوس الضعيفة التي تعاني انحرافًا في هويتها، ولغير

الرجال ذوي الأرواح الخاملة والحواس المُعطَّلة"[٢٥].

إن تحقيق النهضة البشرية ومن ثَمَّ النهضة المجتمعية والنمو، بل كافة أشكال الإصلاح والتقدم، رهينٌ بحرية الفكر والمعيشة؛ فالمجتمع الذي لا يتمتع بمثل هذه الحريات لا قِبَل له باحتضان الأفراد ذوي الهِمم والرؤى القادرة على دفعه قُدُمًا صوب آفاق جديدة؛ وربما كان الأسوأ من ذلك عدمَ تعهده للعامة حتى يبلغوا أقصى ما لديهم من طاقاتٍ إنسانية. وفي ذلك يتجاوب الأستاذ كولن مع ميل في دفاعه عن الحرية لما لها من منفعةٍ مجتمعيةٍ ولما لها من قيمةٍ إنسانية. وفي الواقع، فإن جذور المنفعة المجتمعية منغرسةٌ في القيمة الإنسانية للحرية؛ أي أن الحرية تفيد المجتمع بفضل ما تمارسه من "دورٍ" في تكوين البشر وتنميتهم كأفراد. وكما سبق أن رأينا في المبحث الأول، فإن البشر هم الأعلى قيمة. وهو ما يعني -إذن- أن تطوير القدرات الإنسانية أو "الكينونة" البشرية له نفس هذه القيمة الرفيعة.

لقد رثى الأستاذ كولن حال التاريخ الحديث لتركيا وغيرها من المناطق الإسلامية، حيث خضع السكان -وما زالوا في بعض الحالات- لتركيباتٍ مجتمعيةٍ تحظر حرية الفكر والمعرفة، سواءٌ من خلال التجريم المباشر أو من خلال الأيديولوجيات السائدة التي تتبناها الدولة. وفيما يتعلق بمجال التعليم الإسلامي على وجه الخصوص، يُشير الأستاذ كولن إلى ماضٍ نابضٍ بالحياة من الدرس والاطلاع، منفتحٍ على شتى فروع المعرفة والبحث العلمي. بيد أن روح الدرس هذه ما لبثت أن أفسحت المجال لضيق الأفق والاستظهار الأعمى للأعمال المُعتمَدة. وفي هذه المرحلة، بدأت كافة الإمكانات البشرية في الاضمحلال البطيء؛ لتتحول الأمة من ثَمَّ إلى لقمةٍ سائغةٍ في أفواه الطغاة الانتهازيين والمؤدلجين والمستعمرين.

إنه يتوق إلى حركة تجديدٍ داخل صفوف المسلمين؛ ليتسنَّى للحضارة الإسلامية احتلال مكانةٍ بارزةٍ على صعيد القيادة العالمية من جديد، مثلما كانت الحال خلال القرون الماضية حين انحدرت عناصر كثيرةٌ من تلك التي أسهمت في تشكيل "الحضارة" من أصول إسلامية. ولِيحدثَ ذلك، يقول:

"علينا أن نتمتع بحريةٍ أكبر في الفكر والإرادة. وما أحوجنا إلى تلك القلوبِ الكبيرة التي يُمكنها أن تتسع للتفكير الحر النزيه، القلوبِ المنفتحة على العلوم والمعارف والبحث العلمي، القلوبِ التي بوسعها استيعاب التوافق بين القرآن وسنة الله في ذلك المدى الفسيح الممتد من الكون إلى الحياة"[٢٦].

فبدون تجديد قدرتنا على حرية الفكر، فُرادى وجماعات، ستتبدد الحضارة الإسلامية، بل الحضارة بمجملها في واقع الأمر؛ إذ دون حرية الفكر، لا إمكانية لقيام إنسانيةٍ تتسم بالأصالة والقوة؛ وبدون إنسانيةٍ تتسم بالأصالة، لا إمكانية لقيام حضارةٍ عظيمة.

وكما ذكرت من قبل، فإن كلًّا من كولن وميل ينحدران من سياقَين اجتماعيين وسياسيين ودينيين شديدَي التباين، ومن ثَمَّ يتصوران مجتمَعَين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا كبيرًا. فميل يقول بنوعٍ

من الحرية في طريقة الحياة والسلوك يعتبره الأستاذ كولن ذا خطورةٍ وأثرٍ مدمرٍ على المجتمع ككل. كما أن ميل سيرى في مجتمع كولن المثالي مجتمعًا أساسه دينيٌّ أكثر من اللازم، وبالتالي سيراه عُرضةً لخطر "استبدادية الأغلبية" إلى حدٍّ كبير، وهو الخطر الذي يُصر ميل على أن يبقى المجتمع بمنأىً عنه. غير أنهما يتفقان على إحدى النقاط التي أعتبرها فائقة الأهمية لحياة البشرية وازدهارها، وهي حرية الفكر والتعبير؛ إذ يجب أن يكون بمقدور الأفراد أن يُفكروا بحريةٍ وأن يُعبِّروا عن أفكارهم علانيةً دون خوف العقاب؛ فمجرد الإفصاح عن الأفكار –شفاهةً أو كتابةً– لا يُلحق الضرر بالآخرين، بل على النقيض من ذلك، يتمتع الأفراد والمجتمع ككل بموفور الصحة والمنفعة حين تتم هيكلة المجتمع ذاته بطريقةٍ تُقر حرية الفكر والتساؤل والتعبير.

إن ميل وكولن يستشعران التزامًا متساويًا تجاه قيمة الحرية كلًّا في نطاق مجتمعه؛ كونهما –في المقام الأول– مفكرَين إنسانيَّين، بأوسع معاني الكلمة؛ وكما نعلم فإن مفهومَ الحرية مفهومٌ محوريٌّ في الفكر الإنساني. ولا مفر لأي شخصٍ يجد داخل نفسه حبًّا للبشرية وإيمانًا بعظمتها من مناصرة حرية الإنسان مثلهما، خصوصًا في مجال الفكر والتساؤل والتعبير.

خاتمة

ليس النقاش الوارد أعلاه لأفكار الأستاذ كولن وهي "في حوارٍ" مع أفكار كانط وميل سوى نموذجٍ لنوع التحليل الذي أقدمه في كامل الكتاب الذي

nesemat.com نسيمات nesemat.com

ما أحوجنا إلى تلك القلوبِ الكبيرة التي تتسع للتفكير الحر النزيه، المنفتحة على العلوم والمعارف والبحث العلمي، والتي تستوعب التوافق بين القرآن وسنة الله في ذلك المدى الفسيح الممتد من الكون إلى الحياة.

يعرض بالنقاش للمباحث الإنسانية الخمس الرئيسية جميعِها ويعقد حوارًا بين الأستاذ كولن من جهةٍ وبين كانط وميل وكونفوشيوس وأفلاطون وسارتر من جهةٍ مقابلة. وأنا أعتقد بأهمية هذه المحاورات للباحثين في الحركة الإنسانية وكذلك للمهتمين من مواطني عالم اليوم ذي الطبيعة العولمية.

إن من الواجب علينا أن نعثر على طريقةٍ يُمكن من خلالها للأشخاص ذوي الآراء والديانات والمعتقدات ووجهات النظر المتباينة أن يعيشوا سويًّا في سلام؛ فلن يحدث أبدًا أن يصبح كل سكان العالم من المسلمين أو المسيحيين، أو أن يمارسوا جميعُهم الديمقراطيةَ بالطريقة نفسِها، بافتراض ممارسة الجميع لها أصلًا، أو أن يؤمنوا بذات الرب، بافتراض إيمان الجميع بربٍّ أصلًا؛ ففي كل وقتٍ وكل بقعةٍ من بقاع الأرض سيختلف البشر في رؤاهم حول أشياء تفوق الحصر. بيد أن بوسعنا العثورَ على نقاط اتصالٍ وتلاقٍ وسط خلافاتنا يُمكنها أن تقوم مقام أرضية مشتركة تَضُمُّنَا معًا كأسرةٍ إنسانيةٍ واحدةٍ من خلال وضع القيم الأساسية الضرورية لحياة البشرية وازدهارها في بؤرة اهتمامنا. كما أن من الواجب علينا إيضاحَ نطاقِ هذه القيم الأساسية التي أشرت إليها

هاهنا باعتبارها قيمًا إنسانيةً عامةً والعيشَ داخل هذا النطاق؛ فقد أصبحت حياةُ كلٍّ منا على المحك، والحياةُ ذاتُها -كما نعرفها- على المحك. ■

الهوامش

(١) أُصنِّف الأستاذ كولن كأحد المفكرين الإنسانيين رغم حقيقة أنه قد يرفض إطلاق هذا المصطلح على نفسه؛ فهو يُميِّز بين الإنسانية الغربية والرؤية الإسلامية في قدرٍ كبيرٍ من أعماله، قائلًا إن الأولى مجرد أيديولوجية أو فلسفة بينما الأخيرة وحيٌ إلهي. وأنا أعتبره مفكرًا إنسانيًا إسلاميًا؛ لأن الإسلام -وفقًا لرؤيته- هو رؤيةٌ شاملةٌ للحياة والوجود الإنسانيين بأكملهما. هذا التركيز على الإنسان هو ما يَسِمُ كلًا من الدين الإسلامي والأستاذ كولن نفسه بـ"الإنسانية"، وذلك بأوسع معنىً ممكنٍ للكلمة.

(٢) إيمانويل كانط، أُسس ميتافيزيقا الأخلاق، الطبعة الثالثة. ترجمة جيمس دبليو إلينجتون (إنديانابوليس، إنديانا: شركة هاكيت للنشر، ١٩٩٣).

(٣) ٥ المصدر السابق.

(٤) ١٤ المصدر السابق.

(٥) ٤١ المصدر السابق.

(٦) ٤٢ المصدر السابق.

(٧) ٤٣ فتح الله كولن، "البشر وطبيعتهم الخاصة"، نحو حضارةٍ عالميةٍ من المحبة والتسامح، تحرير إم إِنس إيرجين (نيو جيرسي: ذا لايت للنشر، ٢٠٠٤)،

(٨) ١١٢. المصدر السابق

(٩) ١١٢. المصدر السابق

(١٠) ١١٣ فتح الله كولن، "العمق الداخلي للنوع البشري"، نحو حضارةٍ عالميةٍ من المحبة والتسامح، تحرير إم إِنس إيرجين (نيو جيرسي: ذا لايت للنشر، ٢٠٠٤).

(١١) ١١٧. فتح الله كولن، "حقوق الإنسان في الإسلام"، نحو حضارةٍ عالميةٍ من المحبة والتسامح، تحرير إم إِنس إيرجين (نيو جيرسي: ذا لايت للنشر، ٢٠٠٤)، ١٦٩. يُقيِّد الأستاذ كولن هذه العبارة بطريقةٍ شائعةٍ لدى أغلب المفكرين الدينيين والفلسفيين؛ أي أنه ربما يكون من السائغ قتل أولئك الذين يقتلون غيرهم، والساعين في خراب المجتمع. إلخ. ففي هذه الحالات، لا يُعدُّ القتل شكلًا من أشكال الفتك، بل عقوبة أو دفاعًا عن النفس.

(١٢) "البشر وطبيعتهم الخاصة".

(١٣) ١١٤.جون ستيوارت ميل، عن الحرية، طبعة نقدية من شركة نورتون للنشر. تحرير ألان ريان (نيويورك؛ دبليو دبليو نورتون، ١٩٩٧).

(١٤) ٤١. المصدر السابق.

(١٥) ٤٤ المصدر السابق.

(١٦) ٤٨. يُحرِّم الإسلامُ -شأنه في ذلك شأن فلسفاتٍ دينيةٍ عدةٍ- الانتحارَ وغيرَه من الأفعال المماثلة في إيذائها للنفس، على أساس أن جسمَ الإنسان أو نفسَه هبةٌ من الله، أو أنها ليست ملكه ليعود عليها بالضرر.

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) ٦٧. المصدر السابق.

(١٩) ٦٧. المصدر السابق.

(٢٠) ٦٧. محمد فتح الله كولن، الموازين أو أضواء على الطريق، المجلد ١. ترجمة على أونال (نيو جيرسي؛ ذا لايت للنشر).

(٢١) ٥٥ محمد فتح الله كولن، "العفو والتسامح والحوار"، نحو حضارةٍ عالميةٍ من المحبة والتسامح، تحرير إم إِنس إيرجين (نيو جيرسي: ذا لايت للنشر، ٢٠٠٤).

(٢٢) ٤٤ محمد فتح الله كولن، ونحن نقيم صرح الروح. ترجمة محمد جيتين "نيو جيرسي؛ ذا لايت للنشر، ٢٠٠٥"، ٥-١٠، ٣١-٤٢. يُناقَش مفهوم "ورثة الأرض" وكذا رؤية الأستاذ كولن الاجتماعية بتعمقٍ أكبر خلال جزءٍ لاحقٍ من أجزاء الكتاب الذي يُعد هذا البحث ملخصًا لفصليه الأولين فحسب.

(٢٣) ٣٨ المصدر السابق.

(٢٤) ٣٨ المصدر السابق.

(٢٥) ٣٩ المصدر السابق.

(٢٦) ٣٩ المصدر السابق، ٤٠٠. تُشير "سنة الله" إلى الأنماط الثابتة لفعل الله في الكون.

مشروع الخدمة من عين الواقع المبادئ والمجالات

محمد خروبات

أ.د. محمد خروبات أكاديمي مغربي، يعمل أستاذًا للتعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، مهتم بالاجتهاد المعاصر والمشكلات الإنسانية، واشتغل في قضايا الفكر الإسلامي وحوار الأديان والحضارات، والحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية. ناقش وأشرف على عدد من الرسائل الجامعية، كما سيَّر واشترك في عضوية عديد من المجموعات والجمعيات والدوائر العلمية، وله عديد من الإصدارات العلمية منها: الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في التدافع الحضاري.

يشكل الأستاذ كولن بتجاربه المتعددة وبحرصه الصارم، على تربية الأسوة والقدوة نواة المدار، وحوله يتحلق "إخوة الخدمة" في دوائر كلما ابتعدت كبرت كموج البحر لا يظهر عليها التناهي من شدة التفاني... توالد بالإيجاب، وتكاثر بالنفع، ويدور الكل حول تلك النواة التي تشكل في نظري "مركز مشروع الأستاذ فتح الله كولن"... ولذلك لم يَعد الأستاذ مجرد رسائل أو كتب أو محاضرات ودروس، بل أصبح مدرسة متحركة، مدرسة يمثلها الإنسان والحضارة والعمران، هذه المدرسة بإنسانها وعمرانها وأدبياتها وأنشطتها العلمية والفكرية التي تعددت وامتدّت، فسحت في المجال للباحثين والدارسين والزائرين ليجعلوا منها مجالاً للبحث والدرس، وإطارًا للكلام الهادف والمتعدد.

وتجربة الأستاذ هي تجربة رباعية التركيب: "التراث الإسلامي" الذي هو المنطلق والمجال، و"التجربة الشخصية" التي هي الوسيلة والأداة، و"الواقع المعاصر" الذي هو القصد والهدف، و"البعد الإنساني" الذي هو الدافع والمحرك، وهذا ما ستوثقه السطور التالية.

١ المتكلمون في "مشروع الخدمة"

المتأمل في عطاءات الباحثين في مشروع الأستاذ فتح الله كولن يجدهم على عدة أصناف:

أ- فيهم من يُطالع تأليف الأستاذ والإنتاجات الفكرية حوله لا يتجاوزها إلى الرؤية الميدانية، فهذا الصنف يبقى تصوّره ناقصًا، لأنه انحبس في الجانب النظري.

بـ- وصنف يقف على المنجزات والإبداعات ومشروعات الخدمة فيراها رأي العين، فهذا يقف على نصف الحقيقة، لأنه وقف في نصف الطريق، فالرؤية وحدها لا توصل إلا إلى نصف الطريق ما لم يربط تلك المنجزات بالمحفّزات الدينية والخلقية والإيمانية والواقعية التي فرضت نفسها، وهذا يتطلب فهمًا من نوع مغاير.

جـ- وصنف من الباحثين قرأ وطالع وبحث وأصَّل وعاين حقيقة الخدمة عن قرب، فهذا الصنف على جانب كبير من الفهم والمعرفة، لأنه التزم بالمنهج فربط النظري بالعملي.

د- أما من انخرط في المشروع كلية، وأصبح من "إخوة الخدمة"، ومن عناصرها الفاعلين ومن المجتهدين العاملين فهذا -في نظري- حاز عنصر السبق في العلم والفهم؛ وفي الحديث الموقوف: "تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا" (أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل، بإسناد حسن)، وفي حديث موقوف آخر "تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا". (أخرجه الدارمي في سننه)

هذا الصنف هو الرابع من حيث التصنيف، وهو الأول من حيث الاعتبار، صنف دفعتْ به تجربته إلى الانخراط في العمل ومن ثم إلى الاتحاد في المشروع الكلي للخدمة ليصبح جزءًا منها وهي في الغالب تُبنى عليه، ومدار العمل كله فكريًّا كان أو نظريًّا على التجربة العلمية والعملية للأستاذ فتح الله كولن.

لقد أصبح هذا الصنف على مدار الوقت موضوع بحث ومجالاً للفهم والمعرفة، لِمَ لا وهذا المشروع يرتكز على الإسلام بكل ثوابته، ذلك أن الإطار العام الذي يتحرك فيه الأستاذ، هو فكر إصلاحي شامل ينطلق من التراث الإسلامي الكلي: القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والأصول والمقاصد والفكر والزهد... إلخ.

فَصَيْحةُ الأستاذ هي صيحة إصلاحية شاملة انبنت على تجارب الإصلاح في العالم الإسلامي مرورًا بتجربة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي كإحدى التجارب التركية الرائدة في مطلع القرن الماضي. والثابت الثاني، الواقع التركي بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الواقع بماضيه وحاضره؛ إنه فتح الله كولن بفكره وذاته، الفكر الذي نهل من معين التراث، والذات التي عايشت الواقع المرّ الذي طرأت عليه تحولات جذرية.

لقد سخَّر للواقع جيلاً نهل من الماضي واتجه صوب الحاضر ليستشرف المستقبل، كانت آهاته آهات حسرة، وأنينُه أنين ألم.. إلى جانب هذا الثابت هناك

البعد الإنساني الذي استحضره الأستاذ عبر واقع التحضر العالمي، واقع العولمة والتحديات المعاصرة الجارفة.

من هنا نقول إن تجربة الأستاذ هي تجربة رباعية التركيب: "التراث الإسلامي" الذي هو المنطلق والمجال، و"التجربة الشخصية" التي هي الوسيلة والأداة، و"الواقع المعاصر" الذي هو القصد والهدف، و"البعد الإنساني" الذي هو الدافع والمحرك. وسنرى تطبيقات كل ذلك عند حديثنا عن "إنسان الخدمة" في النقطة الموالية.

إنسان الخدمة

كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في المدلول والمعنى:

مدلولها الأول "إنساني" غير قاصر على القطرية أو الانتماء الجنسي أو العقدي.

المدلول الثاني التواضع الجمّ، والعمل بنكران الذات. ويعني تيسير الأمور على الناس في حياتهم العامة.

فالخادم هو مَن يعمل ليساعد ويعين لتيسير ما تعسّر وتقريب ما بَعُدَ، وهي شاملة وعامة. وإذا أردنا تقريب المعنى أكثر قلنا: إن "إنسان الخدمة" هو في خدمة الإنسانية كلها، ولا يُفهَم من "إنسان الخدمة" دونية المعنى، إنهم صحابة الأستاذ وتلامذته المباشرون، فعلى الرغم من التطور الحضاري والنمو العمراني والتكنولوجي الذي حازت فيه تركيا عنصر السبق، ما زالت فئة ظاهرة على الحق يمتحون من تجربة صحابة النبي ﷺ القدوة الحسنة ﷺ. وكثيرًا

nesemat.com نسيمات nesemat.com

لا يكون الفرد متخلقًا في عرف الخدمة إلا إذا كان عونًا لغيره. تلك هي" الأخلاق العملية" التي من خصائصها الوسطية والاعتدال، وهما أساسيتان في الأخلاق الإسلامية.

ما كان الأستاذ يذكرهم بذلك بعبارة "حرق المسافة بينهم وبين النبي ﷺ"؛ فالقرون الممتدّة منهم إليه لا تعني شيئًا أمام القدوة والأسوة، فلا تقف حائلاً في وجه الاتّباع والاقتداء، بهذه العبارة تُطوى الحضارة كلها لتصبح وسيلة للخدمة، ولن تكون هي الأخرى عائقًا في وجه استلهام التجربة النبوية كما يحلو للبعض أن يتصور، تمامًا كما طويت القرون[1].

من موقع الزائر الناظر تجد أن "إنسان الخدمة" يشكل الأسرة الكبرى في مجتمعه. صحيح جدًّا أن "الأسرة" هي نواة المجتمع، لكن الخدمة قلبت هذا المفهوم تمامًا؛ ففي الوقت الذي بدأ فيه الجميع يتكلم عن الأسرة، وسخِّرت في ذلك نظريات ومفاهيم في البحث والدرس، وتم الدفع بها في مجاري الرؤية المعاصرة مما ولد اهتمامًا مبالغًا فيه اتصف بالغلو والتنطّع، وتُنُوسِي المجتمع بل تم إهماله، ولا يلزم من الدعوة إلى إصلاح الأسرة والإفراط في الاهتمام النظري بها إصلاح المجتمع ما لم يتم التركيز على المجتمع، لكن الخدمة قلبت هذا المفهوم تمامًا، فالفرد للمجتمع، والأسرة للمجتمع.

لقد رأينا الجميع في الخدمة من الآباء والأمهات، الشباب والشابات، النساء والرجال، الأطفال والشيوخ... لقد نزل الجميع لخدمة

nesemat.com نسمات nesemat.com

مشروع الخدمة من حيث مكوناته وأساليبه، هو ذاتي التكوين، لم يَستعر هذا المشروع تنظيمه وأساليبه وهيكلته من غيره، لكنه في عمومه استوحى التجربة من التراث الإسلامي.

الجميع، ونجح الجميع في خدمة الجميع في جهات كثيرة من المعمور ما زال الإنسان متخبطًا في معالجة أمراض نفسه، يعاني من تمرد النفس، لكن هنا يتغلب الإنسان على نفسه، ويُعانُ على التغلب عليها، وتُروَّض على الرغم منها لتصبح طائعة هينة، ثم توجه إلى ما لأجْله وُجدت. فالوظيفة الحقيقية للإنسان على هذه الأرض هي الإيمان بالله والعمل الصالح، وهي أزرار ضغَط عليها الأستاذ بإحكام فبنى عليها مشروع الخدمة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت:٣٣).

لزائر تركيا وللواقف على أساليب الخدمة أن يتحدث هل يحس بالفرق بينه وبين رجال الخدمة؟ شيء طبيعي أن تحس بالتباين الشاسع والفرق الكبير بينك وبين من لا يتكلم لغتك، لكن هنا يذوب هذا الإحساس تمامًا ليعوض بتواصل كبير، إنه التواصل الروحي والأخوّة في الدين وفي الإنسانية، وهي معطيات أسهمت الخدمة في إيجادها. الخدمة لا تجعلك تغيّر من سلوكك فحسب، بل تُحدث فيك طاقة جديدة يتولد عنها منهج جديد في التعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث تصبح القراءة من موقع تجربة الخدمة لا مِن موقع الأساليب المعلقة. إنها تجربة ذات نفَس جديد في الواقعية والتأصيل والتفعيل، ولذلك كثيرًا ما كنتُ أقف مدهوشًا أمام هذا النمط من الكتابة حول القرآن والسنة والسيرة والأخلاق والحضارة والروح... إلخ[٢]، أعني بذلك الكتابة التي استحدثها الأستاذ فتح الله، المصادر هي هي، لكن طرق التعامل معها يختلف، وكنت أبحث عن سرّ التميز في التأليف والتصنيف، ولا أجازف إذا قلت إنها "الخدمة"... الخدمة هنا هي كل شيء؛ هي العلم والمعرفة، وهي الثقافة والحضارة، وهي الفن والإبداع، وهي الوظيفة والمال، وهي الأسرة والعائلة، وهي الأصدقاء والإخوة... فمن استغنى عنها فقد ضيّع جانبًا مهمًا من حياته وحياة الناس، ومن دخل إلى ساحة الخدمة متحلّيًا بتلك العناصر فقد تحصل له المراد. ولا أريد هنا أن أمثل بنماذج حية من عين الواقع، فقد خبرتُ التجربة عن قرب، وشاهدتُ وجالستُ واستفدتُ، وليس مَن رأى كمن سمع، ولا من سمع كمن قرأ، وتلك مستويات في الفهم كنت مجبرًا أن أتكلم عليها في التصنيف السابق.

وقد يقول قائل: "إن الدعوة يمكن أن تكون من دون هذا النوع من الخدمة" أقول: قد يكون ذلك في غير الواقع التركي، أما الواقع التركي المعاصر فهذا النوع يبدو ناجحًا بكل المقاييس، إنه ربيع تركيا الخاص،[٣]، الربيع الذي يطلق عليه من موقع لغة الخدمة "الأزهار"، وهو نعت لطيف، جميل وخفيف، إنها أزهار الأستاذ التي تتفتّح يومًا بعد

آخر... ولقد تكلم الأستاذ بديع الزمان -رحمه الله- عن الأزهار في وقت من الأوقات، وتكلم الأستاذ فتح الله كولن عن الأزهار في هذا الوقت لتكون في كل وقت، ومهما خيم صيف حارق للإيذاء بها فإن نواتها توجد في عمق التراب، وبالتحديد فوق قبور الأجداد، أولئك الذين ماتوا مرتاحين بعد أن فعلوا ما عليهم، ما زالت آثارهم ثابتة، وقبورهم محطّ الزيارة إلى اليوم، منطلقها قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ، إنهم زرعوا فأنبتوا، فكانت تلك الأزهار من بذرتهم.

العاملون في الخدمة تطلق عليهم ألقاب متعددة، منهم من ينعتهم بـ"أبناء الخدمة"، ومنهم من يصفهم بـ"إخوة الخدمة"، ومنهم من يسمّيهم بـ"أصحاب الخدمة"؛ وقد نطلق عليهم "إنسان الخدمة" وهي إطلاقات لا تغير من الحقيقة شيئًا، إنهم كذلك بكل المواصفات... والباحثون يطلقون الوصف حسب ما يريدون منه، والكلمة الرائجة هي "الأصحاب" وهي كلمة لطيفة ودالة، وهي من إطلاق الأستاذ نفسه، كان يسمّيهم بـ"الأصحاب" عِوَض "التلاميذ"، وهو نعت مؤصل من سنة النبي ﷺ حين نعت أتباعه بـ"الأصحاب"، فقد دعا النبي ﷺ من تبعه ورآه وآمن به منهم بـ"الأصحاب"، ولم يطلق عليهم نعت "تلاميذ" وإن كان هذا النعت في حقهم جائز.

فالصحابة كانوا قدوة لأبناء الخدمة، قال لهم الأستاذ مرّة وقد خرج إلى جماعة منهم وهو يحمل كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي بيده: "كونوا مثل هؤلاء أو موتوا".

nesemat.com نسمات nesemat.com

إن أكبر نجاح حققه إعلام الخدمة، هو أنه تصدى للإعلام الكاذب ففضح أساليبه وخططه. وتَحقَّق من هذه العملية أن الإعلام المضاد خفف من حدة التمويه والزيف والتضليل.

إن سر نجاح الخدمة يكمن في هذه الصيرورة المطردة، فهي نموذج يتكامل يومًا بعد يوم، لا اختلاف ولا تباين، ولا فارق بينهم ولا تباعد إلا بالجد والعمل والتقوى، الجميع على نمط متجانس، وهو سرٌّ يرجع إلى الالتزام بالخط القرآني، وهو خط واضح بيِّنٌ، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)؛ التعارف مقدمة ضرورية للتعرف والتواصل، وبالتعرف والتواصل يتم التعايش، وبالتعايش يتحصل التسامح والتآخي، وإذا تحصلت هذه الأمور جميعها تقوت أواصر المحبة، وما سبب النفور والإعراض المفضيَين إلى الكوارث الأخلاقية في بعض الأحيان إلا بجهل كل طرف للآخر. وأعتقد أن سبب المحبة الحاصلة بين أفراد الخدمة إنما هي نابعة من ثقافة معينة.

إن المتأمل في ثقافة وأدبيات الأستاذ فتح الله، يجدها تفوح بفكر المحبة، وبالأساليب الدافعة إلى تحصيل المحبة -محبة القلوب- وهي ظاهرة تحتاج إلى أن تفرد ببحث مستقل. وإننا لنرجو صادقين أن تمتد هذه الأفكار والتوجيهات والنصائح والإرشادات إلى أجيال الإنسانية كلها.

"إنسان الخدمة" كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في المدلول والمعنى: الأول "إنساني" غير قاصر على القطرية أو الانتماء الجنسي أو العقدي. والثاني التواضع الجمّ، والعمل بنكران الذات.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مرتكزات المشروع

نقصد بـ"المشروع" الخدمةَ، الخدمة التي تسير من دون مواثيق ولا معاهدات بين الأفراد، ولا دفاتر أو سجلات، ومن دون قانون داخلي أو خارجي، ولا يفعل من هذا إلا ما اقتضته الضرورة الإدارية. أما العلاقات داخل الخدمة فتتسم بالسجية والفطرة وحسن الظن بالآخر كيفما كان هذا الآخر، والأمور -ما رأيناها- تسير من دون تكلّف أو تعسف، أو سلطة صارمة تزرع خوف أبناء الخدمة منها لا من الله ﷻ. ويمكن القول بأن الأستاذ هو اسم على مسمّى؛ فهو "فتحٌ" مبين على هذا الجيل المتعطش للتربية، وللقدوة الصالحة، والتوجيه النير، فإذا كان السلطان محمد الفاتح قد فتح الديار، فإن الأستاذ محمد فتح الله قد فتح القلوب، وهذا العصر هو عصر فتح القلوب ولكل زمان عمله.

فالأستاذ مربٍّ بالدرجة الأولى، وللتربية مجالات في فكره:

المجال الأول: التاريخ التركي بصفة خاصة.

المجال الثاني: التاريخ العالمي بصفة عامة.

التاريخ التركي مشحون بالدلالات والأحداث، ففيه دروس وعبر، وهو يحاول التركيز على التاريخ المحلي، لأن هذا التاريخ يُراد له أن يفصل عن الزمن التركي المعاصر. لقد حاول المستشرقون تشويه تاريخ السلطنة العثمانية ووصفها بأبشع النعوت والأوصاف، وما زال هذا النيل إلى اليوم ساري المفعول في الأفلام والمسلسلات.. التاريخ هو كل شيء في الفكر التركي الحديث، لأن به تنتعش الذاكرة ومنه تتغذى، فالحاضر المؤلم فيه الكثير من معطيات الماضي. وأما التاريخ العالمي فهو مركب من تاريخين:

التاريخ الأوربي الذي يعتبر التاريخ التركي جزءًا منه بحكم الجوار الجغرافي، ولهذا التاريخ أثر كبير على مسيرة التقلبات الزمنية في تاريخ الحضارة الإسلامية التركية.

وأما الثاني فهو الواقع الحديث والمعاصر، هذا الواقع أدرك الأستاذُ أقفالَه، ففتحها فانفتحت مغاليقه. إن الحديث عن "فقه الواقع" في فكر وفقْه الأستاذ لَيحتاج إلى وقفة خاصة، لأن البحث في فقه الواقع يتطلب استحضار المستندات الفقهية والأصولية والمقاصدية من خلال إنتاجاته، كما يتطلب استحضار معطيات الواقع بكل أبعاده، وتطبيق تلك المستندات على هذه المعطيات ثم استخلاص ما سيقع.

وأما المجال الثالث فيتمثل في استغلال القدرات وتدبير الإمكانيات، لأن الواقع لا يرتفع.

لقد وفر الأستاذ الإمكانيات الموجودة في سبيل الخدمة، هذه المجالات الثلاثة التي استطاع

الأستاذ أن يكون بها الجيل الذهبي للخدمة بُنيت هي الأخرى على قواعد ثلاثة: التسامح، والحوار، والتقريب بين المتباعدين.

وتستطيع أن تلحظ هذا في مجمل الأنشطة التي تقوم بها "مجلة حراء" الغراء وأخواتها على الصعيدين المحلي والدولي، كما تستطيع أن تلحظ ذلك في مؤسسات الخدمة المنتشرة في أرجاء تركيا، من ذلك مثلاً "مؤسسة الحوار" التي هي وَقْف للصحفيين والكتاب، يتم الاشتغال فيها على ترسيخ "ثقافة التعايش"، ويتم البحث فيها عن المناخ لتجسيد ثقافة الحوار من خلال اللقاءات والندوات والورشات... إلخ.

إن فتح بابِ الحوار والتعايش السلمي ونشر ثقافة التسامح إنما وَقَع الانطلاق فيه من واقع تركيا في إطار الحكم العثماني؛ لقد كانت تركيا إمبراطورية واسعة ممتدة الأطراف، تتعايش فيها كل الأجناس وكل الملل والنحل، وكانت العاصمة إسطنبول رمزًا للتعدد في أبهى صوره، لكن بين عشيّة وضحاها تحوّلت تركيا إلى دولة قطرية وطنية وعرقية. ولذلك فما يقوم به "إخوة الخدمة" ليس بدعًا من الفكر والعمل، بل هو نهج من نهج الأجداد. ثم إن جذوره ممتدة في الزمن التاريخي للحضارة الإسلامية، وقد أدرك قيمة هذا النهج الأستاذ محمد فتح الله كولن.

لقد عمّت فكرة إرهابية الإسلام العالمَ، فالإسلام دين إرهابي -كما صوّروه- يحث على القتل والكراهية والبغض والنفور، وهذه التهم ما زالت

إذا جاز لي أن أصف الإنتاج العلمي والتربوي للأستاذ كولن، فإنني أقول إنه بمثابة صيدلية عامرة تحوي عقاقير متنوعة ومتعددة، كل واقع يستلهم منها ما يراه مناسبًا لدائه.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

-للأسف- سارية إلى اليوم، ساهم في نشرها جيل من المستشرقين المستعمرين وممن نال من وحدة الخلافة الإسلامية، واستمر هذا النعت قرونًا من الزمن تصطبغ به الأدبيات الثقافية الغربية، وتزكّيه الفلسفات والنظريات الممسوحة باسم العلم. وقد حاولوا الدفع بها في مجال التربية والأخلاق حتى أصبحت فكرة جاهزة قابلة للاعتناق والاعتقاد، وبالتالي قابلة لأن تستثمر في مجال السياسة العالمية تجاه العالم الإسلامي. والشيء الأخطر هو أن أيّ تحرك إسلامي أو تجمّع إسلامي أو سياسة إسلامية إذا لم تكن تتوافق مع الرغبة الغربية وطموحاتها، فهي مصدر قلق وإرهاب!

أدرك الأستاذ فتح الله كولن هذا المدّ الثقافي الخطير المشحون بالنعوت القدحية وبالملصقات اللفظية الجاهزة، فبادر بتنقية الخطاب الإسلامي من كل ما قد يجلب إليه هذه التهم الجاهزة، فبنى فكره على "الحوار" والتسامح والأخلاق والقيم والتربية الروحية والجهاد بالكلمة الهادفة، والتآخي ومد جسور التعاون، مستبدلاً مصطلحات كثيرة بأخرى أكثر دلالة وأبلغ أثرًا، فركّز على الحوار جاعلاً منه دعامة أساسية. والحوار مبدأ أصيل في الثقافة الإسلامية، وأداة فعّالة في الدعوة والإصلاح الشامل.

في سنة ٢٠٠٥ أقيم ملتقى عالمي ضمّ تجار الخدمة وتجارًا من خارج الخدمة، وانعقد جسر عالمي للتجارة، واستطاع تجار الخدمة أن يجمعوا ١٨٠ ألف تاجر من أنحاء العالم، كان الغرض منه تلافي الإفلاس التجاري.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

انطلقت فكرة الدعوة إلى الحوار -بتوجيه من الأستاذ كولن- منذ سنة ١٩٩٥م، وقد وقفنا أثناء زيارتنا العلمية في مطلع سنة ٢٠١٣م والتي امتدّت أسبوعًا كاملاً على مركز من مراكز الحوار في إسطنبول وهو واحد من ستة مراكز موجودة في منطقة البوسفور، فإخوة الخدمة عمَليّون أكثر مما هم نظريون، يحبّون أن يطلعوك على ما هو موجود عوض الاكتفاء بالوصف والكلام. لا يتحدثون عما يعملون، بل يعملون أكثر مما يقولون، ويتركون للزائر الواقف على أساليب الخدمة الحكمَ الحرّ والمطلق.

كانت فكرة الحوار هي فكرة الأستاذ نفسه، فقد كان يدعو إليها دائمًا، وكان دائب الزيارة لكل الفئات والهيئات والتيارات والمنظمات، وكان يقدّم الخدمة كأنموذج؛ الخدمة التي جمعت كل الأطراف المتصارعة على طاولة واحدة، فبعدما كانت القطيعة والانفصام تسود بين الأطراف المتخاصمة، اجتمعوا على مجلس واحد وحاور بعضهم بعضًا، وأدركوا جميعًا أنَّ همَّهم مشترك هو خدمة الوطن. وقد شمل هذا الأسلوب كل الطوائف في المجتمع التركي، من حزبيين ومفكّرين ومثقفين ونقابيين ورياضيين وفنّيين... إلخ، وأصبح الأستاذ فيما بعدُ الرئيس الفخري لهذه الملتقيات الحوارية.

الواقعية والواحد المتعدد

مشروع الخدمة من حيث مكوناته وأساليبه، هو ذاتي التكوين، لم يَستعر هذا المشروع تنظيمه وأساليبه وهيكلته من غيره، لكنه في عمومه استوحى التجربة من التراث الإسلامي، نعني بذلك التوجيهات النبوية وآراء السلف الصالح، ثم معطيات الواقع الذي لا يرتفع. إن السر في نجاح المشروع يكمن في الاستلهام من التراث، ومن توظيف الطاقة والقدرات. ولو كان مقتبسًا من غيره لكان نصيبه الفشل، والتجربة لا تكون ناجحة إلا في واقعها وبواقعها.

يجب الإشارة إلى نقطة مهمة جدًّا قلما ينتبه إليها الباحثون في فكر الأستاذ محمد فتح الله؛ ذلك أن مجمل الأعمال الفكرية والثقافية التي أنجزها إنما هي نتيجة الاستفادة من التاريخ، ونعني بـ"التاريخ" دراسة أسباب سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا. لقد استفاد الأستاذ من أسباب السقوط، ومن موقع السقوط، بحث في أسباب النهوض وهو المتمثل في الخدمة باختصار.

إن الواقعية التي نتكلم عليها هنا، هي واقعية الفكر، وواقعية التصور، وواقعية التجربة، وواقعية الفهم والعلم، وواقعية الحركية والتفاعل... الواقعية هنا متعددة الأبعاد، ويحلو لي أن أصف الأستاذ محمد فتح الله بـ"الرجل المتعدد". إذ لو لم يكن

التعدد موجودًا لما امتد منه هذا التعدد، تعدد ملموس في داخل تركيا وفي خارجها، لو لم يكن التعدد موجودًا، لما تمكنت آراء وأفكار وتصورات ومذاهب وملل ونحل وفلسفات من التوحد حول طاولة الأستاذ، وهي تجربةٌ أساسُ نجاحها هو الطموح، وهي النقطة التي سنتولى الإشارة إليها في المعالجة الآتية.

إذا جاز لي أن أصف الإنتاج العلمي والتربوي للأستاذ محمد فتح الله كولن، فإنني أقول إنه بمثابة صيدلية عامرة تحوي عقاقير متنوعة ومتعددة، كل واقع يستلهم منها ما يراه مناسبًا لدائه. الداء واحد لكن لا أحد ينكر أن مضمونه مختلف، لذلك جعل لكل واحد جرعته، سواء أكان هذا الواحد رجلاً أم امرأة، شابًّا أم كهلاً، مجتمعًا أم دولة، مسلمًا أم غير مسلم... ومنبع هذا التعدد، هو التمكن من فهم الواقع أولاً، ومن ملامسة مشاكله. فالناجحون في الدعوة هم المتحكمون في فهم الواقع وفهم مشاكله بغية معالجتها. العشرات من الدعاة اليوم، يملأون الشاشات يوجهون ويعظون ويرشدون؛ وها هي خطبة الجمعة -مثلاً- تقام في بقاع العالم الإسلامي، ويحضرها جمع غفير من المصلين، لكن الخطباء ما استطاعوا -في بعض البلاد الإسلامية- أن يزيلوا من الناس ظاهرة واحدة من الظواهر المذمومة وما أكثرها، والأغرب أنها في توالد وتكاثر.

لقد سعى الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى إنتاج الخير وزرعه ليكون في كل مكان حتى يعمّ،

الصحابة كانوا قدوة لأبناء الخدمة، قال لهم الأستاذ مرّة وقد خرج إلى جماعة منهم وهو يحمل كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي بيده: "كونوا مثل هؤلاء أو موتوا".

nesemat.com نسمات nesemat.com

وإذا عمّ المكان امتد في الزمان ليكون المستفيد الأول منه هو الإنسان.

طموح محمد فتح الله كولن

لا يمكن للأستاذ محمد فتح الله كولن، أن يتخلى عن خصوصيته كطفل نشأ في بيت محافظ، بيتٍ تربى فيه على القيم المعنوية والأخلاق المثالية، ونشأ في جو التعليم التقليدي الكلاسيكي في الكتاتيب والمدارس الدينية التي أنهى بها دراسته، وهي معاهد ومدارس لم تكن في المستوى المطلوب في ذلك الوقت. لكن الطموح والتميز كانا في أعماق هذا الطفل الذي كلما كبر ونما، نما معه طموحه. كلما نما الإنسان الطموح نموًّا مثاليًّا، نما معه طموحه، وكلما انحرف، انحرف نمو الطموح. لكن نمو الطفل محمد فتح الله كان مطردًا، ليستقر به الحال في مهمة الدعاة والمربين الأخيار. لقد سخّره الله تعالى لشحذ الهمم، وصقل الأرواح، وتنمية المدارك، وإذكاء العقول... وها هو بطموحه الفياض، يتمكن من زرع الطموح ومن تنمية الطموح؛ وهو طموح يتقد بالمشاكل، وينتعش بالقلاقل، وينمو في ظل الاختلافات والفتن.

إن المتأمل في ثقافة وأدبيات الأستاذ فتح الله، يجدها تفوح بفكر المحبة، وبالأساليب الدافعة إلى تحصيل المحبة -محبة القلوب- وهي ظاهرة تحتاج إلى أن تُفرد ببحث مستقل.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

مبادئ الخدمة

١- العمل: العمل من حيث من يقوم به على نوعين: عمل فردي وعمل جماعي. العمل الفردي عمل ضعيف، لا يصمد ولا يؤثر لا سيما في هذا العصر. وفكر الأستاذ كولن هو فكر لأجل العمل، وكلام لأجل الممارسة. فكل ما صدر عنه له صلة بالعمل ولا شيء غير العمل. ولعل السر، يكمن في عنصر الإخلاص. البنايات ليست هي كل شيء، ففي العالم بنايات ومرافق ووزارات وكليات... إذا غاب منها الإخلاص، كانت ركامًا من الإسمنت الصلب كصلابة القلوب التي تديرها. ولقد أفلست الحضارة، حين غاب منها الإخلاص، لأنه إذا غاب الإخلاص حصل الإفلاس.

٢- الوقف: تُعوّل الخدمة في جانب كبير منها على الوقف؛ فالوقف هنا، ليس كلامًا يردد في هذا الحديث أو ذاك، أو شعارًا يرفع من موقع مآزق الإيمان الصعبة، بل هو تربية وخلق وسلوك يتسم بالمنافسة المشروعة وبنكران الذات. نرى العمل ولا ندري كيف تم، تراه ماثلاً أمامك ولا تدري متى أُنجز، تعاين المنجزات قائمة شاهقة أبراجُها في السماء تنعكس على الإنسان والحضارة والعمران دون أن يذكر أصحابها.. منجزات أوقفوها في سبيل الله صدقة جارية وتواروا خلف الجدران، ومنهم من توارى خلف التراب، تاركًا ما أوقف أمانة في أعناق الخدمة. وقد امتد هذا الوقف خارج تركيا، لقد استطاع الوقف أن يتعدى عتبة الحدود والقيود إلى ساحة العالم الإنساني كله... إنها الخدمة التي تسير من دون مواثيق ولا معاهدات، ولا دفاتر يتباهى بها، ولا سجلات تُحرِج أحدًا، ولا قانون ملزم داخلي أو خارجي، ولا يُفعَل من هذا كله إلا ما اقتضته ضرورة التسيير الإداري، وإلا فمجال الخدمة مفتوح.

٣- التربية والأخلاق: حرص الأستاذ محمد فتح الله كولن على التربية؛ تربية الجيل الذي أطلق عليه نعت "الجيل الذهبي"، الجيل الذي تربى على الخدمة. لكن الخدمة هي في حاجة إلى خدمة، وخدمة الخدمة هي التربية الإسلامية في صفائها ونقائها، وفي إطارها العلمي والمعرفي. لقد أدرك الأستاذ أنه لا خدمة من دون تربية، تربية كان يبدأ فيها دائمًا من نفسه، ثم يمتد لينشئ الجيل الذهبي، ومعناه الجيل الغالي والنفيس لأنه أغلى ما هو موجود في المجتمع، جيل أُعيد إليه الوعي بدينه وحضارته وقيمه، جيل ساهم هو بدوره في إعادة الوعي للشعب التركي، هذا الشعب الذي طُمست هويته ردحًا من الزمن.

إلى جانب عنصر التربية هناك عنصر "الأخلاق" أيضًا، الأخلاق التي حولها الأستاذ من أخلاق فردية

إلى أخلاق اجتماعية، ومن أخلاق خاصة بالذات إلى أخلاق متعدية إلى الغير. ويمكن القول بأن الأستاذ سخّر مجمل النظريات والأفكار والآراء الخلقية في سبيل الخدمة. ولا خير في أخلاق لا تؤدي وظيفة الخدمة أو تعين عليها، إنها الأخلاق العملية المتمثلة في التعاون والتكافل والتآزر والتآخي... فلا يكون الفرد متخلقًا في عرف الخدمة إلا إذا كان عونًا لغيره. تلك هي "الأخلاق العملية" التي من خصائصها الوسطية والاعتدال، وهما خاصيتان أساسيتان في الأخلاق الإسلامية، فبقدر ما نتكلم عليهما نظريًّا بقدر ما يجب أن نتعامل بهما واقعيًّا، فالرجل الصالح يُكون الإنسان الصالح، والرجل الصالح يُؤلف الكتاب الصالح، والشركة الصالحة تُسهم في نشر الإنتاج الصالح، والإذاعة الصالحة تبث الأخبار الصحيحة والسليمة والصالحة... فالإنسان الصالح -في بداية المطاف ونهايته- هو ثمرة غالية، وهو ما تحاول الخدمة أن توجده وتُكوِّنه.

هذا الالتفاف العجيب حول شخص الأستاذ كولن هو سر نجاح الخدمة، وهو التفاف يعكس وحدة المرجعية ووحدة التصور ووحدة الفكر ووحدة التربية والأخلاق ووحدة العمل والممارسة... وهي وحدة ضمنت للخدمة وحدة الهدف والقصد؛ الكل عرف ما قصد، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد.

٤-الحوار: لقد أنبئنا بأن الحوار -على مستويات متعددة- بدأ بين الأيديولوجيات، ثم بين الأقليات، ثم بين الحضارات والثقافات، فتطور إلى الأديان والمعتقدات. لقد زار ممثل الفاتكان الأستاذ وحاوره

الأستاذ اسم على مسمّى؛ فهو "فتحٌ" مبين على هذا الجيل المتعطش للتربية، وللقدوة الصالحة، والتوجيه النير، فإذا كان الفاتح قد فتح الديار، فإنه قد فتح القلوب.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وتكلم معه، ورتب له زيارة إلى البابا بإيطاليا. ويذكرون أن ممثل البابا لفظ أنفاسه في مستشفى "سماء" وهو المستشفى الذي كان يتعافى فيه الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله، وهو من مؤسسات الخدمة. ويذكرون أن الممثل ربما مات على دين الإسلام، لأنه همس في أذن الأستاذ بشهادة التوحيد، وكان قد أصيب بحادثة سير في إيطاليا طلب على إثرها الانتقال إلى تركيا، وكان من وصيته أن يغسل ويكفن ويدفن على طريقة إخوانه المسلمين هنا في تركيا، وكذلك كان.

لم يكن إخوة الخدمة يحتكرون الحوار من دون الملل والمذاهب والنحل، بل كان للنصارى -مثلاً- قاعة للحوار، لكنها كانت شكلية لم يجن منها المسيحيون غير الخسارة. أما إخوة الخدمة، فقد كان الحوار عندهم متميزًا جدًّا؛ فقد كانوا يربحون في كل مرة، وأقوى ربح هو أنهم ربحوا النصارى أنفسهم حيث بدأ أبناؤهم يتوافدون على مدارس الخدمة، ثم إنهم ربحوا فئة من الشعب التركي وهي فئة الأغنياء والأثرياء، هؤلاء كانت أصولهم إسلامية لكن تدينهم كان ضعيفًا جدًّا، لا يعرفون معنى الشهادة ولا القبلة ولا الإيمان، ومنهم من ينزعج من الأذان

هذا الالتفاف العجيب حول شخص الأستاذ كولن هو سر نجاح الخدمة، وهو يعكس وحدة المرجعية و التصور والفكر والتربية والأخلاق والعمل والممارسة... وهي وحدة ضمنت للخدمة وحدة الهدف والقصد.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

وإقامة الصلاة ويهاب الشعائر، هؤلاء هم الذين يطلق عليهم "الأتراك البيض"، وكانوا من حكام تركيا، وجلّهم تربوا في المدارس الأجنبية. هؤلاء هم الجيل الضائع، وهم الفئة المعادية وقد تملكهم الغرور حتى أصبحوا يحسبون أنفسهم بأنهم فوق الناس، لأنهم -حسب ظنهم- يمثلون الإنسان الأناضولي الممتاز، لكنهم بفعل الحوار الهادئ والمنهجي تغيروا كثيرًا.

لقد كان إخوة الخدمة، يربطون الجسور مع كل الطوائف والفئات والاتجاهات في تركيا؛ علويين، أتراكًا بيضًا، علمانيين، اشتراكيين، شيوعيين... واستطاع الجميع أن يتمثل على الأقل أهمية الحوار وضرورته، ومن هنا لم يعد أحد يقف ضد الحوار. فكان هذا أكبر مكسب في تجربة الخدمة.

استطاعت التجربة أن تقلب الموازين وتغير الكثير من المفاهيم المغلوطة؛ فمن الأفكار الرائجة -مثلاً- في تركيا، أن كل مسلم هو متخلف ورجعي وأصولي ووثوقي، يميل إلى العيش في غياهب الماضي فينسى الحاضر والمستقبل. لكن المروّجين لمثل هذه الأفكار تفاجأوا، لأنهم وجدوا أمامهم جيلاً -من أبناء الخدمة- من الفئة المتحضرة والمتمدنة، جيلاً إنسانيًا متخلقًا وتواصليًا بامتياز، جيلاً وهب نفسه لخدمة الإنسانية، وتطوّر النعت القدحي من الرجعية إلى المحافظة، وبدأوا يرسلون أولادهم إلى معاهد ومدارس الخدمة، ووقفوا على تخلّفهم وعلى قصور نظرتهم، وبدأوا يدركون -على مر الوقت- أن الإسلام ليس كما يتصورون.

مجالات الخدمة

أ- الأسرة والخدمة: حين تصبح العلاقات العائلية والأسرية كلها في "خدمة" الخدمة، حين يصبح أفراد الأسرة كلهم أطرافًا في الخدمة، تتحول الخدمة إلى "عائلة كبيرة". فأولاد الفرد من الخدمة هم أولاد الناس كلهم، وأولاد الناس كلهم هم أولاد كل فرد من أفراد المجموعة. كل النساء أخوات هنا، الكل في خدمة الكل. هنا تذوب الأسرة الصغيرة في إطار الأسرة الأكبر، وهي مقدمة نحو أن يصبح المجتمع كله كالأسرة الواحدة. ولذلك فإن أبناء الخدمة، لا يتضايقون من مساعي الحكومة التركية في الانضمام إلى الاتحاد الأوربي؛ ذلك أن كل ما هو اتحاد تحب الخدمة أن تكون فيه. وهذا من شأنه أن يحقق للاتحاد الأوربي نفسه مزايا كبيرة ما دام من مستلزمات السياسة الأوربية التركيز على الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وهي أمور تحققت في برنامج الخدمة عمليًا. لن تكون هذه الخدمة شكلية أو تجنى من ورائها مصالح مادية أو مكاسب سياسية، بل هي تتماشى مع المتطلبات الحقيقية للمصالح الأوروبية المتمثلة في الصناعة والتعليم والتجارة، وهي أمور قطعت فيها الخدمة شوطًا بعيدًا.

إن أوربا شاخت، وأصبحت في طريق أن ينطبق عليها ما كان ينطبق على الإمبراطورية العثمانية في عهودها المتأخرة حين نعتوها بـ"الرجل المريض". والنعت الذي ينطبق عليها حاليًا هي أنها "قارة عجوز". فهي بحاجة إلى أجيال فتية، وهذه الأجيال لا توجد سوى في تركيا من ناحيتين: من حيث الموقع، ومن حيث المصالح المشتركة. فلا مناص لأوروبا من التكامل مع تركيا، ثم هناك ناحية أخرى، وهي أن أوروبا تتواجد بها أجيال من تركيا معروفون بالعمل والجد والاجتهاد، برهنوا من خلالها على كفاءاتهم وإخلاصهم. لهذا السبب، سعى إخوة الخدمة إلى تهيئة أنفسهم للاندماج في المجتمع الأوروبي وخدمته، بالطرق التي يسعى لتحقيقها وهي بناء الإنسان مع غرس المقومات والمبادئ.

ب- الإعلام: لست بحاجة هنا إلى سرد مجمل إنجازات الخدمة في مجال الإعلام الذي تعددت واجهاته: الإذاعات، والقنوات، والمجلات، والصحف... فهذا شيء كثير -ولله الحمد- لكن يكفي أن نذكر من هذا الإنجاز، جريدة "زمان" التي لا تقف أمامها أية جريدة. كما قمنا بزيارة مقر الإذاعة بتاريخ ٢٠١٣/٠١/٢٩ التي قدم إلينا مديرها شروحات مستفيضة عن توظيف القضايا الدينية والعقدية يطول بي المقال في بسطها وشرحها.

إن أكبر نجاح حققه إعلام الخدمة، هو أنه تصدى للإعلام الكاذب ففضح أساليبه وخططه. وتَحقَّق من هذه العملية أن الإعلام المضاد خفف من حدة التمويه والزيف والتضليل، ورام إلى

تجربة الأستاذ هي تجربة رباعية التركيب: "التراث الإسلامي"، و"التجربة الشخصية"، و"الواقع المعاصر"، و"البعد الإنساني" الذي هو الدافع والمحرك.

nesemat.com نسيمات nesemat.com

الصدق خوفًا من المنافسة والإقصاء. لم يفعل هذا وعيًا منه بمسؤولية الكلمة، بل كان دافعًا من فعل الخوف من إعلام الخدمة.

جـ- الاقتصاد ويتمثل في:

١- التجارة: نعني بالتجارة؛ المعاملات التجارية، ورجال الأعمال، والشركات التجارية. والتجارة هي كل شيء لأن لها صلة بالمال، والمال عصب الحياة، وأحد الضرورات الخمسة التي جاءت به الشريعة الإسلامية. وهي -قبل هذا وبعده- سنّة فعلها النبي ﷺ؛ فقد كان تاجرًا، وأجداده تجارًا، وكذلك قبيلته التي ذكرها الله في محكم التنزيل، وتزوج من تاجرة، وبقي يشتغل بالتجارة حتى نزل عليه الوحي. وهذا يبين -أولاً- على أن الوحي نزل على تاجر، وتوسع في أوساط التجار، وهذا يبين -ثانيًا- على أن التجار هم عمدة المجتمع وأساسه. فقد ساهمت تجارة الصحابة ﷺ في تنمية المجتمع حتى إن الله تعالى ضرب بها الأمثال في القرآن الكريم. لكن المسلمين تقاعسوا في الاهتمام بـ"التجارة" ولم يعطوها حقها الذي تستحقه، فأُتُوا منها.

لكن أبناء الخدمة لم يُهملوا هذا المجال المهم؛ ففي سنة ٢٠٠٥ أقيم ملتقى عالمي ضمّ تجار الخدمة وتجارًا من خارج الخدمة، منذ

nesemat.com نسمات nesemat.com

الوظيفة الحقيقية للإنسان على هذه الأرض هي الإيمان بالله والعمل الصالح، وهي أزرار ضغَط عليها الأستاذ كولن بإحكام فبنى عليها مشروع الخدمة:

ذلك الوقت، انعقد جسر الملتقى العالمي للتجارة، واستطاع تجار الخدمة أن يجمعوا حوالي ١٨٠ ألف تاجر من مختلف أنحاء العالم، كان الغرض منه تلافي الإفلاس التجاري، وحتى الذين أفلسوا، استفادوا من إفلاسهم فأخذوا الوقاية والعلاج في آن واحد.

كان وراء ذلك فئة من الشباب الذين وفرتهم الخدمة، والذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٦-٣٢ سنة، وضعوا لجانًا حسب الاهتمامات، ونظموا أنفسهم تنظيمًا محكمًا. وأطلقوا على منتداهم نعت "لونجا" وهو منتدى معروف في تركيا، يلتقون فيما بينهم فيتحاورون ويتشاورون ويتعاونون فيعقدون صفقات مع بعضهم. والهدف من هذه الملتقيات، هو الانفتاح على العالم الخارجي. وجرى الانفتاح مؤخرًا على القارة الإفريقية بصفتها قارة بكرًا كما يعتقدون. هؤلاء كلهم أعضاء في اتحاد "توسكون" الذي تطور إلى مؤسسة كبيرة، بحيث أصبحت أكبر التجمعات لتجار تركيا، كانت تضم في سنة ٢٠٠٥ حوالي ٦٠٠ جمعية، ولا ندري ربما زاد العدد الآن.

ومن المواصفات التي حددتها مؤسسة توسكون للتاجر: النظرة إلى الأفق لا إلى الثروة. الاهتمام بمن له رغبة في الحركة التجارية. الاهتمام بالتاجر الصغير ليصبح تاجرًا كبيرًا في المستقبل.

وفضلاً عما سبق، فإن الخدمة حريصة على توفير جو يليق بالتجار، لأن للتجار عالمهم الخاص بهم، فهم لا يجالسون العلماء والمثقفين، لأن للتجارة أسلوبها وثقافتها. ورجال التجارة يخافون على أموالهم، لأنهم لا يملكون شيئًا غير المال. فسر التجارة هو البحث عن الأسواق التي فيها الخصب، وهم دومًا يبحثون عن الربح. لكن التجارة هنا في تركيا -وفي تجارة الخدمة بالذات- الأمر يختلف؛ فهم يجلسون ويجالسون، ويأنسون ويستأنسون، ويأخذون ويعطون، فيتعاونون ويتساعدون... وهم جنود في الخدمة، والخدمة تعول عليهم كثيرًا. لذلك أضافت التنظيمات التجارية -المتحدَّث عن بعضها سابقًا- بعدًا آخر لمدى الوحدة والتوحد لأجل التعاون، وفتح آفاق التجارة والعمل بغية النماء والاستثمار. في هذا الاتحاد يلتقي الشباب بالشيوخ، فيستفيدون من تجربتهم، وينهلون من معين خبرتهم. وهل يستغني الشباب عن الشيوخ؟ اللهم كلا.

كان من أهداف الكليات والمعاهد المتخصصة في إدارة المال والأعمال على مختلف تسمياتها، أن تخرج منها أبناء التجار الذين يستوعبون تجارة آبائهم، ويحافظون عليها، ويطورونها نحو الأجود والأفضل. وقد ضمنت الخدمة نوعًا من التواصل التجاري بين الشباب والشيوخ، والآباء والأبناء.. تواصل قائم على الاستمرارية والديمومة، وينبني على قيم وأخلاق التجارة. فالتجارة القائمة اليوم،

تقوم على الغش والاختلاس والاحتكار واستنزاف الآخر، وهذا يؤدي في النهاية إلى الإفلاس. وإذا أفلست التجارة أفلس الاقتصاد، وإذا أفلس الاقتصاد أفلس المجتمع. ذلك ما تحاول تجارة الخدمة أن تتلافاه، ومصائب قوم عند قوم فوائد.

٢- الشركات التجارية والخدمة: كان للتجارة وللتنظيمات التجارية نصيب من التربية والتوجيه، ونصيب من الخدمة أيضًا، بل سخّرت كلها للخدمة. وقد أولى الأستاذ محمد فتح الله كولن للشركات التجارية قيمة كبيرة، وذلك لأهمية المال والاستثمار والأعمال في الحياة اليومية للإنسان بصفة عامة. وقضية التجارة والتجار هي قضية مهمة في تاريخ الحضارات الإنسانية منذ القدم. لماذا لا تعول الخدمة على التجارة والتجار، والحضارات الإنسانية إنما بدأت بالتجارة وازدهرت ونمت بها. وقد أدرك الأستاذ كولن -بتجربته وبثقافته الواسعة- أن للرحلات التجارية دورًا كبيرًا في استعمار الشعوب، وهو موضوع يطول بنا المقال في سرد تفاصيله، لكننا نقتبس جازمين أن كثيرًا من الشركات التجارية الغربية التي حطت في الشرق، كانت مؤسسات استعمارية، أما شركات الخدمة فهي شركات إنسانية، دعوية وتكافلية. فهي شركات -كما سماها أحد أبناء الخدمة الفاعلين- "شركات الفتح المبين".

٣- الأبناك: إلى جانب الجهود السابقة المباركة، تقف الأبناك ماثلة في مشروع الخدمة، من هذه البنوك -مثلاً- بنك "آسيا". ولا تُعرف قيمة مثل هذه البنوك إلا في شيوع الأزمات؛ في الوقت الذي تتضايق فيه بعض الأبناك وتفلس أخرى، تبقى هي صامدة حية تقدم خدمتها بكل ثقة. للأزمة مدلول قدحي الدلالة، لكنها حين تكشف الحق من الباطل، والزيف من المغشوش، تصبح الأزمة رحمة. لقد واصل بنك آسيا مشروعه حتى عقد مع البنك الدولي اتفاقيات صارمة، وهو بنك إسلامي، والصعوبات في طريق هذا النوع من الأبناك لا بد منها، لكن بنك آسيا كان يتكيف مع الوضع.

ذلك هو الاقتصاد في مشروع الخدمة بأبعاده الثلاثة، وتلك هي مبادئ المشروع ومجالاته الأساسية نبعت من موقع المعاينة والمشاهدة، وليس من سمع كمن رأى. ■

الهوامش

(١) انظر: "اجتياز الزمن والمسافات"، فتح الله كولن، ٢٥ مارس ١٩٩٠م، إزمير/تركيا.

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" للأستاذ فتح الله كولن، تكلم فيه عن السيرة النبوية في خمسة أقسام، وملحق للسنة النبوية من حيث تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية.. وكتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، وكتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، وكتاب "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، و "ترانيم روح وأشجان قلب" وغيرها من الكتب والرسائل العلمية القيمة.

(٣) للأسف الشديد أغلق الحزب الحاكم كل الهيئات والوسائل الإعلامية والمؤسسات التربوية والتعليمية، وكل مناشط الخدمة في تركيا بعد الانقلاب المزعوم في ١٥ يوليو/تموز ٢٠١٦م دون أيّ مبرر قانوني، واعتقل وطرد أعدادا كبيرة من العاملين على هذه المؤسسات، وشرد طلاب المؤسسات التعليمية. (المحرر)

نسمات

إصدارة علمية بحثية متخصصة

نسـمات إصدارة علمية بحثية متخصصة في دراسة مشروع الخدمة والرؤية الإصلاحية للأستاذ فتـح الله كولن في أبعادها الفكرية وتجلياتهـا التطبيقية. وهي تندرج في إطار الأعمال البحثية الميدانية المتخصصة في ظاهرة اجتماعية ما، تسلط الضوء عليها، وتسبر أغوارها بعمق، وتكشف عـن حيثياتها ومآلاتها، وتعقد صلتهـا بخبرة الماضي، وتدرس فاعليتها في الحاضر، وتسـتشرف امتدادها في المسـتقبل، لتخرج بنتائج علمية تشكل إضافة نوعية إلى المعرفة الإنسانية والخبرة البشرية.

يهدف مشروع نسـمات إلى سبر أغوار نموذج الخدمة والرؤية الحضارية للأستاذ فتح الله كولن ودراستها من زوايا شتى، سواء من الناحية النظرية الفكرية، أو من الناحية العملية التطبيقية. ومن ثم تحث الباحثين في المجال الفكري الحضاري على السـعي معها في هذا المضمار، وترحب بكل عمل جاد يساعدها على تحقيق مبتغاها.

شروط النشر

- أن تكون المشاركة جديدة لم يسبق نشرها.
- أن تكون دراسة متصلة بمشروع الخدمة وفكر الأستاذ فتح الله كولن.
- أن تكون المشـاركة إسهاما إيجابيا مثريا، تشكل إضافة نوعية في القراءة والنقد والتحليل وتتوافق مع المعايير العلمية المعروفة.
- ألا تقل عن ١٥٠٠ كلمة وألا تزيد على ٧٠٠٠ كلمة.
- أن يرسل الباحث ملخصا لمشاركته في حدود ٢٥٠ كلمة.
- تخضع المشـاركات المعروضة للنشر لموافقة لجنة استشـارية علمية، وللجنة العلمية أن تطلب من الباحث إجراء أي تعديل على المشاركة قبل إجازتها للنشر.
- هيئة التحرير تلتزم بإبلاغ أصحاب المشاركات بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفـظ هيئة التحرير بحقها في نشر المشـاركات وفق خطة التحرير وحسـب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- المشاركات التي تنشر في نسمات تعبر عن آراء كتابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- لـ«نسـمات" حق إعادة نشر المشـاركات منفصلة أو ضمن مجموعة من الأبحاث، بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أي لغة أخرى دون حاجة إلى استئذان صاحبها.
- نسمات لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجـى من الباحث أن يرفق مع المشـاركة نبذة مختصرة عن سـيرته الذاتية مع صورة واضحة مناسبة للنشر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى العنوان الآتي: nesemat@yahoo.com

صدر مع هذا العدد "كتاب نسمات الأول"

مواقف في زمن المحنة

حوارات إعلامية مع فتح الله كولن

لتحميل الكتاب بصيغة PDF زوروا موقعنا

www.nesemat.com

nesemat.com
نسمات
دراسات حول مشروع الخدمة

النموذج الحضاري المجتمعي يعيد الاعتبار -بدأبٍ وإصرارٍ- لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًّا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون.

الأستاذ كولن مجددٌ من الطراز الأول للخطاب الإسلامي في العصر الحاضر. ولم يؤمن بتوجه غير إسلامي، رغم كثرة التيارات الفكرية والفلسفية التي ماج بها عهد الجمهورية التركية منذ بدايته وحتى مطلع القرن الحالي.

لا يكون الفرد متخلقًا في عرف الخدمة إلا إذا كان عونًا لغيره. تلك هي «الأخلاق العملية» التي من خصائصها الوسطية والاعتدال، وهما أساسيتان في الأخلاق الإسلامية.

nesemat.com نسمات nesemat.com

ISBN 978-977-801-039-8
9 789778 010398
دار النيل